© أوراق فلسطينية

تصدر عن مؤسسة ياسر عرفات

رئيس التحرير: يحيى يخلف
مدير التحرير: غسان زقطان
مستشارا التحرير: فيصل دراج، الياس خوري

يشارك في التحرير: فيصل حوراني
عبد الفتاح القلقيلي
أحمد نجم

الهيئة الاستشارية: حلمي النمنم
كمال عبد اللطيف
محسن بوعزيزي
كريم مروة

ادارة: وليد قنة

التصميم الفني والإخراج: عاصم ناصر

جميع الحقوق محفوظة لمؤسسة ياسر عرفات

ISBN 978-9950-375-04-8

AWRAQ FELASTINIA

أوراق فلسطينية

فصليّة فكريّة عربيّة تصدر عن مؤسّسة ياسر عرفات

العدد «٢٦» ربيع ٢٠٢١

المراسلات:

العنوان: ص. ب: ٥٧٣

رام الله – فلسطين

هاتف: ٢٩٥٧٣٧٣ – ٩٧٠٢ + / ٢٩٥٧٣٧٢ – ٩٧٠٢ +

Email: awraq.falastinya@gmail.com

www.yaf.ps/awraqfelastinia

الاشتراكات السنوية:

٥٠ دولاراً للأفراد، ٨٠ دولاراً للمؤسسات (بما فيها نفقات البريد)

ترسل الاشتراكات شيكاً إلى العنوان البريدي أو حوالة بنكية على حساب المؤسسة:

البنك العربي

رام الله – فلسطين

فرع الماصيون

رقم الحساب: ٥١١ – ٤٨٠٢٥٢ - ٩٠٩٠

Ps 57 arab000000009090480252510

الفهرس

الافتتاحية

٧ **الانتخابات والقدس**

أوراق فلسطينية

١٣ **كيف انبنى أدب فلسطيني في الشتات؟**

د. فيصل درّاج

٣٧ **الانتخابات الفلسطينية، تقدير موقف أولي**

عبد الغني سلامة

٤١ **قانون أملاك الغائبين الاحتلالي: سرقة ممتلكات الشعب الفلسطيني في وضح النهار**

عزيز محمود العصا

٤٩ **التغييرات في المجتمع الإسرائيلي خلال العقدين الماضيين**

عليان الهندي

٦١ **رؤية اليهود العرب للدولة الفلسطينية والتطبيع**

أ.حسام أبو النصر

قراءة في المشهد الاسرائيلي بعد الانتخابات الرابعة

٧٥ **الانتخابات الرابعة.. إسرائيل هي اليمين للعديد من السنين**

نظير مجلي

٩١ **الانتخابات الأخيرة وأزمة إسرائيل السياسيّة**

محمّد علي طه

١٠٣ **الانتخابات الاسرائيلية ومصير الدولة الاستيطانية الاستعمارية**

د. وليد سالم

الآراء الواردة تعبر عن رأي الكتّاب، وهي لا تعبر بالضرورة عن رأي المؤسسة.

الفهرس

أوراق ثقافية

١١٣ **محمود شقير.. شيء من السيرة في «تلك الأمكنة»!**

بديعة زيدان

١٢٥ **ملاحظات نقدية حول رواية عربية معطوبة**

أحمد المديني

١٤١ **رلى حلواني.. عن فلسطين والصورة وأشياء أخرى!**

يوسف الشايب

١٤٩ **لأنني لستُ سليمان!**

أثير الصفا

١٥٥ **حيفا في سواد العيون**

عباس شبلاق

مراجعات وتقارير

١٦٥ **"إمّا نحن وإمّا هم".. حين وثق داني روبنشتاين سيرة الشهيد عبد القادر الحسيني من مصادر عربية!**

يوسف الشايب

١٧٧ **ستي الفلسطينية لهدى الشوا حين تلخّص الوارثة فريدة أهلها والعالم**

تحسين يقين

١٨٧ **إيلان بابيه في «أكبر سجن على الأرض».. سردية جديدة للسيطرة الإسرائيلية على الأراضي المحتلة**

بديعة زيدان

الانتخابات والقدس

تشهد الساحة الفلسطينية هذه الأيام حراكا سياسيا نشطا في أجواء الانتخابات التشريعية التي ستجرى في الثاني والعشرين من مايو أيار ٢٠٢١.

حدث هام في الحياة الداخلية الفلسطينية بعد انقطاع دام سنوات طويلة مما فتح الأبواب أمام تجديد الفرص لحياة ديموقراطية تتعزز فيها الأطر المنتخبة من الشعب الفلسطيني بشكل ديموقراطي .

وسوف تُستكمل هذه الديموقراطية من خلال إجراء انتخابات رئاسية ، ومجلس وطني في تواريخ لاحقة استنادا الى المرسوم الرئاسي الصادر عن الرئيس محمود عباس في الخامس عشر من شهر يناير ٢٠٢١، وبموجب هذا المرسوم حدد تواريخ اجراء انتخابات المجلس التشريعي في مايو أيار ٢٠٢١، والانتخابات الرئاسية في ٣١-٧-٢٠٢١، واستكمال انتخابات المجلس الوطني في ٣١-٨-٢٠٢١حيث تجري الانتخابات حيثما أمكن.

وتلقى المواطن هذه القرارت بترحيب ،كما تلقتها بترحيب أيضا القوى والفصائل في كل من المحافظات الشمالية (الضفة الغربية) والمحافظات الجنوبية (قطاع غزّة).

وبدا أنّ هناك تعطش المواطن لممارسة حقّه في اختيار من يمثّله ، ورغبة من الفصائل والقوى في الاستجابة لمطالب الجماهير الفلسطينية المتعطّشة للتجديد والخروج من الواقع الذي فرضه الانقسام والظروف السياسية الصعبة التي مرت بها القضية الفلسطينية داخليا وعربيا وعالميا ، وأهمها ما طرحه ترامب في ما سمّي بصفقة القرن ، وما فعلته بعض الدول العربية

من اتفاقيات تطبيع مع إسرائيل.

ولعلّ نجاح الديموقراطيين في الولايات المتحدة ومجيء الرئيس بايدن، وإمكانية التغيير المأمول في السياسة الخارجية الأميركية يمثّل أحد الحوافز للقيادة الفلسطينية للمضي قدما في انجاز الانتخابات ، كمظهر من مظاهر الديموقراطية ، وظهور قيادة منتخبة من الشعب تجد الترحيب من دول العالم المهتمة في إيجاد حل سياسي للقضية الفلسطينية، قضية الشرق الأوسط.

ولعلّ الإقبال المدهش على الترشّح ،حيث تقدمت ٣٦ قائمة لانتخابات المجلس التشريعي، يبرز ظهور قوى جديدة تتطلع لايجاد مكان لها في الحياة الداخلية ، وتكريس التمسك بسياسة صناديق الاقتراع.

يعوّل المواطن الفلسطيني على أن تسفر الانتخابات عن انتهاء الانقسام وعودة الوحدة بين حركة فتح وحركة حماس ،وتجديد الشرعية وتداول السطات ،وتكريس نظام ديموقراطي يليق بدولة فلسطين يحترمه الرأي العام العالمي، ونجاح الشعب الفلسطيني في تأسيس ديموقراطية قائمة على التعددية والحرية والتمسك بالحقوق الوطنية والسلام العادل.

ديموقراطية نابعة من بطولة القيم ،والتراث الكفاحي ، والسجايا العالية التي يتحلى بها الشعب ،وترسّخ الرواية الفلسطينية في مواجهة الرواية الصهيونية التوراتية الخرافية، وتتصدى للمقولة الزائفة التي تزعم أنّ إسرائيل هي الدولة الوحيدة الديموقراطية في الشرق الأوسط بينما هي دولة احتلال ودولة فصل عنصري يحكمها يمين متطرف .

***

تبدو الانتخابات القادمة ماضية في طريقها حتى الآن بسلاسة ،وينتظرها المواطن بشغف واهتمام ومن المتوقع أن تواجه بعض العقبات أهمها من إسرائيل.

فحتى الآن ترفض إسرائيل الموافقة على مشاركة مراقبين للانتخابات من دول العالم ،وخصوصا الاتحاد الأوروبي .

وثانيا تحاول ممارسة الضغوط على القيادة الفلسطينية لإلغاء الانتخابات أو تأجيلها.

وثالثا ، ترفض مشاركة المقدسيين في الانتخابات .

تستطيع السلطة الفلسطينية ومعها الدول أن تجدد حلولا لموضوع المراقبين، وقد رفضت كل الضغوط التي مورست عليها من الجانب الإسرائيلي.

ويبقى موضوع القدس مشكلة رئيسة ،فالسلطة الفلسطينية لا تقبل وترفض بشدّة عدم مشاركة أبناء القدس الشرقية في الانتخابات ، بل إنّ كل التصريحات ،وأهمها تصريحات الرئيس محمود عبّاس أكّدت أنه لا انتخابات بدون القدس.

فالموافقة على عدم اجراء انتخابات فيها يعني الاعتراف بما تضمنته صفقة ترامب بضم القدس لإسرائيل.

هكذا فالتحدي الذي تواجهه الانتخابات هو محاولات إسرائيل منع الانتخابات في القدس عاصمة فلسطين الأبدية.

ولأنه لا انتخابات بدون القدس فالأنظار تتجه الى الجهود التي ستقوم بها القيادة الفلسطينية من أجل ان تشارك القدس ترشيحا وانتخابا.

هيئة التحرير

أوراق فلسطينية

كيف انبنى أدب فلسطيني في الشتات؟

د. فيصل درّاج*

ينطوي الحديث عن أدب وطني في الشتات على مفارقة متعددة الوجوه: فلا تمكن مقاربة الموضوع إلا بعلاقته بدولة تشرف على أجهزة تربوية مرجعها مدرسة تجانس لغة المجتمع، وتسوّغ وجودها بالدفاع عن هوية، تعطف الماضي على المستقبل. يمثّل الأدب، عندها، شكلاً من أيديولوجيا وطنية تعيّن الدولة تجسيداً لإرادة مجتمعية كليّة. يستدعي الأدب الوطني، في دلالته الموضوعية، مجتمعاً موحّد اللغة والثقافة، تستنهضه إشارات ثقافية متوارثة تردّ الأحفاد إلى الأجداد، يعيد صوغها الأدب بأشكال متجددة.

يفترض الأدب الوطني وجود قارئ جماعي، يستقبل رسالة مكتوبة تسرد واقعه، تؤمّن حواراً بين القارئ والأديب، وبين الطرفين وتاريخ أدبي متوالد، إذ لا أدب في الحاضر إلا بأدب وطني سبقه، يجدّدان «سلسلة أدبية» متعددة الحلقات.

تحيل هذه العلاقات جميعاً على ما يمكن أن يدعى: «المؤسسة الأدبية» المتمثّلة بأجهزة متكاملة، تتضمن المدرسة والجامعة والمؤسسات الثقافية، تنتهي إلى «تاريخ الأدب الوطني»، الذي هو وجه من وجوه التاريخ السياسي والاجتماعي واللغوي والثقافي.

يتضمن التوصيف السابق شكلانية كاملة، أو منقوصة، ولا ينطبق، في الحالين، على الأدب الفلسطيني، الذي يفتقر إلى دولة وطنية، وتعوزه، تالياً، المؤسسة الأدبية التي تجدّده

* كاتب وناقد - فلسطين

وتتجدّد به. كأن الحديث عن أدب فلسطيني وطني، في هذه الشروط، حديث عن أفراد ـ أدباء، يكتبون أدباً يترجم المأساة الفلسطينية. ولهذا يظل المجال الأدبي، المنتمي إلى فلسطين، معموراً بمفردات: الراهن والممكن والمحتمل، في انتظار مستقبل يعد الفلسطينيين بوطن، ينتسب إليهم وينتسبون إليه، ينقلهم من «مجتمع الشتات» إلى مجتمع يعيش فوق أرضه.

يأتي الرد الفلسطيني على شكلانية المعايير، أكانت كاملة التجريد أو لا ينقصها العطب، من مرجع محدد عنوانه: استثنائية المآل الفلسطيني. فإذا كان اقتلاع الشعب الفلسطيني من أرضه التاريخية استثناءً فريداً، لم يعرف القرن العشرون غيره، فلماذا لا يكون الأدب الفلسطيني استثناء بدوره، متحرراً من معايير لا علاقة لها بكتابة الفلسطينيين وقراءاتهم؟ وإذا كان الفلسطينيون ردّوا على اقتلاعٍ قصدَ الغاءهم، دون أن يصيروا «ضباعاً منقرضة» واستمروا في الحياة، رغم المجازر والمطاردة وتجّار الموت وصنّاع البلاغة الفاسدة، فلماذا لا يكون مآل أدبهم من مآلهم، أدب خلق مصيره، استمر في الحياة وغدا «كونياً» وتُرجم إلى أكثر من لغة.

عاش الأدب الفلسطيني حياته، بعد النكبة، موزّعاً على إمكانية معتقلة وأخرى قابلة للتحقق والتحرّر. كيف يكتب الفلسطينيون في أماكن شتاتهم الكثيرة، والمتكاثرة، أدباً متمسّكاً بمرجع وحيد ومفرد عنوانه: «فلسطين؟ لا شيء يأتي متكوِّناً، فالأشياء تصير وتتكوّن وتطرح أسئلة استثنائية» كأسئلة الفلسطينيين.

١. أدب محاصر البداية توّجته نكبة:

جسّدت نكبة ١٩٤٨ مأساة فلسطينية كاملة، وواقعة إنسانية متوحّشة فرضت حق القوة بديلاً عن قوة الحق. أُقصي الفلسطينيون عن أرضهم، هجّروا بالقوة، وطُردوا إلى لا مكان. خسروا أرضهم واحتفظوا بقيم تحرّرية تعرّفوا عليها، طويلاً، قبل النكبة، أعادت تشكيلها تجارب التهجير والشتات المحتشدة بالإلغاء والإهانة ومصادرة المصير و «تقويض إنسانية الفلسطيني» إن أمكن، بلغ ذروته مع حملات الاجتثاث الجسدي، غير مرة.

انقطع الفلسطينيون، بعد النكبة، عن مكانهم الموروث، ولم ينقطعوا عن تاريخ نازلوه وقاتلوه قوامه القهر العثماني والوحشية الاستعمارية الإنجليزية الطليقة ومجازر موسمية هندسها الصهاينة بإتقان كبير. عاش الفلسطينيون انقطاعاً مكانياً، ولم ينقطعوا عن قيم المواجهة والتحدّي، ما جعل من تاريخهم انقطاعاً واستمراراً معاً.

استهل المقدسي روحي الخالدي جهده الثقافي، عام ١٩٠٠، بكتابه «تاريخ علم الأدب بين فيكتور هوجو والعرب». كان فيه أشياء من الأدب المقارن وأبعاد أوسع عن دلالات الاستبداد والحرية وتحوّلات اللغة في فضاء الحرية وأقبية الاستبداد وكراهية المستبدين للمتخيّل، الذي ينفذ من الضّيق المتجانس إلى المتعدد الطليق. بعد سنوات عشرة سيكتب الخالدي عن «المسألة الصهيونية»، وعن الفرق بين الحسبان العقلاني والعقل المستقيل، ويضع في ما كتب إشارات من كتابه الأول، الذي اعتُبر «السِفْر العربي الأول في مجال الأدب المقارن».

ومع أنّ في منهج الخالدي آثار ثقافية فرنسية، وهو الذي عاش في فرنسا، فإن فيه ردّاً ماكراً على عسف العثمانيين في فلسطين وتخريب صهيوني لاحق، ما أقام علاقة بيّنة بين المعيش الفلسطيني ووظيفة الكتابة. وقد يُقرأ نزوع خليل السكاكيني، الذي مات في القاهرة عام ١٩٥٣، إلى الحرية والعقلانية وبناء المدارس، إلى حواره مع فرح أنطون وشعراء المهجر اللبنانيين في الولايات المتحدة، دون أن يحجب ذلك معايشته الحيّة للواقع الفلسطيني ووقوفه على الخطر الصهيوني. أعاد بدوره تجربة الخالدي وكتب نثراً طليقاً، استحق ثناء معاصريه، ومنهم طه حسين.

لم يكن مآل نجيب نصّار، مؤسس صحيفة الكرمل عام ١٩٠٨، مختلفاً، أتقن وهو يحذّر من الصهيونية أكثر من لغة، وسجّل مطاردته في زمن العثمانيين في رواية «مفلح الغساني»، مستذكراً قراءته الجادة لأعمال شكسبير. أقام المثقف/ الأديب الفلسطيني وظيفته، من الخالدي إلى اليوم، على كتابة واضحة الهوية والانتماء، يستوي في ذلك «دبلوماسي حداثي» ـ الخالدي ـ مدعي مشغول بالأصالة والعروبة، وآخر مشهور بالعروبة والتحرر هو محمد عزة دروزة، الذي ولد في نابلس عام ١٨٨٨ وعاش قرناً، فهذا الوطني النموذجي أصدر رواية

عروبية تحريضية عام ١٩١١، عنوانها «وفود النعمان عل كسرى أنو شروان»، مستلهماً كتاب عبد الرحمن الكواكبي «أم القرى»، وكتب رواية «السمسار وبائع الأرض» ـ ١٩١٣ ـ ناظراً إلى عرب قطعوا مع «عبد الرحمن الداخل» ـ «فاتح الأندلس» ـ وترجم من الفرنسية، بلغة منفلوطية، رواية لامارتين «رافائيل» عام ١٩١٥.

وعى هؤلاء المثقفون مخاطر المشروع الصهيوني، وحذّروا من إمكانية انتصاره (الخالدي والسكاكيني)، وتحدّثوا عن سبل التصدي له والأسباب التي تقوده إلى انتصار محتمل. عيّنوا معنى الكتابة في وظيفتها الوطنية، التي تنقد وتحذّر وتستنهض، وأوكلوا إلى الأدب بعداً تربوياً تنويرياً. احتل الشعر، بسبب ثقافة المجتمع التقليدية، بعداً مسيطراً، دون أن يكون تقليدي المنظور، حال قصائد مطلق عبد الخالق، وأبي سلمى، وإبراهيم طوقان الذي درس في الجامعة الأميركية في بيروت، ومايز بين الالتزام الوطني وبلاغة الاستثمار الاجتماعي، التي ارتاح إليها سياسيون فلسطينيون انتسبوا إلى عائلاتهم، وتعاملوا مع المشروع الصهيوني بمعايير ضالّة.

لم تفضِ النكبة إلى انفصال في سيرورة الأدب الفلسطيني، أدّت إلى انقطاع، بسبب الصدمة والشتات، وعاد واستأنف وظيفته الوطنية في سياق مأساوي. بل أن النكبة أنتجت تحدّياً أدبياً تجاوز إمكانية شعب مشتت مهزوم، كما لو أن أدباء ما بعد النكبة أرادوا أن يعطوا شعبهم، المقيّد إلى أكثر من حصار، دروساً في الإبداع والتمرّد على المسيطر. فلم يقعوا في «أدب المناسبات» الذي يمكن أن يُختصر، فلسطينياً، في ثنائية الدموع والتفجّع والانسياق وراء أهازيج عربية «رديئة الصياغة ساذجة المضمون».

احتل غسان كنفاني، في حدود تجديد الخطاب الأدبي الفلسطيني والإعلان عن تمايزه، موقع الريادة. تطلّع إلى تكامل الطليعة الأدبية والطليعة السياسية، كما جاء في مقدمة كتابه «في الأدب الصهيوني». لم يكن يستلهم النموذج الصهيوني، كان يرى فيه عدواً يجب نقضه، إنما كان ينقد أشكالاً من الكتابة الأدبية العربية، قامت بتهميش الفلسطينيين وتعاملت معهم بتعاطف لا تنقصه الشفقة، كما لو كانوا أكواماً من العجز والفاقة، أو اكتفت بمتواليات من الشعارات المجردة، المحدِّثة عن الوحدة العربية، دون تبصّر إمكانياتها، وعن «قوميين عرب»

يضمن اجتماعهم طريقاً إلى فلسطين لا عثار فيه. حافظ غسان على انتمائه القومي العربي وتحصّن بذات فلسطينية، مقاتلة مبدعة، أضاءها بشكل من النثر الروائي جديد، أعلن عنه في روايته «رجال في الشمس»، وبتحية إلى «شعر المقاومة في فلسطين المحتلة»، دون أن ينسى النظر السياسي الفاصل بين الوهمي والصحيح في كتابه الصغير عن «ثورة ١٩٣٦».

أفصح كنفاني عن سؤال كتابي فلسطيني: كيف ينتج الأديب نصاً إبداعياً في المنفى، متحرراً من شروط الإبداع المدرسية؟ ترجم ما قال ممارسة مقرراً، كما غيره؛ على الفلسطيني أن يستأنف تاريخه الثقافي ـ السياسي من وجهة نظر التحدي الذي رماه عليه المنفى، تأكيد الإنسان الجدير بالحياة كقيمة مطلقة يتصرّف بأقداره ولا يدع أقداره تتصرف به، وتكامل الموروث الأدبي الفلسطيني والثقافة العالمية في شكلها المتمرّد... كثّف تصوّره الأدبي في جملة صغيرة: «أريد أن أرسم الواقع كما هو، مائة بالمئة..». هل ينفذ الأدب إلى قرار الواقع، وإلى أي حدّ يمكن أن يكون الأديب الفلسطيني خالقاً للواقع لا انعكاساً له؟

أوكل غسان إلى الأديب الفلسطيني مهمة العثور على شكل أدبي موائم، لا يغترب عن استثنائية فلسطينية ترفض الأشكال المسيطرة. لم تكن نصوصه التي لم تكتمل إلا صورة عن بحثه المتواتر عن شكل أدبي فلسطيني البنية والاقتراح. وإذا كان كنفاني ترك بحثه عن الشكل معلّقاً، ممتلئاً بتجربة الشتات وبإشارات أدبية من الأميركي فوكنر والروسي غوركي والفرنسي جان بول سارتر، فإن جبرا بدأ كتابته في المنفى مجهَّزاً بنموذج أدبي قوامه: بطل روائي فلسطيني يعيش مع الآخرين، يعرفهم ولا يعرفونه، ويتجاوزهم جميعاً. إنه الفلسطيني المنتصر بقدره الرسولي، الذي يجعله يعلّم العرب ولا يتعلّم منهم، المنسوج من علم وثقافة وتميّز وكفاءة، تضيء دروبه رموز فلسطين، ويحميه ترابها، ويمسك بيده السيد المسيح ويمنعه عن الضلال. صاغ جبرا نصه الروائي، كما الشعري، محتفياً «بما يجب أن يكون»، أي بالفلسطيني من حيث هو «إنسان كامل»، يكون حيث يريد أن يكون، ويرجع إلى القدس حين يشاء. زاوج جبرا بين تجربة التهجير ورومانسية شعرية إنجليزية، وجوهها شلي وبايرون وكولوريدج. ألزمه باقتراحه الأدبي مآل فلسطيني مرير واقتناع، لا نقصان فيه،

أن في الفلسطيني بطولة مفكّرة يقصّر عنها غيره.

واجه جبرا عالم الشتات بثقافة واسعة، حصّلها في فلسطين وبريطانيا، وترك تجربة الشتات تعيد كتابة ثقافته مرتكناً إلى مبدأ المؤرخ الإنجليزي العادل «توينبي» القائل: بالتحدي والاستجابة. لذا لا توجد علاقة بين رواية كتبها في القدس عام ١٩٤٦ عنوانها: «صراخ في ليل طويل» ورواياته القادمة التي كتبها في بغداد. الرواية الأولى تعبير عن فنان مرتاح إلى ثقافته ورموزه ولغته، تقول ما تريد، ورواية «البحث عن وليد مسعود» مركّبة، معقدة، مضطربة وتحمل طبقات من المعاني. لفلسطين التي كانت روايتها، ولفلسطين التي فقدها الفلسطينيون رواية أخرى، تستنفر العقل والقلب والأحاسيس.

رسم غسان، غاضباً، «العار الفلسطيني» في «رجال في الشمس»، إذ من يهرب من وطنه تهرب منه كرامته، ورسم جبرا «العنفوان الفلسطيني» في «البحث عن وليد مسعود»، إذ وليد يفعل ما يريد ولا يستطيع غيره فعله، كما لو كان «يداً إلهية» قادرة على محو «العار»، وضمان وجود القدس متطهّرة من الدنس. ردّ النصّان على الشتات بشكلين مختلفين، حيث فلسطين راجعة إلى من يقاتل لاسترجاعها، وأخذا مسافة واسعة عن الشكل الروائي العربي المسيطر. فلم يكن هناك نص روائي عربي قوامه الإشارات قادر على القول: «كان الفرار موتاً»، لم يكن من السهل العثور على رواية عربية متعددة المستويات مركّبة البنية مثل رواية جبرا.

أبدع إميل حبيبي، الذي لم يعرف الشتات، على طريقته، وأعطى رواية، أكاد أقول، فريدة في تاريخ الرواية العربية، أقامها على جدل الضاحك/ الباكي، وفتحها على «الخارج الفلسطيني» الذي لم يعرف، أدبياً، السخرية والبكاء وتأمل طويلاً: بطولة البقاء وجماليات الإرادة المقاتلة.

عبّر «أدب الشتات» عن استمرارية ثقافية فلسطينية، فما كتبه السكاكيني في نثره أنتجه غسان أدباً، وما نقده الخالدي في مجتمع سبق النكبة، استعاده جبرا مثنياً على المعرفة والفردية الحرة ثناءً «وطنياً» لا غموض فيه. والمختلف الثقافي في زمن الشتات جاء عن طريق الأدب، فوصل إبداع غسان وجبرا، وحبيبي إلى مقدمة الإبداع العربي المعاصر، موائماً، بشكل صريح أو مضمراً، بين الطليعتين الأدبية والسياسية، كما ألمح غسان. ولهذا لم يكن في أعمال الروائيين الثلاثة بعداً

تبشيرياً، كما هو متوقع، كان فيها جديد أدبي نوعي ونظر نقدي إلى العالم، وإضافة نوعية في التقنية الأدبية. واحتل الشعر مكاناً بارزاً، لا فرق إن كان «مقاوماً»، بلغة تهوّن من شأنه، أم تجديداً للشعر العربي الحديث كلّه، استقى صوته الأعلى من محمود درويش وعز الدين المناصرة، وصولاً، لاحقاً، إلى شعر غسان زقطان في رموزه «الديناميكية».

استحقّ «الأدب الفلسطيني»، بعد النكبة، صفة «الأدب الملتزم»، بمعنى مزدوج: الالتزام بقضية التحرر الفلسطيني، والالتزام «بأدبيّة الأدب»، إن صح القول، التي تجدّد الأدب من داخله. لكانَّ في أدب النكبة، الممتد إلى ما ورائها، نقداً لأيديولوجيا الأدب التقليدي المسيطر، هذا النقد الذي لم تعرفه «الثقافة السياسية الفلسطينية» إلا بشكل مبتور، أوجزته في تعبير غائم المعنى: سياسة الكفاح المسلّح.

سؤال أخير: هل ينتمي الأدب الفلسطيني بعامة، إلى مصطلح فرضه الأقوياء على المغلوبين: الأدب العالمي؟ الجواب لا، فهذا الأدب ينصاع في معاييره إلى الطرف الذي «يُعَوْلم» أدبه ولغته وسلعه، بينما ينتمي الأدب الفلسطيني، إرسالاً واستقبالاً، إلى أدب مغاير عنوانه: الأدب الإنساني، ينصر المضطهدين ولا يتكئ على مبدأ القوة.

سرد الشعر وقائع الفلسطينيين، قبل «المجازر» وبعدها، أوجد قارئه وغدا ذاكرة جماعية، واحتفى القارئ الفلسطيني المشتت بإبداع أدبي فلسطيني، يعبّر عنه ويحقّق له «جمالية الانتماء». تقاسم القارئ والكاتب الإحساس بمأساة توزّعت على الطرفين، ونظر إلى هدف مشترك. لم تجمع بينهما «أدبيّة الأدب»، فهي بَطَر لغير الفلسطينيين، بل معركة لازمة، إن تجنّبها الطرفان طاردتهم، أكانت في «الوطن المحتل»، أم في منافٍ استولدها الاحتلال.

٢. ذاكرة الأدب وتوحيد الزمن المشتّت:

يمر فعل تذكّر، عند غير الفلسطينيين، عادياً أقرب إلى الحياد، عدا فواجع ألحقت بهم عطباً كبيراً، أو مناسبات سعيدة كبرى تختصر في حكايات متماثلة. ويتصل عند غيرهم بالأفراد، كأن يهجروا مدينة كانت أليفة متحضّرة غزاها الخراب واجتاحها السديم. وأمر الذاكرة عند

الفلسطينيين مختلف، يتجاوز الأفراد واختلاف أحوال المدن، يتلبّس شعباً كاملاً ذاكرته من «نكبته»، ونكبته لا يتهاون معها النسيان ولا يغفرها تعاقب الأيام، تلازماً، وأصبحت جزءاً من وجوده. ولأنَّ الذاكرة هي التاريخ فتاريخ الفلسطينيين استمرارية نكبتهم.

من المتذكّر في الحالة الفلسطينية؟ مفرد له صفة الجمع أو جمع مكوّن من «أفراد لاجئين» استقرّ لجؤوهم في ذاكرتهم وأخذ شكل جرح لا يندمل، وماذا يتذكّر؟ اغتصاب وقتل وهجرة انفتحت، لاحقاً، على اغتصاب التبس بالقتل وبأكثر من مجزرة وانطوى فيها معيش مهين في «مخيمات اللجوء»، الذي هو مواقع سكن موحل وإشارة إلى بشر أقل من غيرهم قيمة، ولماذا التذكّر؟ إنه ليس اختياراً ارتبط بمعيش محاصر طويل الإقامة، وبوطن اغتصب يعدل نسيانه شكل الخيانة.

شكل المعيش، الذي أعقب النكبة أو سبقها، مادة مباشرة للأدب الفلسطيني، لا انطلاقاً من «مبادئ الواقعية»، ولها عند الفلسطينيين تصوّر خاص بهم، إنما التزاماً بمفردات الكرامة والمعاناة ولزوم ما يلزم اللصيق بثنائية: النكبة والعودة، فإن غضّ الطرف، مؤقتاً، عن العودة، لاحقته أطياف المجزرة ومواجع حسبان بريء أخطأ أكثر من مرة.

كتب محمود درويش قصيدته «أحمد الزعتر»، راثياً مخيماً منخفض الأرض عالي الكرامة، وصاغ يحيى يخلف «رباعية البحيرة»، واصفاً شقاء اللجوء وحياة من شوك وخيام تتطاير في الهواء وفدائيين اتجهوا إلى أرض الوطن وخادعهم الطريق. وتوقفت ليانة بدر في عملها الأخير «أرض السلحفاة»، أمام توقف الزمن الكاذب استمرارية حياة نصّب العدو الصهيوني ذاته عليها حَكَماً جاهز السلاح.

وصف درويش حياة مخيم استشهد واقفاً، سجّل يخلف حياة مخيمات جمعت بين المأساة والملحمة، وتأملت بدر عدواً يأخذ بخناق الفلسطينيين، منذ أكثر من سبعين عاماً. أسهمت هذه الكتابات، كما غيرها، في بناء الأدب الفلسطيني، الذي تستجير به الذاكرة الجريحة وتصبح تاريخاً. لا تاريخ بلا ذاكرة، قول يتداوله الفلاسفة والمؤرخون، مدلّلين على صحة افتراضهم «بالوثيقة». لا تاريخ بلا أخلاق وقيم وعدالة، يقول الفلسطينيون، ويبرهنون على

قولهم «بأدب متعدد الأجناس»، يعطف الحاضر على الماضي، والماضي ـ الحاضر على كفاح يوحّد الزمن الفلسطيني وينقض الشتات بتحوّلات تصنع تاريخاً جديداً.

يوحّد التاريخ العادل، نظرياً، الوجود الوطني المشتّت الممزّق الأطراف، ويوحّد الفعل الأدبي، في الحالة الفلسطينية، الوجود الممزّق مرتكناً إلى إمكانيات الذاكرة، التي لا تقبل بالممزّق وتحاول زمناً، سبق النكبة وأعقبها. يمكن للقارئ الفلسطيني أن يملأ فراغات تحوّلاته متوسلاً ما كتبه أدباء، ينتمون إليه وينتمي إلى إبداعهم المسؤول. كان الراحل إميل حبيبي قد تكفّل بتذكّر «أيام العرب»، التي هي أيام الفلسطينيين قبل أن تجتاحها «عَبْرنة الشوارع والأمكنة» وسطوة الرقابة الإسرائيلية. أنجز روايته «اخطيّة» متأسيّاً على جميل قديم اغتُصب، وحاذر رقابة العدو وكتب «سرايا بنت الغول»، التي هي «اخطيّة أخرى»، أكثر حزناً وحناناً وتوجّعاً، كان قد جاوز السبعين وينتظر رحيله.

بعد رحيل حبيبي بسنوات كتب وليد الشرفا، وهو من جيل آخر كأنه حفيد للأول، روايته «وارث الشواهد»، وصف فيها ما زرعه عجوز فلسطيني «أيام العرب» ـ شجرة الخروّب ـ لم يحاذرها ساردها الغضب الإسرائيلي ودفع الثمن. أعطى حبيبي وثيقة أدبية أولى عن «عَبْرنة الوجود» أضاءتها ليانة بدر بوثيقة عن فلسطيني يحاذر ولا يموت ويعيش «فَلسْطَنَة الانتظار والمواجهة»، وسّع وليد الشرفا الوثيقتين، عاد إلى أرض حيفا ورثا فلسطينياً ينتمي إلى روح مخيّم الزعتر.

يتكشّف الأسى الفلسطيني في زمن مغترب يدور حول ذاته، حاضره من أمسه، حاضره «اخطيّة» وأمسه أخرى وما بينهما مجزرة ومواجهة. لكأن في الذاكرة الفلسطينية المنسوجة أدباً طبقات، ولكأن حاضر الاغتراب الوطني ـ الوجودي مطلق، دون أن يخالط ذاكرته النسيان. فإذا كانت الذاكرة، تعريفاً، من الماضي، فإن ذاكرة الأدب الفلسطيني عابرة للأزمنة، وإلا ما تذكّر كنفاني معلماً راحلاً كان يحسن إطلاق الرصاص، وما رجعت ذاكرة جبرا إلى «صديق قضى»، وهو مقيم في بغداد، وما استعاد عاطف أبو سيف تعبير «اللمّة» في روايته الأخيرة: «الجنة المقفلة».

نفذ مجاز «اللمّة» في رواية أبي سيف إلى قرار المآل الفلسطيني المتبعثر، المسكون بمأساة مزدوجة: لا هو قادر على استئناف ما كان ولا التنازل عن دلالته. تبدو الذاكرة في هذه الرواية، كما في رواية محمد علي طه «نوار العلت» مفتوحة. ذلك أن الذاكرة في الأدب الفلسطيني لا تنغلق في الماضي، انفتح على مأساة متوالدة، ولا هي بالحاضر الذي يمكن التصالح معه. إنها الذاكرة ـ الزمن، التي تتوسّط بين الهوية والوجود، وتعبّر عنها صور ثابتة ـ متحوّلة، تستأنف «اخطيّة» أولى وتستمر في أرض شائكة «تزحف فوقها سلحفاة».

يذكّر الحاضر ـ المستمر، أو الماضي ـ الحاضر، في شكله الفلسطيني «بالأحجار المقدّسة»، التي تجابه الزمن ولا يفلح الزمن في إزالة قدسيّتها. وما هذه الأحجار، التي هي دنيوية كستها القداسة، إلا الصور التي ابتدعها المتخيّل الفلسطيني، لا فرق إن أنطقها بصوت عال، كصوت وليد الشرفا، أو أنطقها بوضوح محدود، كأسلوب أكرم مسلّم في روايته «العقرب الذي يتصبّب عرقاً»، التي أسكنت الفلسطيني مع خذلان ضبابي الجهات، أو روايته المتميّزة «بنت من شاتيلا»، التي أقحم فيها، بلا مناسبة، كلمة «الهولوكوست»، التي لا تعني المآل الفلسطيني في شيء.

أنتج الأدب الفلسطيني، في أجناسه المتعددة، تاريخ شعبه موحّداً، وأنتج معه معرفة تاريخية دقيقة التفاصيل يقصّر عنها المؤرخون.

برهن الأديب الفلسطيني أنه يوسّع قول «المؤرخ» وينقله في أحيان كثيرة، من صمت الوثائق إلى بلاغة الحياة المعيشة.

٣. الأدب الفلسطيني والانزياح الضروري:

كتب الفلسطينيون عمّا لم يعشه غيرهم وجعلوا من المأساة، كما الانزياح، دليلاً لقراءة أدبهم، الذي إنْ شابه غيره سقط منه تميّزه. أشار لوكاتش الهنغاري الشهير، الفيلسوف والناقد الأدبي، في مقدمة كتابه «دلالة الواقعية اليوم» إلى معنى الأدب فقال: «الإنسان مقولة الأدب الأولى». المقولة الواضحة البسيطة، التي توائم الأدبين الروسي والألماني، اللذين

درسهما بتوسع، ترتبك سريعاً إنْ واجهت الأدب الفلسطيني، الذي لا يحتفظ بمعناه إلا بعد أكثر من انزياح.

الإنسان المغترب، الذي هجره الله، سمة الأدب الذي حدّث عنه الناقد الهنغاري، ولكن كيف يستقيم هذا التعريف إن كان الإنسان ممزقاً، فقد أرضه وأُسقطت عنه «حقوق الإنسان»، وغدا فرداً ـ جماعة، أو فرداً جماعياً مغترباً، علماً أن الاغتراب يلازم «المفرد» ولا يوائم الجماعات؟ ما ابتدأ نص أدبي فلسطيني بمفرد إلا وانفتح، بلا إبطاء، على شعب بأكمله. ولكن كيف ينفذ هذا النص إلى العالمين الداخلي والخارجي «للجماعة» دون أن ينتهي، أدبياً، إلى مفرد مستحيل، أو إلى «جماعة» لا تصلح مادة للأدب، كما مارسه روّاد الحداثة الروائية في القرن العشرين، بدءاً بكافكا وبروست وفيرجينا وولف ونجيب محفوظ؟

سردت ليلى الأطرش، في روايتها «ترانيم الغواية» حكاية فلسطيني من الشتات يرغب بزيارة القدس وعطفت عليه، سريعاً، حكايات فلسطينية عن آخرين «اعتقلوا» في مدينتهم المقدسة، أو لم «يحظوا» بالاعتقال وانتشروا في الشتات. يشكّل الانزياح عن المفرد الروائي «التقليدي، وهو مفرد بالضرورة، سمة الأدب الفلسطيني الأولى، الذي كان، ولا يزال، يتعامل مع مفرد بصيغة الجمع.

المفرد ـ المجموع من أبعاد الأدب الفلسطيني الوطني، الذي يواجه الشتات ويواجه معه بداهات الأدب غير الفلسطيني. يوسّع الانزياح الأول فضاءه ليتّسع لانزياح آخر يجانس، أو يكاد، بين بدايات النصوص الأدبية ليقول: يستبطن كل أديب فلسطيني إبداع غيره من الفلسطينيين، تتشابه بدايات النصوص الساردة لتجربة مأساوية متماثلة. رسم جبرا، في «صيادون في شارع ضيّق»، فلسطينياً فقد جزءاً من ذاته في القدس، ووصف غسان في «عائد إلى حيفا» فلسطينياً أضاع جزءاً من ذاته في سديم المطاردة، وأقام حبيبي أدبه كله على تجربة الفَقْد والحرمان، وأعاد يخلف توصيف الفقد في الماضي والحاضر في «رباعية البحيرة». فَقْد وحرمان وحنين وإنسان منقوص، على الأديب الفلسطيني أن يتعامل معه باقتراحات مختلفة.

يدع الانزياح المزدوج الأديب الفلسطيني متماثلاً وبعيداً عن التماثل في آن، ذلك أن في الأسى الفلسطيني حكايات لا تنتهي، بعيداً عن عالم الرضا الذي يُختصر في حكاية سعيدة واحدة. أعطى عز الدين المناصرة اقتراحات شعرية متواترة، «وانتهى» إلى «الكنعانيذا» ولجأ يخلف في «راكب الريح» إلى الشكل التاريخي للرواية. وتناول غسان القصة القصيرة والمسرحية وأعطى «في ما تبقى لكم» رواية متعددة الأصوات. واقترب محمد علي طه من «ملحمية الوجود الفلسطيني» في متوالياته القصصية، وعالج الشاعر توفيق زياد «الأدب الشعبي» بمنظور آخر،... لم يمارس الأدباء الفلسطينيون «فتنة الشكل»، التي تُمتّع متخيّلاً مرتاحاً، إنما أنتجوا كتابات متحاورة اقتربت، ولا تزال، من سمات «الأدب المقاوم في الشتات»، إذ في الموضوع مقاومة، وفي توليده شكلاً مقاومة أشد صعوبة.

يُختصر الأدب، مدرسياً، إلى ثنائية اللغة والمتخيل، وهو كلام صحيح ومنقوص، لأن للتعبير اللغوي عوالمه التي لا تنتهي. كيف تعبّر اللغة، فلسطينياً، عن اختناق مخيم فلسطيني هُدم فوق رؤوس ساكنيه؟ وما إمكانية اللغة في الإفصاح عن هواجس فلسطيني من غزة حُكم عليه بالسجن «أربع مؤبدات»، وهو لم يبلغ العشرين، وما صوت قذائف اللهب باللغة العربية الفصحى؟

مزج الأدب الفلسطيني، في انزياحاته المتوالدة، بين لغة الإفصاح، التي تصف دماء شاب أرداه رصاص الاحتلال، ولغة الصمت التي تقف عاجزة أمام «سبعين رصاصة» استقرت في جسد القائد الراحل، أبو جهاد؟

لغة الصمت هي لغة الرعب الأعلى التي تصيّر انتظار اللهب أكثر رعباً من الحريق القادم. شيء قريب من صوت هنري ميلفل في «موبي ديك»، إذ الحوت مرعب في هجومه وأكثر رعباً إن احتجب تحت الماء. ومع أن في اللغة، نظرياً، تحرّراً وحرية، تنقل ما تضيق به الروح إلى الخارج، فإن في الوقائع الفلسطينية، الممتدة من مجزرة دير ياسين إلى اصطياد الفلسطينيين وهم ذاهبون إلى مدارسهم صباحاً، ما يقوّض حرية اللغة ويرمي عليها بصمت بليغ. ولهذا فإن النصوص الشعرية الكبرى مزيج من الإفصاح والصمت، ومن مجازات مبدعة.

فرض مدى النكبة تنوّع الشكل في الأدب الفلسطيني، وأملى عمق المأساة لغة الصمت، التي أعطاها محمود درويش شكلها الأكثر إفصاحاً وبلاغة. ساوق الانزياحين وعي وطني ـ سياسي يمثّل، جوهرياً، مقدمة الأدب الأولى. فنصّ يتوه في اليومي، أو تستنفذه حكايات عارضة، لا ضرورة له، يتكسّب، غالباً، من المأساة الفلسطينية، ولا يفيدها إلا صدفة. فلا معنى لأية كتابة، تنتسب إلى فلسطين، إلا بمنظور يمايز بين الحق الفلسطيني والاحتلال الصهيوني ويقيم الحد، تالياً، بين تحرر شعب يستحق الحياة، وزوائد أخرى». فسؤال فلسطين التاريخي لا يختصر في سلطة أو دولة أو «أنثى مضطهدة» فهو عن معنى العدل في التاريخ، وعن صلابة القيم الإنسانية أو تفككها.

يتحوّل سؤال «التخيّل الفني»، في حدود الاستثنائية الفلسطينية، إلى قضية نافلة. فما معنى المتخيّل في واقع فلسطيني يترافد فيه اللامعقول وغير الإنساني وعجيب الأحكام ومأساة متوالدة تعتبر «حرق عائلة» خطأً قابلاً للتقويم؟ أودع الراحل الغريب حسين البرغوثي في روايته «سأكون بين اللوز» أسراره في تراب الأرض، مواجهاً عدواً نهب الأرض وأطياف الأجداد واجترّ، سعيداً، كل ما كان فلسطينياً، قبل النكبة.

الأدب الفلسطيني، الممتد وراء قرن من الزمن نص كبير «يتكوّن»، نص سيرورة، صاغته وتصوغه مجموعة من المبدعين، عنوانه الأكبر فلسطين، الماضية ـ القادمة، وعناوينه الثانوية كثيرة: التهجير، القرى المطمورة تحت الأرض، المخيمات، اللاجئون المطمورون تحت أكثر من حرمان ومصادرة، ومقاومة شعب متجدّد الذاكرة.

إن كان الفلسطينيون أنجبوا: بطولة البقاء فقد أنجبوا معه بطولة «الأدب الوطني»، بلا وطن ولا حماية، ولا دولة.

الانتخابات الفلسطينية، تقدير موقف أولي

عبد الغني سلامة*

مقدمة

بعد خمسة عشر عاما من الوعود والتسويف، ستجري في أيار القادم الانتخابات التشريعية الثالثة في عموم الأراضي الفلسطينية، بتوافق فلسطيني تُوج في اجتماع الفصائل الوطنية في القاهرة (شباط ٢٠٢١)..

الانتخابات ستجري وفق المرسوم الرئاسي الذي أصدره الرئيس محمود عباس (١٥-١-٢٠٢١)، وحدد فيه ثلاث مراحل متعاقبة: الانتخابات التشريعية بتاريخ ٢٠٢١/٥/٢٢، والرئاسية يوم ٢٠٢١/٧/٣١، على أن تعتبر نتائج انتخابات المجلس التشريعي المرحلة الأولى في تشكيل المجلس الوطني الفلسطيني، ثم تستكمل انتخابات المجلس الوطني في ٢٠٢١/٨/٣١ وفق النظام الأساس لمنظمة التحرير الفلسطينية والتفاهمات الوطنية، بحيث تجرى انتخابات المجلس الوطني حيثما أمكن.

وكانت آخر انتخابات تشريعية قد جرت في كانون ثاني ٢٠٠٦، وأسفرت عن فوز "حماس" بالأغلبية، فيما سبقها بعام انتخابات للرئاسة وفاز فيها الرئيس محمود عباس. وخلال الخمسة عشر عاما التي تلتها كانت القيادة الفلسطينية قد قررت إجراء الانتخابات أكثر من مرة (٢٠١٠، ٢٠١٢، ٢٠١٩)، وقد صدر مرسوم رئاسي بذلك، بيد أن الظروف السياسية، وحالة الانفصال، واشتراطات الفصائل (خاصة حماس) كانت تعطل المشروع.

* كاتب وباحث فلسطيني

هذه السنة، ومنذ تولي "بايدن" رئاسة البيت الأبيض، تغيرت الظروف السياسية الخارجية والداخلية، ويبدو أنها نضجت باتجاه عقد الانتخابات، ومع ذلك ما زالت الكثير من العراقيل أمامها، وليس مستبعدا أن يتم تأجيلها، في حال فشلت الأطراف المختلفة في تذليل العقبات، مع أن أغلب المحللين يرجحون عقدها في المواقيت المحددة.

ما الذي تغير؟ ما هي تلك العراقيل؟ ما هي الاحتمالات الممكنة لعقدها؟ وما هي أبرز النتائج التي ستخلقها الانتخابات؟

للاختصار والتكثيف سنركز في هذه الدراسة على الانتخابات التشريعية، ولأن انتخابات الرئاسة والمجلس الوطني تحتاج دراسة منفصلة.

٢٠٢١ نضوج الظرف السياسي

أميركيا ودوليا

من الواضح أن مرسوم الرئيس بشأن إجراء الانتخابات جاء بعد تولي "جو بايدن" رئاسة البيت الأبيض (من حيث التوقيت الزمني)، فقد مثّل رحيل "ترامب" وطاقمه وصفقته عن المشهد السياسي بالنسبة للفلسطينيين انعطافة ونقطة تحول كبيرتين في السياسة الأميركية، من المؤمل أن تكون لصالحهم، أو على الأقل أن تخف حدة ووطأة الهجمة الأميركية غير المسبوقة والثقيلة، التي ضغطت على الفلسطينيين طوال عهد الرئيس السابق "ترامب"، وبالتالي توقع انفراجة سياسية، وتغيير إيجابي نسبي في سياسة البيت الأبيض، أهم عناوينه المتوقعة: العودة للموقف الأميركي التقليدي الرافض للاستيطان، ورفض الإجراءات الإسرائيلية أحادية الجانب، وإعادة الدعم المالي للسلطة الوطنية، وإعادة فتح مكتب منظمة التحرير في واشنطن، واتخاذ موقف أقل انحيازا تجاه إسرائيل، والتمهيد لعودة المفاوضات، واعتماد مبدأ حل الدولتين كأساس للتسوية السياسة.. أي بمعنى آخر التحول عن صفقة القرن التي كانت بمجملها ضد الفلسطينيين، وبشكل سافر وغير مقبول بالمطلق، وإدارة الصراع في المرحلة القادمة دون معاداة الفلسطينيين على نحو فجّ، بسياسات خارجية جديدة يمكن التعاطي معها.

هذا الانفتاح الأميركي على الفلسطينيين يتطلب وفق رؤية "بايدن" جهوزية الطرف الفلسطيني للمرحلة القادمة، وبالذات فيما يتعلق بتجديد شرعية الأطر القيادية، والتخلص من الرموز التي اقترنت سمعتها بالفساد، بمعنى أن إجراء انتخابات فلسطينية والتفاوض مع رئيس منتخب وحكومة منتخبة مسألة مهمة بالنسبة للإدارة الأميركية الجديدة، وتعطي "بايدن" وطاقمه قوة في مواجهة اللوبيات المعارضة ومراكز القوى داخل أميركا، وفي إسرائيل، وتسحب الذرائع منها.

لذلك، يمكن فهم إلحاح واشنطن على الفلسطينيين (سواء في رام الله، أو في غزة) على ضرورة إجراء الانتخابات.. في الوقت ذاته، فإن الاتحاد الأوروبي، الداعم الأكبر لمالية السلطة، مارَسَ ضغوطًا على الرئيس عباس لتنظيم انتخابات بهدف تجديد شرعية مؤسسات السلطة. ولم يكن مستغربًا أن يسارع الاتحاد الأوروبي والأمم المتحدة إلى مباركة إصدار مرسوم الانتخابات وحثّ إسرائيل على السماح بإجرائها.

على صعيد آخر، رأت السلطة الوطنية أن المشهد الإسرائيلي لن يتغير جذريا، فبعد ثلاث جولات انتخابية كان اليمين الإسرائيلي هو الفائز دوما، وحتى الانتخابات الإسرائيلية التي جرت في آذار ٢٠٢١، فقد أظهرت نتائجها فوز قوى اليمين بشقيها، الصهيوني والديني، ورغم استمرار حالة الاستعصاء لتشكيل حكومة، فإن الأحزاب الفائزة ستعمل على تشكيل حكومة تتبنى نفس مواقف نتنياهو إزاء الصراع، ولا تقل تشددًا عنه (أي في حالة تم إقصاء نتنياهو عن رئاسة الحكومة)، وبالتالي استمرار سياسة فرض الحقائق على الأرض عبر مشاريع الاستيطان والتهويد. لذا فإن مستقبل العلاقة مع تل أبيب سيظل محكوما بنفس معادلات التفوق والهيمنة وتجاهل الطرف الفلسطيني، والتهرب من أي تسوية سياسية، واستمرار الضغوطات والحصار. وهذا وضع السلطة الوطنية وبالذات حركة فتح أمام مسؤوليتها الوطنية للتوافق مع "حماس" على إجراء الانتخابات كأحد أدوات الصمود، والمواجهة المشتركة، وللحفاظ على قدر كبير من التوافق الوطني.

فيما يتعلق بموقف الدول العربية ودول الجوار (تركيا، وإيران)، فقد لعبت تلك الدول في المراحل السابقة أدوارا مختلفة، أكثرها كان معطلا للانتخابات، من خلال الضغط على

حلفائها الفلسطينيين بوضع العراقيل تحت حجج وذرائع مختلفة، ذلك أن وضع الانقسام كان مريحا بالنسبة لها، ويمكّنها من ممارسة لعبتها السياسية التقليدية، واستخدام الورقة الفلسطينية أداة ضغط، ولكن مع المتغيرات السياسية بعد مجيء "بايدن"، وانسداد الأفق السياسي لم يعد بوسع تلك الدول ممارسة لعبتها كما في السابق، ويبدو أنها سترضخ بقبولها فكرة الانتخابات، ولكن مع استمرارية تدخلها ومحاولة التأثير عليها بما يخدم مصالحها.

من جانب آخر، وحسب بعض التسريبات الإعلامية، أثارت حالة انعدام اليقين بشأن جاهزية حركة "فتح" للانتخابات قلقًا لدى كل من مصر والأردن؛ حيث توجه كل من رئيس المخابرات المصري، عباس كامل، والأردني، أحمد حسني، معًا إلى رام الله للقاء الرئيس عباس وحثّاه على توحيد فتح عشية الانتخابات والمشاركة في قائمة موحدة لتقليص فرص فوز حماس فيها.

فلسطينيا

شكل مؤتمر الأمناء العامّين للفصائل الفلسطينية الذي انعقد مطلع أيلول ٢٠٢٠، في كل من بيروت ورام الله؛ بداية تحول مهم في إمكانية إنجاح المصالحة الفلسطينية، ومهد الطريق أمام إصدار المرسوم الرئاسي بشأن عقد الانتخابات، وقد تبعته حوارات مطولة جرت بين حركتي "فتح" و"حماس" في إسطنبول في نفس الشهر، جاءت وسط أجواء سياسية معقدة وضاغطة، تمثلت في المخططات الإسرائيلية الهادفة لضم مناطق من الضفة الغربية بموافقة أميركية، تزامنت مع توقيع عدد من الدول العربية اتفاقات تطبيع مع إسرائيل وأيضا برعاية أميركية.

وقد ناقشت حوارات بيروت وإسطنبول عددا من القضايا الهامة التي ظلت نقاط خلاف واشتباك (خاصة بين فتح وحماس)، منها إصلاح منظمة التحرير، والموقف من الاحتلال، والتنسيق الأمني، وأشكال المقاومة، وقد انتهت عن إعلان الحركتين عن تبني استراتيجية مشتركة لمواجهة صفقة القرن، ومخططات الاستيطان والتهويد في الضفة الغربية عبر استخدام المقاومة الشعبية، (الأمر الذي لم يتم تطبيقه بالشكل المطلوب)، والتوافق على إجراء الانتخابات التشريعية، والرئاسية وانتخابات المجلس الوطني، ويبدو أن هذا الموضوع

كان هو الأهم، فقد طغى على بقية المواضيع.

ومن الأمور التي قصرت الطريق أمام إصدار مرسوم الانتخابات تراجع "حماس" عن مطالبتها بإجراء الانتخابات البرلمانية والرئاسية وانتخابات المجلس الوطني بشكل متزامن؛ حيث وافقت بدلًا من ذلك على أن تتم بالتوالي والترابط. وكذلك التوافق على المسائل الشائكة التي كانت موضع خلاف مثل قانون الانتخابات، وعقدها على أساس النسبية وفق نظام القوائم، واعتبار الوطن دائرة انتخابية واحدة، والمحاكم المختصة، وضمان احترام النتائج، والاعتقالات السياسية، وضرورة توفير أجواء ديمقراطية وحرة للمرشحين، وغيرها.

بالنسبة للسلطة الوطنية فإن إجراء الانتخابات باتت مسألة حيوية ومطلبا ملحا، حيث أنها ستجدد شرعية مؤسساتها (الرئاسية والتشريعية والتنفيذية)، سيما وأن ولاية الرئيس عباس قد انتهت منذ ١١ عامًا، في حين أن المجلس التشريعي انتهت ولايته قبل ١٠ سنوات، وقد تم حله من قبل المحكمة الدستورية.

دوافع فتح

لفتح مصلحة حقيقية في إجراء الانتخابات، شريطة ضمان الفوز بها، ذلك لأنها تُكسبها الشرعية التي تآكلت في السنوات الأخيرة، وتجدد من خلالها طاقتها وحيوتها، وتعيد علاقتها بالشارع، لتؤكد أنها الحركة التاريخية للشعب الفلسطيني، وحتى تستطيع تشكيل حكومة تسير وفق مشروعها.. وهذه دوافع تقليدية يمكن أن تكون نفس دوافع حماس لو ضمنت الفوز.. ولكن هناك دوافع أخرى، سياسية، وتنظيمية، واستراتيجية، منها:

توجيه رسالة إيجابية إلى الرئيس الأميركي الجديد بأن الفلسطينيين في طريقهم إلى الوحدة، وأن الحجة التي لطالما استخدمتها الحكومة الإسرائيلية لعدم الدخول في مفاوضات مع الفلسطينيين، والتهرب من الاستحقاقات السياسية، ومن التسوية، ومن قيام دولة فلسطينية لم تعد حجة مقبولة.. فقد كان المسؤولون الإسرائيليون يبررون على مدى سنوات طويلة بأنه لا يمكن الحديث عن دولة فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة طالما أن حركة فتح تحكم

الضفة الغربية وحماس تدير قطاع غزة.

كما أن إجراء الانتخابات، كمتطلب أساسي للحياة الديمقراطية، يكسب دولة فلسطين السمة التي تحتاج تأكيدها دوما، بوصفها نظاماً سياسياً متطوراً، ويمنحها مصداقية على المستوى العالمي، ويقوي من فرص دعمها، والاعتراف بها، ويضمن استمرارية الدعم الأوروبي لها (ماليا وسياسيا).. وفيما يخص الاعتراف بدولة فلسطين، كانت ذرائع وردود المسؤولين في الدول الأوروبية تقول: "كيف لنا كدول أوروبية أن نعترف بدولة ليس بها برلمان؟" وبالتالي فإن الانتخابات كخطوة أساسية في طريق توحيد الضفة الغربية وقطاع غزة ووجود برلمان منتخب سيشجع العديد من الدول الأوروبية على تنفيذ توصيات برلماناتها على الاعتراف بالدولة الفلسطينية.

على الصعيد الداخلي، فإن الانتخابات محاولة لإرضاء الشارع الفلسطيني، والاستجابة لمطالبه المشروعة، حيث ظل يشتكي منذ سنوات من غياب المؤسسة البرلمانية، ومن فوضى التشريعات، ومن تغول الحكومة والأجهزة الأمنية، في ظل عدم وجود رقابة برلمانية عليهما، ومن تكلس الأطر القيادية، ومن عدم تجديدها، ومن تغييب الشباب..

ويبدو أن للرئيس الفلسطيني رغبة حقيقية لإنهاء الانقسام الفلسطيني في عهده، خاصة وأنه حصل في عهده، على أساس أن الانتخابات ستمهد الطريق أمام إنجاز المصالحة وإنهاء الانقسام.

ومن ضمن استعدادات فتح، ولضمان تصويت قطاع غزة للحركة، وقطع الطريق على "كتلة دحلان"، قررت الحكومة رفع بعض العقوبات عن قطاع غزة، وهي إجراءات مالية استهدفت موظفي السلطة من أتباع دحلان بهدف تقليص مستوى التأييد له، وأيضا في محاولة لحث الغزيين على الخروج عن حكم حماس.

دوافع حماس

بحسب مراقبين؛ فإن حماس راوغت كثيرا، وماطلت، وتهربت من إجراء الانتخابات، وطالما وضعت شروطا تعجيزية، فقد ظلت تسعى جاهدة للحفاظ على حكمها في غزة، وعلى

مكتسباتها ومصالحها، وخشية منها من خسارة الانتخابات، أو على الأقل خسارة الأغلبية التي كانت تتمتع بها، وتستخدمها في الدعاية الحزبية، وفي الإدعاء بأنها تمثل الشرعية..

لكن خمسة عشر عاما من المماطلة والتسويف، وتبادل الاتهامات مع فتح كافية لاستنفاذ كل الحجج والذرائع (من الطرفين).. وقد صارت تستشعر حجم السخط والاستياء في الشارع الفلسطيني، وفي غزة تحديدا، وتستشعر بخطورة المشاعر المكبوتة، والتي صارت على وشك الانفجار، سيما مع تردي الأوضاع المعيشية والاقتصادية، وعجز الحركة عن توفير مستلزمات الحياة الضرورية، بل وعجزها عن توفير مخصصات منستبيها.. ومع عدم جدوى الخطابة والشعارات..

وفي السنوات الأخيرة تفاقمت عزلة حماس، وصارت تفقد حلفاءها واحدا تلو الآخر، فضلا عن عزلتها الدولية، فهي تتلقى مساعدات من إيران، ولكن هذه المساعدات مخصصة للجناح العسكري في الحركة وما عدا ذلك فإن الدول العربية والإسلامية ترفض دعمها ماليا، وتقريبا لم يتبق لها سوى قطر (دعم مالي وإعلامي)، وتركيا توفر بعض الغطاء السياسي..

في ظل هذه الظروف، ومع تزايد ضغوطات الشارع، لم تجد حماس مفرا من الاستجابة لمطالب الشعب بإنهاء الانقسام، وإجراء الانتخابات. وربما أن حماس رأت في الانتخابات فرصتها لتحقيق غايتين: أولاهما، تخليصها من عبء السكان، وحقوقهم المطلبيّة، وإلقاء هذا العبء على السلطة الوطنية. وثانياً، إعادة تأهيل الحركة كجزء من النظام السياسي الرسمي، على أمل الدخول في النادي الدولي، والاعتراف بها عالميا، على أمل أن يكون لها تمثيل كبير في المجلس التشريعي، من أجل البقاء؛ ولذا عملت على إقناع قواعدها التنظيمية، ومموليها وحلفائها الإقليميين (إيران، قطر، تركيا) بأنها لن تستطيع الاستمرار دون الانتخابات.

بالنسبة لموقف بقية الفصائل، فقد أعلنت حركة الجهاد الإسلامي أنها لن تشارك في الانتخابات، بيد أن بقية الفصائل أعلنت عن موافقتها على المشاركة، وبالفعل، وتمهيدا لخوض الانتخابات جرت محاولات لتوحيد كافة قوى اليسار ضمن إئتلاف واحد.. ولكن هذه الجهود لم تنجح، فخرجت الجبهة الشعبية بقائمة، وكذلك الديمقراطية، والمبادرة الوطنية، في

حين تحالف حزب الشعب الفلسطيني، والاتحاد الديمقراطي الفلسطيني (فدا)، إلى جانب حراكات شبابية ومدنية عديدة، بحيث بلغ مجموع القوائم المسجلة ٣٦ قائمة.

باختصار، وعلى ضوء تحليل أولي للقوائم ال٣٦، يمكن القول أن أهم الكتل الانتخابية هي: فتح، حماس، قائمة الحرية، وقائمة المستقبل.. مع ترجيح بفوز العديد من القوائم الأخرى بعدد محدود من المقاعد، ولكن بما يمكنها من لعب دور بيضة القبان.

عراقيل أمام الانتخابات

لا يعني مجرد إصدار مرسوم رئاسي لإجراء الانتخابات، أنها ستُجرى بالفعل، ولا حتى التوافق الفلسطيني يعني حتمية إجرائها.. فهناك عراقيل وموانع كثيرة، قد تكون كافية لإحباطها، أو تأجيلها، ومن أبرز هذه العراقيل إسرائيل.

ويبدو أن إسرائيل الآن قلقة من تزايد احتمال نجاح الفلسطينيين بعقد انتخاباتهم التشريعية، ويظهر هذا القلق جلياً بتصريحات الساسة ومراكز الإعلام والبحوث الإسرائيلية بشأن الانتخابات الفلسطينية، فقد نشر موقع "ميدل إيست آي البريطاني" مقالاً يرى فيه الصحافي الإسرائيلي يوسي ميلمان "أن أجهزة الأمن الإسرائيلية لا ترغب في أن تجري الانتخابات الفلسطينية التي أعلن عنها الرئيس الفلسطيني، إذ أنها لا تريد تغيير الوضع القائم في الأراضي الفلسطينية"، وفي نفس السياق، فقد دعا مركز أبحاث الأمن القومي الإسرائيلي، في تقرير خاص عن الانتخابات الفلسطينية، صناع القرار في إسرائيل إلى محاولة فهم الدوافع الحقيقية حول إصدار المرسوم الرئاسي المتلعق بالانتخابات، وفهم تداعيات هذا القرار على الأمن القومي الإسرائيلي.

وتخشى إسرائيل من إجراء الانتخابات الفلسطينية لاعتقادها أنها ستكون خطوة في طريق إنهاء الانقسام، وهو الأمر الذي لا يتماشى مع مصالحها، حيث ترى في الانقسام حالة تُكرس احتلالها للأراضي الفلسطينية، وتبعدها عن استحقاقات التسوية.

كما تخشى أن تعزز الانتخابات من قوة حركة فتح في الشارع الفلسطيني، وبالتالي قوتها في

الساحة الدولية؛ فمن خلال تعزيز شرعية قياداتها ستكون أكثر قدرة على طرح شروطها في التسوية. سيما وأن الانتخابات ستعزز مكانة وحضور السلطة الوطنية الفلسطينية وطنياً وإقليمياً ودولياً، وسيجعلها أكثر قربا من المعايير الدولية للحوكمة والديمقراطية، وهو الأمر الذي سيجعلها أكثر قدرة على التحرك الدبلوماسي والقانوني الإقليمي والدولي ضد استمرار الاحتلال، كما أن هذه الانتخابات ستعزز فرص اعتراف الدول الغربية بدولة فلسطين انسجاما مع قرارات الشرعية الدولية.

وأيضا، سيكون موضوع القدس بمثابة العقدة الأخطر، خاصة بعد اعتراف الرئيس السابق "ترامب" بالقدس عاصمة موحدة لإسرائيل، الأمر الذي اعتبره "نتينياهو" إنجازه التاريخي الأهم، ما يعني أنه لن يضحي بهذا الإنجاز، خاصة وأن إجراء الانتخابات الفلسطينية في القدس الشرقية، ومشاركة المقدسيين فيها، سيكون بمثابة رسالة واضحة للعالم، تؤكد على أن القدس الشرقية جزء من الأرض المحتلة، وأن سكانها المقدسيين ينتخبون ممثليهم في السلطة الوطنية، وأنهم متمسكون بهويتهم العربية الفلسطينية ويرفضون كل إجراءات التهويد والضم لمدينتهم.

وعلى هذا، ستحاول إسرائيل منع المقدسيين من المشاركة في هذه الانتخابات تصويتاً وترشيحاً. خلافا لاتفاق أوسلو ٢ عام ١٩٩٥ الذي أكد حق المقدسيين في التصويت من خلال مراكز البريد في المدينة. وفي هذا الاتجاه، لم تجب حكومة الاحتلال إلى الآن على طلب القيادة الفلسطينية حول إجراء الانتخابات بالقدس، أو إنها ردت على هذا الطلب بالامتناع عن الرد.

لكن إسرائيل قد لا تستطيع منع إجراء الانتخابات الفلسطينية، لأنها لا تريد أن تظهر للعالم وخاصة للإدارة الأميركية الجديدة بأنها الدولة التي تتغنى بالديمقراطية، في الوقت الذي تعيق فيه العملية الديمقراطية في الأراضي الفلسطينية المحتلة خلافاً لاتفاق أوسلو. ومع ذلك وإن كانت لا تنظر بعين الرضا لإجراء الانتخابات الفلسطينية، إلا أنها ستقوم بوضع العديد من العراقيل لمنعها، أو على الأقل منع إجرائها في القدس.

وقد سبق لها أن عملت على إفشال أي تحرك فلسطيني لإنهاء الانقسام الداخلي، ويفضي إلى

استعادة الوحدة السياسية للضفة الغربية وقطاع غزة. لذا بوسع إسرائيل أن تؤثر على مسار الانتخابات الفلسطينية عبر منع تنظيمها في القدس ومحيطها، والتهديد بعقوبات للمقدسيين الذين سيشاركون بها، إلى جانب اعتقال الأشخاص الذين يمكن أن يترشحوا على القوائم المختلفة والفاعلين في الحملات الانتخابية.

ومع ذلك، يرجح الخبراء أن أميركا وأوروبا ستمارسان ضغوطا على إسرائيل للسماح بإجراء الانتخابات.

بعض العراقيل الفلسطينية الداخلية يمكن القول أنه تم تجاوزها، مثل المحكمة المختصة بالانتخابات، ومناخ الحريات الواجب توفيره للمرشحين، ومسألة تحديد سن الترشيح، والرسوم الباهظة المفروضة على المرشحين، واشتراط قبول الاستقالة من العمل لمن يرغب بالترشح للانتخابات، مع أن هذا القرار حرم المئات من العاملين في مؤسسات السلطة والأجهزة الأمنية والمنظمات الأهلية من الترشح.

والأهم تخوف الحركتين (فتح وحماس) من احتمالية خسارة الانتخابات، أو عدم تحقيق العدد المأمول من مقاعد التشريعي، ففي حال توصلت إحدى الحركتين لمثل هكذا قناعة، قد تضع بعض العراقيل، أو تعمل على تأجيلها إلى حين تحقيق الجهوزية الكافية.

بالنسبة لفتح لديها تخوف من عدم تحقيق أغلبية في المجلس التشريعي، بسبب خروج عضوي اللجنة المركزية مروان البرغوثي وناصر القدوة وتشكيلهما قائمة منفصلة (قائمة الحرية)، بالرغم من تطمينات كل من البرغوثي والقدوة بالتزامها بخط فتح الوطني، وتمسكهما بوحدة الحركة، وأن الأصوات التي ستكسبها القائمة هي في المحصلة لصالح الحركة الأم.. وهنالك تخوفات من أن تؤدي الانتخابات إلى انقسام الحركة، وتشتت الأصوات، أو من نيل "كتلة دحلان" عددا من المقاعد، تمكّنها من فرض شروطها.

وبالنسبة لحماس، هنالك تخوف من التيار الراديكالي المعارض أصلا للانتخابات، أو عدم تحقيق الفوز الذي ترغب به، على ضوء التوقعات بعدم حصولها على أصوات من غزة، نتيجة التجربة القاسية التي كابدها سكان القطاع في ظل حكم حماس، وبالتالي يظل رهانها على

كتلتها المركزية الحزبية، وعلى أنصارها في الضفة الغربية.

الاحتمالات الممكنة

في حال تم التغلب على كل هذه العوائق، ونُظِّمت الانتخابات، فإن فرص أن تسهم نتائجها المتوقعة في تحقيق المصالحة الوطنية وإنهاء الانقسام الداخلي كبيرة، لكنها ليست مؤكدة؛ فإجراء الانتخابات في بيئة سياسية منقسمة على ذاتها قبل معالجة قضايا الخلاف الجوهرية التي كرست الانقسام يمثل مخاطرة كبيرة ويمكن أن يسهم في تكريس حالة التشظي التي تعيشها الساحة السياسية الفلسطينية. كما أن التخوف الأهم أن تؤدي نتائج الانتخابات والتحالفات التي ستعقبها إلى تكريس مبدأ المحاصصة بين الحركتين (فتح وحماس)، بدلا من العمل على إنهاء الانقسام بشكل حقيقي، ومعالجة تبعاته.

وإن كانت الفصائل الفلسطينية قد أجمعت في كل جولات الحوار السابقة على أهمية التوافق على برنامج وطني شامل وإصلاح منظمة التحرير، فإن اعتماد الانتخابات مدخلًا لحل هذه القضايا قد لا يسمح بوضع "الرؤية المشتركة" التي توصلت إليها حماس وفتح في حوار إسطنبول ومخرجات مؤتمر الأمناء العامين في بيروت ورام الله، موضع التنفيذ، بحيث تنضم إلى ما سبقها من اتفاقات وتفاهمات، التي انتهت إليها الحوارات السابقة التي امتدت لأكثر من ١٥ عامًا.

خلاصة

الشعب الفلسطيني، رغم ذكائه، ومستوى تعليمه المرتفع، وخبرته الكفاحية الطويلة، إلا أنه يفتقر للخبرة الديمقراطية، فقد يعاقب نفسه كما حصل في انتخابات ٢٠٠٦، وليس هناك ضمانات أنه تعلم من الدرس، واستفاد من تجربته المريرة.. والأهم من ذلك أن الشعب يقوم دوما بحركات نوعية غير متوقعة، بل إن مجمل تاريخ الشعب الفلسطيني كان خارج التوقعات، أي يأتي عكس السياق الطبيعي، وخلافا لتنبؤات المحللين، ومراكز الدراسات، وأجهزة المخابرات في العالم (وهذه سمة المجتمعات غير المستقرة).. حصل هذا

في انطلاقة الثورة عام ٦٥، وفي الانتفاضتين الأولى والثانية.. وقد اعتاد أن يفاجئ المراقبين، فعندما يتوقعون منه الثورة والانتفاضة والخروج للشوارع لا يفعل، رغم أن المعطيات تدعو لذلك.. وعندما يظنون أن الشعب استكان، ورضخ، وأن الضغوطات أثمرت.. يفاجئهم بالثورة والانتفاضة والتصعيد..

أقول هذا الكلام، لدق ناقوس الخطر، فمن يراهن على أن الشعب سينتخب فتح فقط لأنها فتح، وصاحبة التجربة الكفاحية، التي قدمت الشهداء والأسرى والتضحيات.. سيكون رهانه خاطئا.. فتح في وعي الشعب هي قائدة المشروع الوطني، وصاحبة الخط السياسي العقلاني، هي الوسيلة الممكنة للتحرر من الاحتلال، وهي صاحبة البرنامج الاجتماعي المدني الديمقراطي المعتدل المنفتح على الحضارة والإنسانية.. لكنها في وعي الجماهير ليست شيئا مقدسا ونهائيا.. وعندما تصل إلى قناعة أن فتح الحالية ليست فتح التي في خاطرها سيتخلون عنها بكل بساطة.. وسيجترحون حركة أخرى أفضل وأكثر ثورية.. وهذه فرصة فتح الأخيرة، كما هي فرصة أخيرة لحماس، وبقية الفصائل.

الخطر الثاني الذي أود الإشارة إليه نقرأه من نسبة الإقبال على التسجيل للانتخابات، والتي بلغت ٩٣,٣٪ (في غزة بحدود ٩٩٪)، وهي أرقام عالية جدا، وغير مسبوقة، حتى في أعتى الديمقراطيات.. لكنها أرقام حقيقية ودقيقة، وتدل على مدى الاهتمام الشعبي بالانتخابات.. هذا الاهتمام ليس لإنجاح حزب معين أو مرشح ما.. هذا الاهتمام عبارة عن رغبة جماهيرية جامحة في التغيير، ولكن بطريقة سلمية وهادئة وحضارية.. لأنهم يراهنون على أن الانتخابات ستخلق تغييرا حاسما في المشهد السياسي، وعناوين هذا التغيير: إنهاء الانقسام، والتخلص من الواقع البائس (خاصة في قطاع غزة)، والتخلص من رموز العهد القديم، والرغبة في تجديد القيادات، ورفدها بروح وحيوية الشباب، على أمل أن ذلك كله سيحدث تغييرا إيجابيا كبيرا، أو على الأقل نكون قد وضعنا أرجلنا على بداية الطريق الصحيح..

هذا كله جيد وإيجابي ويدعو للتفاؤل، لكن الخطر إذا فشلت الانتخابات، أو إذا جلبت وجوها كالحة، وقيادات دون المستوى المتوقع، وإذا استبدلت الانقسام بالمحاصصة.. حينها

فإن الجماهير تكون قد استنفذت طاقتها في التحمل وقدرتها على الصبر، حينئذ ستكون وسيلتها في التغيير ليست سلمية أبدا.. قد تحدث فوضى عارمة، وقد يحدث عنف منظم.. لا أحد يدري، لكن التغيير قادم لا محالة..

الهوامش

١. صالح النعامي، الانتخابات الفلسطينية السياق والتوقعات، ٢٩-١-٢٠٢١، الجزيرة نت.
https://studies.aljazeera.net/ar/article/4902

٢. داوود عودة، الانتخابات الفلسطينية أسباب وتحديات، العين الإخبارية، ٢٣-١-٢٠٢١.
https://al-ain.com/article/palestinian-elections-reasons-difficulties

٣. علي أبو عجمية، الانتخابات بوصفها مشكلة، العربي الجديد. ٢٨-٢-٢٠٢١.

٤. رمزي عودة، إسرائيل ستهز قارب الانتخابات بقوة، مركز الناطور للدراسات والأبحاث، ٢٧-٢-٢٠٢١.
https://natourcenters.com/

٥. رمزي عودة، إسرائيل ستهز قارب الانتخابات، نفس المصدر السابق.

٦. صالح النعامي، الانتخابات الفلسطينية، مصدر سبق ذكره.

قانون أملاك الغائبين الاحتلالي:
سرقة ممتلكات الشعب الفلسطيني في وضح النهار

عزيز محمود العصا*

مقدمة

اتخذت المنظمات الصهيونية أثناء العمليات العسكرية، إبّان أحداث النكبة (خلال الفترة ١٩٤٧-١٩٤٩)، عددًا من الإجراءات للاستيلاء على أية أملاك عربية تقع تحت يد القوات الصهيونية. وعندما استقر الأمر للدولة الوليدة أخذت تسن القوانين واللوائح والتشريعات التي تشرعن لها عملية السلب والسيطرة على المزيد من الأراضي والعقارات والمباني والأملاك العامة والخاصة. كما أزالت أغلب التراث المعماري العربي: الإسلامي والمسيحي عن وجه الأرض المحتلة.

سنتناول، فيما يأتي، واحدًا من أكثر القوانين فتكًا بأملاك الشعب الفلسطيني -المهجَّر بالقوة والباقي على أرضه- وهو «قانون أملاك الغائبين»، الذي تم سنّه بعد أقل من سنة من آخر هدنة وقعتها الدولة المحتلة مع جيران الأرض التي احتلتها بالقوة (المفرطة). وسنتتبع الإجراءات التي سبقت هذا القانون، ثم نتتبع -قدر الاستطاعة- تطبيقات هذا القانون على الأرض في مختلف أرجاء الوطن الفلسطيني.

تطور سيطرة العصابات الصهيونية على أملاك الغائبين():

* باحث فلسطيني

في آذار سنة ١٩٤٨ أنشأت الهاغاناه "لجنة الأملاك العربية في القرى"، وعين قيّم عام على أملاك العرب في الشمال في نيسان سنة ١٩٤٨ بعد احتلال حيفا()؛ وفي ١٩٤٨/٥/٩ أصدرت الهاغاناه أمرا جاء فيه: أيها المحاربون اليهود، عندما تدخلون منطقة عربية محتلة أو متروكة، اذا وجدتم أملاكاً متروكة لا تلمسوها، تغلبوا على أي إغراء للسرقة أو أخذ الغنائم(). وتلا ذلك تعيين قيّم آخر في يافا بعد احتلالها في ١٩٤٨/٥/١٤. ثم أنشئت دائرة سميت "دائرة أملاك العرب" مهمتها مراقبة الأملاك العربية التي تسيطر عليها القوات الإسرائيلية().

تميزت فترة الحرب بالفوضى وعجزت السلطات العسكرية عن وضع حد لعمليات السلب والنهب والتدمير للأملاك الفلسطينية المتروكة(). وفي ١٥ تموز ١٩٤٨ عُين قيّم عام على أملاك الغائبين، وفي ١٩٤٨/١٢/١٢ أصدرت الحكومة الإسرائيلية أول مجموعة أنظمة بشأن أملاك الغائبين().

قانون أملاك الغائبين:

بعد قيام الدولة بقليل بدأت الحكومة المؤقتة بإصدار أوامر يشأن نقل أراضي اللاجئين، بما فيهم اللاجئون الداخليون، إلى حوزتها دون أن تكون سياسة مركزية واضحة سوى هدف الاستيلاء على الأملاك. وعندما أدركت الحكومة المؤقتة ضخامة الأملاك المتروكة والمشاكل المترتبة على تنظيم توزيعها، بدأت تضع سياسة مركزية بشأنها. في البداية استخدمت بنوداً مختلفة من أنظمة الطوارئ لوضع حد للفوضى في السيطرة على الأملاك. ولكن انظمة الطوارئ لم تكن مجدية مما جعل الحكومة تغير سياستها مرة بعد أخرى().

وفي ١٩٥٠/٣/١٤ أقرت الكنيسيت الإسرائيلية «قانون أملاك الغائبين»؛ كقانون معد بديلًا عن تلك الأنظمة ابتداء من ١٩٥٠/٣/٣١، يتألف من تسع وثلاثين مادة(). وقد وصفته المحكمة العليا الاسرائيلية على أنه قانون يستهدف، أساسًا، تركيز ادارة الاراضي التي كانت بملكية من وُصِفوا كغائبين في نظر القانون، وذلك تحت تصرف القيّم على املاك الغائبين ليقوم بحماية هذه الممتلكات()، واستخدمت اسرائيل هذا القانون، منذ الاحتلال العام ١٩٤٨، لوضع يدها

على نحو ٩٧٪ من اراضي فلسطين العام ١٩٤٨().

يتم تعيين القيّم من قبل وزير المالية الإسرائيلي، وتنتقل إليه تلقائياً جميع الحقوق التي يتمتع الغائب بها في أية ملكية. كما يحق له وضع اليد على أية ملكية حين يجد ذلك مناسباً. وللقيّم أيضاً أن يقوم بإدارة أي عمل تجاري يعتبر من أملاك الغائبين، وتصفية العمل إذا كان يعود إلى شخص واحد، أو حل الشركة إذا كان العمل يعود إلى مجموعة من الشركاء().

واستمرّ الاحتلال في تخبّطه باحثًا عن السبل الكفيلة بالسيطرة على الأراضي بعد استكمال احتلال فلسطين، فصدر الامر رقم (٥٨) لسنة ١٩٦٧، الذي يعرف الغائب بأنه ذلك الشخص الذي ترك منطقة الضفة الغربية قبل يوم من٧/ حزيران أو في نفس اليوم أو بعده. وهذا القانون يشبه قانون أملاك الغائبين لسنة ١٩٥٠، إلا أن تشريع أملاك الغائبين لسنة ١٩٦٧ كان أوسع من قانون عام ١٩٥٠().

أهم ملامح قانون املاك الغائبين لسنة ١٩٥٠:

يعدّ قانون أملاك الغائبين آلية اضافية للسيطرة على الأرض التي كانت تابعة لملكية فلسطينية . ففي أعقاب النكبة وطرد الآلآف من الفلسطينيين ونزوحهم من بيوتهم وعن أراضيهم قامت إسرائيل بالاستيلاء على أراضي وأملاك الفلسطينيين بواسطة تغيبهم قانونياً وتعريفهم «بالغائبين»().

يحدد القانون العلاقات القانونية بين هذا القيّم وبين «الغائبين» وأملاكهم، كما يلاحظ أعلاه، يعتبر القيّم مالكا لهذه الممتلكات، الى ان يثبت «الغائب» انه لم يكن غائبًا، أو أنه لا يعتبر «غائبا» بنظر القانون «وهي قضية مستحيلة بموجب السوابق القانونية عدا عن الحالات الشاذة والنادرة جدا». كما يحظر على القيّم ان ينقل حق الملكية على هذه الممتلكات لآخرين عدا «سلطة التطوير»().

يبدو في ظاهر الأمر، أن القانون يهدف إلى حماية أملاك اللاجئين الفلسطينيين المقيمين خارج البلد، وقد خوَّل القيّم مسؤولية صيانة أملاك اللاجئين، وتحصيل أبدال الإيجار، والتأجير،

وغيرها من الأمور المتعلقة بإدارتها، ريثما يتم الوصول إلى تسوية بشأن موضوع اللاجئين. لكن الحقيقة أن المنصب استعمل في تشريع سلب اللاجئين أرضهم وأملاكهم، لأنه من دون ذلك، لم تكن الدولة لتملك سوى قاعدة صغيرة من الأراضي().

وقد طبق القانون على نطاق واسع جداً إذ استولى القيّم على أراضي حوالي ثلاثمائة قرية عربية متروكة أو شبه متروكة تزيد مساحتها على ثلاثة ملايين دونم، أي الغالبية العظمى من أراضي الملكية الخاصة في الأرض المحتلة. وشملت الأراضي المستولى عليها مساحات واسعة من الأراضي العربية الجيدة الخصبة تقدر بحوالي ٢٨٠ ألف دونم منها الكثير من البيارات والأراضي المنزوعة بالأشجار المثمرة. كما استولى القيّم في المدن على ما يزيد على ٢٥,٠٠٠ بناء تحوي أكثر من ٥٧,٠٠٠ مسكن و١٠,٠٠٠ محل تجاري أو صناعي، وحولت هذه الأبنية إلى شركة "عميدار" لإسكان المهاجرين اليهود فيها().

قانون أملاك الغائبين يسلب القدس وأملاك المقدسيين:

في ١٩٦٨/٠٨/٢٤ أصدر الكنيست قانونا يُمكّن اليهود من استعادة المنازل التي كانت مملوكة أو مؤجرة لهم من العرب. أما الملاك العرب من أهالي القدس فلا يحق لهم -بموجب قانون إسرائيلي صدر لاحقا سنة ١٩٧٣- استرجاع أملاكهم في الشطر الغربي من المدينة أسوة بالقانون الإسرائيلي بالنسبة للملاك اليهود().

وبعد إحكام الاحتلال قبضته على القدس، شرع في فرض قانون أملاك الغائبين، إلا أن بقاء السكان العرب في مدينتهم شكل عقبة أمام تنفيذ هذه السياسة، مما دفع سلطات الاحتلال إلى إيجاد الحلول بما يتفق والمصالح الاسرائيلية من خلال وضع قانون خاص هو قانون التنظيمات القانونية والادارية التي صادق عليها الكنيست لأول مرة عام ١٩٦٨، وما تبعه من تعديلات لاحقة، نص على العديد من الإجراءات، منها():

اعتبار سكان القدس الشرقية «غائبين» بالنسبة للحال الكائن في تلك المنطقة فقط، ألغى منهم صفة العدو، والمقصود بتلك المنطقة فقط القدس الشرقية وضواحيها التي تم ضمها

إلى اسرائيل، في أتجاه منع السكان من المطالبة باسترجاع أملاكهم في القدس الغربية أو أي مكان آخر داخل دولة إسرائيل، وأصبح تعريف الغائب بأنه ذلك الشخص الذي ترك منطقة الضفة الغربية قبل يوم من ٧/ حزيران أو في نفس اليوم أو بعده. وهذا القانون يشبه قانون أملاك الغائبين لسنة ١٩٥٠، إلا أن تشريع أملاك الغائبين لسنة ١٩٦٧ كان أوسع من قانون عام ١٩٥٠.

من جانب آخر، قامت دولة الاحتلال بنهب ما يقارب (٧٠) كيلومتراً مربعاً من أراضي القدس الشرقية بعد ضمها عام ١٩٦٧ وأعلنت القدس عاصمة إسرائيل الأبدية(). وفي عام ٢٠١٣، قدم المستشار القانوني للحكومة وجهة نظره التي سمح فيها بتطبيق القانون في القدس، ومع إضافة بعض البنود التي يجب توفرها بهدف تحرير العقار من يد القيّم وإعادته إلى أصحابه. وفي هذه البنود توظيف جديد للقانون واستعمالاته، حيث من بين هذه البنود كان بند يشترط فيه أن يكون ملف صاحب الملك نظيفًا أمنيًا. وبهذا، غدا القانون قانونًا عقابيًا بالإضافة إلى كونه قانونًا عنصريًا استعماريًا().

هدم المنازل في القدس:

تمارس إسرائيل سياسة هدم البيوت كعقاب جماعي ضد الفلسطينيين، تحت ذريعة «الاحتياجات الأمنية» تارة، و»الاحتياجات العسكرية» تارة أخرى، أما النتيجة فهي هدم مئات المنازل وتهجير ألوف الفلسطينيين. ومما فعلته في هذا الجانب():

خلال النكبة عام ١٩٤٨م، دمّرت إسرائيل وهدمت (٣٩) قرية تابعة للقدس، وهجَّرت نحو (١٩٨) ألفاً من سكانها.

ومنذ استكمال احتلال القدس عام ١٩٦٧، استمرَّت السياسة التدميرية التي أدت إلى القضاء على (٥,٠٠٠) منزل، مئات منها تمت بهدم ذاتي؛ من قبل صاحب المنزل نفسه، وتسوية حارات كاملة بالأرض مثل حارة «المغاربة».

آخر عملية هدم جماعية جرت في صور باهر في القدس الشرقية، شملت (١٠) مبان تضم

(١٠٠) شقة سكنية. والحبل على الحرار!

رأي القانون الدولي في القوانين الاحتلالية(): إن مراجعة بسيطة للقوانين والاتفاقيات الدولية الخاصة بحقوق الإنسان تبيّن أن «سياسة العقاب الجماعي وهدم البيوت التي تعتمدها إسرائيل والتي تعتبر مخالفة للمادة (٣٣) من اتفاقية جنيف الرابعة التي تنص بوضوح على عدم جواز معاقبة أي شخص يتمتع بالحماية عن مخالفة لم يقترفها شخصياً. كما قرار محكمة العدل الدولية في سنة ٢٠٠٤ حول جدار الفصل يشكّل أنموذجًا على إمكانيّة مواجهة الاحتلال في الأروقة الدولية.

الاستنتاجات والتعليق

لا شك في أن الغوص في ثنايا الاحتلال وقوانينه يضع المرء أمام موقف يتطلّب رباطة الجأش والصبر على ما يقرأ من مغالطات من جانب، وما يتطلبه الأمر من تنفيذ بحثه (ورقته) بمنهجية علمية تحفظ له صدقه ومصداقيته كباحث يُنتظر منه نتائج واستنتاجات توفر للقارئ المعرفة الدقيقة والصحيحة التي يبحث عنها من جانب آخر.

وعليه، فإنه يمكنني القول، بعد هذه الساعات الطويلة من البحث والقراءة، وبموضوعية بعيدة كل البعد عن الذاتية، أن الاحتلال كان بشعًا بالفعل، ولم يكن في أيّ خطوة خطاها في الشأن الذي يطلق عليه «القانوني» يتصرف وفق القانون، وإنما كان يوظّف القوانين واللوائح والتعليمات التي تصدر بين الدوائر المختلفة من أجل «التهام» الوطن وسرقة ممتلكات الشعب الفلسطيني وحضارته في وضح النهار، الذي لم يكن يملك فيه أكثر من ١٠٪ وابتلاعه، ومحو كل ما يتعلّق بالشعب الأصلي؛ جسدًا وروحًا وحضارةً (عمرها آلاف السنين).

ولعلّ ما يثبت سوء النية المخطط له مسبقًا من قبل الاحتلال، عبر السبعين عامًا ونيّف، أن كل تعديل أو مراجعة تمت لقانون أملاك الغائبين قيد الدراسة، كانت تنقل الحق الفلسطيني من سيء إلى أسوأ، وإلى أسوأ الأسوأ؛ ففي كل مرّة يتم التشديد على حرمان الفلسطيني من أي إمكانية لاستعادة حقه؛ وإنما تنقل الأملاك والممتلكات الفلسطينية من اليد اليمنى

لدولة الاحتلال ومؤسساته إلى اليد اليسرى وبالعكس. وعندما استكمل احتلال القدس التي كانت ضمن حدود دولة معترف بها في الأمم المتحدة، تم التعامل معها على أنها مدينة «محرّرة!» وسعت إلى تطبيق قانون أملاك الغائبين عليها؛ بتطويع القانون وليّ عنقه ليمكّنها من السيطرة على أراضي المقدسيين وممتلكاتهم. وأما مفهوم الدولة «العدو»، فإن جميع الاتفاقيات والمعاهدات التي تمّت بين دولة الاحتلال ودول الجوار العربي، وإنهاء حالة القتال وإحلال السلام، لم تفلح في تغيير مفهوم الدولة العدو؛ لضمان عدم الإفساح للفلسطيني المهجّر للمطالبة بحقه في الأرض والممتلكات.

هكذا، تبقى قوانين دولة الاحتلال محمية، ليس بروح القانون المتعارف عليه لدى الأمم والشعوب، وإنما بالقوة التي تمتلكها، والتي هي المنفّذ للقوانين التي استباحت حقوق الشعب الفلسطيني وتاريخه وهويته وحضارته. إلا أن ذلك لا يعني التعامل مع الاحتلال على أنه قدر لا يمكن مواجهته، وإنما على صاحب الحق أن يبحث عن اختراق هنا وهناك في جدران تلك القوانين، كما هو وارد في هذه الورقة أعلاه.

فلسطين، بيت لحم، العبيدية، ٢٠٢١/٣/١٨

هوامش

١. حيدر، عزيز (٢٠٠٧). سياسة إسرائيل نحو أملاك الغائبين الفلسطينيين. مجلة قضايا إسرائيلية. مركز الدراسات الإسرائيلية (مدار). العدد (٢٧). ص: ٥-١٩.

٢. الموسوعة الفلسطينية (٢٠١٣). قانون أملاك الغائبين. يُنظر الرابط الآتي (شوهد في ٢٠٢١/٠٣/٢٤):

3. https://www.palestinapedia.net/قانون-الغائبين-أملاك/

٤. حيدر (٢٠٠٧).

٥. الموسوعة الفلسطينية (٢٠١٣).

٦. حيدر (٢٠٠٧).

٧. الموسوعة الفلسطينية (٢٠١٣).

٨. حيدر (٢٠٠٧).
٩. الموسوعة الفلسطينية (٢٠١٣).
١٠. زيادة، حرية (٢٠٢٠). وقائع استخدام إسرائيل «قانون أملاك الغائبين» لسلب أملاك الفلسطينيين في القدس المحتلة. المشهد الإسرائيلي. مركز الدراسات الإسرائيلية (مدار). العدد ٤٥١. ص: ٢.
١١. جريدة الحياة الجديدة. يُنظر الرابط (شوهد في ٢٠٢٠/٠٨/١٥):
12. http://www.alhayat-j.com/arch_page.php?nid=8070
١٣. الموسوعة الفلسطينية (٢٠١٣).
١٤. تفكجي، خليل (٢٠٢٠). قانون أملاك الغائبين عام ١٩٥٠. مقال غير منشور.
١٥. تفكجي، خليل (٢٠٢٠). قانون أملاك الغائبين عام ١٩٥٠. مقال غير منشور.
١٦. زيادة (٢٠٢٠).
١٧. دمبر، مايكل (١٩٩٢). سياسة إسرائيل تجاه الأوقاف الإسلامية في فلسطين ١٩٤٨-١٩٨٨. مؤسسة الدراسات الفلسطينية. بيروت، لبنان. طبعة (٢). ص: ٦٦.
١٨. الموسوعة الفلسطينية (٢٠١٣).
١٩. الجزيرة.نت (٢٠١٦). إستراتيجية إسرائيل في السيطرة على القدس. يُنظر الروابط الآتية (شوهدت في ٢٠٢٠/٠٨/٢٨):
20. https://www.aljazeera.net/encyclopedia/events/2016/2/21/كيف-سيطرت-إسرائيل-على-القدس
٢١. يُنظر أيضًا:
22. https://www.aljazeera.net/news/alquds/2017/8/12/حكاية-القدس-تحت-الاحتلال
23. https://oldwebsite.palestine-studies.org/ar/resources/special-focus/إسرائيل-وهدم-المنازل-في-القدس-الشرقية-قوننة-التهويد-دولياً
٢٤. تفكجي، خليل (٢٠٢٠). قانون أملاك الغائبين عام ١٩٥٠. مقال غير منشور.
٢٥. زيادة (٢٠٢٠).
٢٦. نابلسي، رازي (٢٠١٥). قانون أملاك الغائبين في القدس: "السيرة الذاتية» لتشريع النهب. مجلة قضايا إسرائيلية. مركز الدراسات الإسرائيلية (مدار). العدد (٥٨). ص: ٥٧-٦٦.
٢٧. جابر، أدهم (د. ت). إسرائيل وهدم المنازل في القدس الشرقية: «قوننة» التهويد دولياً!. يُنظر الروابط الآتية (شوهدت في ٢٠٢١/٠٣/٢٤):
28. https://oldwebsite.palestine-studies.org/ar/resources/special-focus/إسرائيل-وهدم-المنازل-في-القدس-الشرقية-قوننة-التهويد-دولياً
٢٩. جابر، أدهم (د. ت).

التغييرات في المجتمع الإسرائيلي خلال العقدين الماضيين

عليان الهندي*

لم يعبر سقوط حزب العمل الإسرائيلي في انتخابات عام ١٩٧٧، أو الانقلاب وفق المفاهيم الإسرائيلية، عن تغيير متصاعد في النخب الحاكمة بالدولة العبرية، من نخب صهيونية يسارية، إلى نخب صهيونية يمينية قادها في تلك الحقبة رئيس الوزراء الإسرائيلي السابق مناحيم بيغن، بل عن حدوث تغييرات مهمة في المجتمع الإسرائيلي، الذي تميز في الحقبة التي سبقت انتخابات عام ١٩٧٧، بالتناقضات بين الشرقي (سفاردي) والغربي (اشكنازي) وبروز أبناء الكيبوتسات، كقوة طلائعية بالمجتمع الإسرائيلي إن كان في الجيش أو بالاستيطان في الضفة الغربية وقطاع غزة، لصالح فئات دينية متزمتة ومتطرفة عاشت على هامش المجتمع والنخب الإسرائيلية الحاكمة منذ أن أسست دولة إسرائيل حتى الانتخابات المذكورة.

ما جرى في المجتمع الإسرائيلي خلال العقدين الماضيين، خاصة بعد فشل مفاوضات كامب ديفيد الثانية واندلاع انتفاضة الاقصى، كان بداية لظهور مجتمع إسرائيلي متجانس ومتطرف سياسيا، يعتقد بعدم وجود شريك فلسطيني يمكن التفاوض معه، وبالتالي يجب ترك هذه القضية جانبا، مقابل مجتمع متناقض ومختلف في الشؤون الداخلية، خاصة في مجال الخلاف والتناقض بين العلمانيين والمتدينين المتزمتين دينيا (الحريديم).

التطورات المذكورة، أدت إلى اندثار قوى سياسية واجتماعية، خاصة من كان يسمى باليسار

* باحث في الشؤون الإسرائيلية ومترجم لغة عبرية.

الصهيوني على مختلف توجهاته والنخب العسكرية، لصالح بروز فئات أخرى موضوع هذا المقال.

ومع ذلك لا بد من الإشارة، أن التغييرات التي حصلت لا تعني أن المجتمع الإسرائيلي ،أو اليسار الصهيوني، تطلع إلى السلام مع العرب والفلسطينيين، بل العكس هو ما حدث، حيث عملت حكومات اليسار على مدار ثلاثة عقود من حكمها، على نفي الوجود الفلسطيني، باحثة عن حلول إقليمية، وعن غيرها من الحلول، التي كان التهجير القسري أحد أهم بنودها.

أطراف التغيير

بلغ عدد سكان إسرائيل عام ٢٠٢٠ أكثر بقليل من ٩ ملايين نسمة١، ينقسمون إلى ثلاث مجموعات سكانية أساسية هي:

المجموعة الأولى: التي تضم العرب الفلسطينيين، أصحاب الأرض الأصليين الذين يشكلون ما يقارب ٢١٪ من مجموع سكان دولة إسرائيل، وإذا أضيف إليهم سكان مدينة القدس الشرقية العرب، فإنهم يشكلون سويا أكثر من ٢٤٪ من السكان.

لكن هذه المجموعة العرقية، تم تهميشها سياسيا واجتماعيا واقتصاديا، من قبل اليسار الصهيوني، ومن بعده اليمين الإسرائيلي، الذي ما زال يحكم ،بشكل أو بأخر، منذ عام ١٩٧٧، ما دفع بالعرب الفلسطينيين إلى البحث عن مكانتهم الوطنية والسياسية والاجتماعية، من خلال إنشاء القائمة المشتركة، التي كادت أن تكون شريكا في الإئتلاف الحاكم عام ٢٠٢٠، لولا حجم التحريض الذي مارسه رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو وأعضاء كنيست من ذوي التوجهات اليمينية المتطرفة في الأحزاب الصهيونية العنصرية المختلفة التي رفضت أن يكون العرب جزءا من الحياة السياسية، وهم الذين حاولوا إخراجهم من الحياة البرلمانية عندما سنوا قانون نسبة الحسم في الانتخابات، بهدف حرمان العرب من المشاركة بالحياة البرلمانية.

رغم ذلك، أصبحت الأقلية العربية الفلسطينية ،أصحاب الأرض الأصليين، في دولة إسرائيل

قوة لا يستهان بها، دفعت برئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو العمل على تفكيك العناصر الجامعة للعرب سياسيا، الممثلين بالقائمة المشتركة، من خلال تقديمه وعوداً وهمية للشق الجنوبي من الحركة الإسلامية بقيادة منصور عباس، بهدف تقليل مخاطر القائمة المشتركة على الحياة السياسية اليهودية في دولة إسرائيل٢.

أما المجموعة الثانية من سكان دولة إسرائيل، فهم المتدينون المتزمتون دينيا (هحردليم) على مختلف أنواعهم، إضافة إلى ما يسمى بالتيار الديني الوطني ،أو ممثلي المستوطنين، الذين يشكلون ما يقارب ٢٢٪ من سكان "دولة إسرائيل".

ومن حيث المطالب، ينقسم أنصار المجموعة المذكورة، إلى فئتين هما أحزاب المتزمتين دينيا (الحريديم) الذين يتطلعون إلى إقامة دولة الشريعة اليهودية في دولة إسرائيل، ويعتبرون الطرف الأساسي في التناقض مع العلمانيين، وهذا الطرف ظل شريكا أساسيا بالحكم في دولة إسرائيل منذ نشأتها حتى اليوم.

المجموعة المذكورة، لم تشغلها القضايا السياسية، لكنها وبعد التوقيع على اتفاقيات أوسلو، شهدت توجها متزايدا نحو اليمين الإسرائيلي المتطرف، خاصة بعد الفتوى المشهورة من الحاخام عوفاديا يوسف، التي اجاز فيها التنازل عن أراض مقابل السلام والمحافظة على الأرواح –اليهودية طبعا٣.

أما الطرف الثاني من أبناء التيارات الدينية، فهو الحزب الديني الوطني، أو حزب المستوطنين، الذي رغم تطلعه إلى إقامة دولة الشريعة اليهودية، إلا أنهم يعطون أولوية للاستيطان وطرد الفلسطينيين من أراضيهم، كمقدمة للعودة والخلاص. وأبناء هذا التيار يملكون قوة متنامية في الجيش والكنيست وفي كل مؤسسات الدولة، بما فيها التأثير العميق في السياسيات المتعلقة بالمناطق الفلسطينية المحتلة، كونه المنفذ الحقيقي لهذه السياسات.

ومن الطرفين المذكورين، برزت فئة ثالثة تسمي نفسها التيار الديني المتزمت دينيا ووطنيا (هحردليم)، وهي فئة قليلة جدا، لكنها مؤثرة كثيرا كون معظم نشطائها ونشاطاتها موجه ضد سكان الضفة الغربية ومدينة القدس المحتلتين٤.

الطرف الثالث، من معادلة التغيير داخل المجتمع الإسرائيلي، هم بقية اليهود الذين يشكلون ٥٤٪ من مجموع سكان دولة إسرائيل، من بينهم ٤٣٪ ممن يصنفون أنفسهم علمانيين. ومن بين المجموعة المذكورة، برز اليهود الروس الذين قدموا إلى "دولة إسرائيل" بعد عام ١٩٩٠، ويشكلون اليوم أكثر من ٢٠٪ من يهود الدولة العبرية، وثلث الناخبين اليهود. وينقسم هذا القطاع من السكان إلى ثلاثة أقسام هم: الجيل القديم، الذي ولد وترعرع في روسيا، وظل حتى هذا اليوم من المصوتين للأحزاب الممثلة لليهود الروس والليكود. الجيل الثاني، الذي ولد في إسرائيل واندمج ،بشكل أو بأخر، في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية داخلها. أما الجيل الثالث، فهم من غير اليهود الذين هاجروا إلى إسرائيل، ويقدر عددهم بما يقارب من ٣٠٠ ألف نسمة، الغالبية العظمى منهم من المسيحيين والعمال والمتسللين الافارقة، الذين يصنفون أنفسهم بلا دين.

وتتبنى الفئات المذكورة من اليهود الروس، مواقف سياسية متطرفة اتجاه العرب والفلسطينيين، لا تقل عن مواقف المستوطنين انفسهم. لكنهم في نفس الوقت، يرفضون بشكل مطلق مظاهر الحياة الدينية، ما حولهم لعنصر مهم في الصراع والخلاف بين المتدينين والعلمانيين، ولعل من أبرز قادة هذا التيار أفيغدور ليبرمان رئيس حزب "إسرائيل بيتنا".

ومن الطرف الثالث، بقية السكان اليهود الذين تقدر نسبتهم بـ ٢٩٪ من السكان. ونخبهم هي من تقود الدولة العبرية منذ نشأة الدولة حتى اليوم. وشهد هذا التيار، تغييرات حقيقية خلال العقدين المنصرمين، باتجاه التطرف ومعارضة أي حل مع الفلسطينيين. وترى المجموعة المذكورة، بالزمن عاملاً مساعداً لها لإيجاد حلول أخرى مثل الطرد أو التهجير القسري للشعب الفلسطيني.

في السياق المذكور، يبرز دور رئيس الوزراء الحالي بنيامين نتنياهو، الذي لعب دورا كبيرا في الابتعاد عن اليمين الوسط، باتجاه اليمين المتطرف، وفي إزاحة النخب العسكرية من الواجهة السياسية على مدار العقد ونصف العقد الماضيين.

أدوات التغيير - قصر في الغابة

شارك في عملية تحول المجتمع الإسرائيلي بالتوجه نحو اليمين المتطرف، مناهج التعليم الإسرائيلية، التي ما زالت تُدرس حتى هذا اليوم، التي تبدأ من رياض الأطفال وتنتهي بالجامعة، والتي لعبت دورا مهما في تصنيع رواية يهودية-صهيونية موحدة وسلبية اتجاه العرب والفلسطينيين، الذين ترفض الاعتراف بهم وبحقوقهم الوطنية، وتصنفهم على أنهم قبائل الفليست غير العربية التي جاءت إلى "أرض إسرائيل"، وبالتالي ليس لهم أي حق في هذه البلاد، التي قال عنها بنيامين نتنياهو، أنها ليست للمساومة ولن يتنازل عن أي شيء منها للأغيار.

إضافة لذلك، وصفت المناهج المذكورة، العرب بأنهم قبائل وعشائر غير متجانسة ومتحاربة، جاء الاستعمار ليصنع منها أمة، غير أنهم رفضوا ذلك. واستعانت الرواية المذكورة بالحروب الجارية الآن في كل من ليبيا وسوريا واليمن والعراق، وفي قمع الحريات الممارس في مختلف الدول العربية.

في المقابل، صور اليهودي بالضحية والمجبر بالدفاع عن نفسه من المتوحشين العرب، وصورت الحروب التي تشن ضد الفلسطينيين والعرب على أنها حرب دفاعية، كتلك التي شنها على قطاع غزة عام ٢٠١٤، التي ذكر في الرسالة الموجهة من قائد لواء غزة العميد عوفر فينتر للجنود الذين يقودهم للعدوان :"أن الله اختارهم لمحاربة قطاع غزة الذي يدنس اسمه"٥.

وسارت على نفس المنوال، كتب التعليم الإسرائيلية المخصصة للتيارات الدينية اليهودية المتزمتة، التي شددت على أحقية اليهود بما يسمى "أرض إسرائيل" على غيرهم من الأمم والأقوام.

في السياق المذكور، لعب الجيش الإسرائيلي دورا محوريا في تعزيز الرواية الصهيونية المتطرفة، عندما تبنى مجموعة من المصطلحات، وقام بتطبيقها على الأرض، مثل نظرية الدفاع عن القصر (دولة إسرائيل) في الغابة (العالم العربي)، وبأن دولة الأقلية إسرائيل في مواجهة دائمة مع الأغلبية العربية التي تريد إبادة دولة إسرائيل، وبالتالي وضعت نظريات القتال الخاصة

بالدولة العبرية، لتشمل حتى تلك الدول الموقعة معها على سلام مثل مصر والأردن.

في السياق ذاته، عمل الجيش الإسرائيلي، خاصة قسم التوجيه فيه، على وضع مجموعة من المعايير الصهيونية العنصرية، التي وضعتها العصابات اليهودية قبل نشأة دولة إسرائيل وما زالت تستخدم حتى هذا اليوم، التي كان من أهمها "أن العربي الجيد هو العربي الميت"، وأن "العرب لا يفهمون سوى لغة القوة". وحتى اتفاقات السلام، التي وقعتها إسرائيل مع الدول العربية مثل الاتفاقات مع المملكة الأردنية الهاشمية وجمهورية مصر العربية، فقد صورت بأنها جاءت بعد فشل العرب في تدمير دولة إسرائيل، وإذا ملك العرب القوة فإن الاتفاقات الموقعة معهم "لا تساوي الحبر الذي كتبت فيه"٦.

ولم يخجل رئيس وزراء إسرائيل ،بنيامين نتنياهو، من تكرار الشعارات المرفوعة منذ أكثر من قرن، عندما صرح بأن توقيع الدول العربية مثل البحرين والامارات والمغرب والسودان، على اتفاقيات السلام أو "اتفاقيات أبراهام"، جاء نتاج تفوق دولة الإحتلال عسكريا وعلميا على الدول الموقعة. ولإيقاع مزيد من الاهانة بالأنظمة العربية تبرعت دولة الاحتلال بعشرة ملايين دولار ،ليس لدولة السودان، بل للمنظمات الانسانية العاملة على إطعام الجوعى في البلد الذي سمي يوما سلة الغذاء العربية٧.

بالتالي لم يكن غريبا، أن يتمتع الجيش الإسرائيلي بنسبة تأييد تصل إلى ٩٠٪ بالوسط اليهودي، في استطلاعات الرأي التي أجراها المعهد الإسرائيلي للديمقراطية، بينما حصلت وزارة التربية والتعليم الإسرئيلية على أكثر من ٧٥٪ من الجمهور اليهودي من المشاركين في الاستطلاع.

أفول وغياب اليسار الصهيوني

شكل إفشال مفاوضات كامب ديفيد من قبل رئيس الوزراء الإسرائيلي السابق إيهود براك، للتوصل إلى حل إسرائيلي للقضية الفلسطينية، في أفول وغياب النخب الإسرائيلية التقليدية، أو بصورة أدق اليسار الصهيوني، بشقيه الوسطي الممثل بحزب العمل الذي أسس دولة إسرائيل، الذي بدأ يشهد تراجعا متواصلا، وصل لدرجة أنه كاد يختفي في الانتخابات الأخيرة (٢٠٢٠).

كما امتد الانهيار والتراجع إلى التيارات والأحزاب الأكثر يسارية، الذين أمنوا بشكل أو بأخر بإمكانية التوصل لحل ما مع الفلسطينيين قائم على مبدأ دولتين لشعبين، والاهتمام بحقوق الانسان مثل حزب راتس ووريثه من بعده ميرتس الذي نجح في الانتخابات الأخيرة بفضل أصوات العرب٨.

أما من تبقى من اليسار الإسرائيلي، في الساحة السياسة والفكرية والثقافية والاكاديمة والاجتماعية، فهم مجموعة هامشية، تضم عددا من الشخصيات والمجموعات والحركات والجمعيات الأكاديمية والسياسية والفكرية والاجتماعية، التي تعتبر حركة السلام الان و»يكسرون الصمت» و»زخوروت» للحديث عن النكبة الفلسطينية، جزءا منهم، فقد وجد الكثير منهم، ومن بينهم مؤسسي المجموعات المذكورة، في هجرة قسرية إلى دول الاتحاد الأوروبي والولايات المتحدة وكندا، نتيجة الضغوط والمضايقات التي تعرضوا لها خلال العقدين الماضيين من قبل المؤسسة الحاكمة في إسرائيل، ومن قبل جمعيات يمينية متطرفة على مختلف أنواعها كان من أهمها حركة «إم ترتسو»٩.

وقد أدركة المجموعة المذكورة، أن حل القضية الفلسطينية لن يأتي من داخل إسرائيل، بل من الضغوط الخارجية والعقوبات، ما دعى إسرائيل ومؤسساتها وقادتها إلى وصفهم بـ «اليهود الكارهين لأنفسهم» ووضعت قوائم سوداء باسمائهم لمنعهم من العودة أو ممارسة أية نشاطات سياسية أو اجتماعية أو اكاديمية. ن التغيير فيفي إسرائيل لن يأتأومن هذه الشخصيات البروفيسور نيف غوردون والدكتورة أريئيلة أزولاي والبروفيسور عنات بيلتسكي، مؤسسة منظمة «بيتسيلم» لحقوق الانسان، ويغيئال أرنس ابن وزير الدفاع الإسرائيلي السابق موشيه أرنس١٠.

لكن لا بد من الإشارة، أن الضربة الموجعة والقاضية لليسار الصهيوني ولقوى اليسار الأخرى، لم تأت من أنصار اليمين، أو من المؤسسة الحاكمة التي قادها خلال العقد ونصف الماضيين بنيامين نتنياهو، بل جاءت من إيهود براك نفسه الذي قاد اليسار إلى الدمار بعد إفشاله متعمدا اليسار الصهيوني، وهو يبحث عن الوجه الحقيقي للمرحوم ياسر عرفات، وليس عن حل للقضية الفلسطينية.

الحالة التي وصل إليها اليسار الصهيوني في إسرائيل، عبر عنها بوضوح رئيس الكنيست السابق أبراهام بورغ، الذي لم يجد حزبا يساريا يصوت له، غير القائمة العربية المشتركة في الانتخابات الأخيرة التي جرت عام ٢٠٢٠.

إزاحة النخب العسكرية والمدنية

جهة أخرى تطلبت إزاحتها من الساحة السياسية من أجل بروز النخب الجديدة، هم كبار ضباط الجيش، الذين شكلوا رافدا طبيعيا، للمناصب العليا في دولة الاحتلال مثل منصب رئيس الوزراء ووزراء الدفاع، وغيرها من المناصب، وكبار موظفي الدولة المدنيين، الذين مثلوا شرائح مهمة في المجتمع الإسرائيلي، وأوجدوا مع العسكر نوعا من المهنية والتخصص في المجالات التي مثلوها وبالمهام السياسية التي أوكلت إليهم، وكانوا مصدر ومحل ثقة لدى فئات كبيرة ومتنوعة من المجتمع اليهودي في دولة إسرائيل.

وقد برزت ذروة قوة الجيش في العقود الثلاثة الماضية، عندما نجح في المساهمة في إسقاط بنيامين نتنياهو، من سدة الحكم لذهابه لمفاوضات سرية مع سوريا من دون علم مؤسسات الدولة، وهو الذي قلل من شأنهم، وكشف عن حجم الرواتب التي يتلقاها الجنرالات التي تفوق مرتبات الوزراء ورئيسهم، وفي رفض شاؤول موفاز مشاركة خبراء عسكريين في مفاوضات كامب ديفيد الثانية، إلى أن تدخل الرئيس الأميركي السابق بيل كلينتون.

الوضع المذكور، تطلب سن قوانين جديدة من قبل الفئات المتضررة، مثل أحزاب اليمين الوسط والمتطرف في إسرائيل والمتدينين المتزمتين، لمنع بروز رجال العسكر في الحياة السياسية، بعد اعتزالهم الحياة العسكرية أو المدنية بالنسبة لكبار موظفي الدولة.

وكان قانون تجميد المشاركة في الحياة السياسية، لمدة خمسة أعوام، الذي تم سنه في الكنيست عام ٢٠٠٧، هو الأداة المهمة التي استخدمت لابعاد تلك المجموعة من الحياة السياسية الإسرائيلية، ومعهم شرائح المجتمع الذين يثقون بهم١١.

وحتى من نجح، من النخب العسكرية والمدنية، بالعودة إلى الحياة السياسية بشكل جماعي،

مثل حزب أزرق-أبيض، فقد عملت الفئات المُهددة من قبله مثل حزب الليكود والأحزاب المتزمتة دينيا والمستوطنون على تفكيكه، وإفراغه من قوته الحقيقية، وتحويله لقوة هامشية، فقدت مصداقيتها أمام من انتخبهم في انتخابات عام ٢٠٢٠، بعد أن شكل أملا في التغيير.

النخب الجديدة – من هم

نتيجة للوضع المذكور أعلاه، وبعد التغييرات التي حدثت في المجتمع الإسرائيلي، برزت نخب جديدة في المجتمع الإسرائيلي، الكثير منهم من السياسيين المتدينين والحاخامات، وأقلية من العلمانيين الذين يتبنون مواقف سياسية متطرفة اتجاه العرب والفلسطينيين، الرافضين للسلام مع الشعب الفلسطيني، والعاملين على سن قوانين جديدة، عنصرية من جهة بحق الفلسطينيين في الداخل، ومن جهة أخرى تعمل على ضم الضفة الغربية من دون السكان، الذين تحدثوا عن إمكانية طردهم، أو عدم منحهم أية حقوق مدنية.

النخب الجديدة في المجتمع الإسرائيلي، لا توجد فيها قيادات مؤثرة، ولم تنتج قيادات متنوعة، كما هو الحال في الفترات التي سبقت عام ٢٠١٠، فيكفي قائد واحد مهيمن مثل بنيامين نتنياهو، ليقود المجتمع اليهودي المتجانس سياسيا، والمختلف دينيا لأطول فترة ممكنة، وهو ما يفسر فشل كل محاولات إسقاطه، خلال الانتخابات الثلاثة التي أجريت خلال العامين الماضيين.

الأمر لم يتوقف على تغيير النخب السياسية الحاكمة، بل امتد ليشمل تغيير، ما يسمى بالطلائعيين في المجتمع الإسرائيلي، حيث حل المستوطنون المتدينون المتزمتون (هحردليم)، أو شبيبة التلال الذين يمارسون شتى أنواع الاعتداءات على العرب الفلسطينيين، بحماية من الجيش الإسرائيلي، بناءً على فتوى الحاخامات، متنكرين حتى للقانون الإسرائيلي المتواطئ كليا مع تصرفاتهم، مكان أبناء الكيبوتسات العلمانيين.

التغيير في المجتمع والنخب الإسرائيلية، تطلب أيضا عقد تحالفات جديدة، خاصة في الولايات المتحدة، حين نجح اليمين الإسرائيلي المتطرف بقيادة بنيامين نتنياهو، بعقد تحالف متين

مع اليمين الصهيوني-المسيحي في الولايات المتحدة، الذي رهن كل سياساته الشرق أوسطية لصالح إسرائيل في ظل قيادة الرئيس الأميركي السابق دونالد ترامب.

ومن أجل تسويق أفكارها الأمنية والسياسية وحتى الفكرية، داخل المجتمع اليهودي، احتاجت النخب الجديدة، إلى مراكز أبحاث جديدة مثل مركز بيغن - السادات للدراسات الاستراتيجية ومركز القدس للدراسات الاستراتيجية وحركات سياسية صهيونية مثل «إم ترتسو»، علاوة على عشرات وسائل الاعلام، وألوف مواقع التواصل الاجتماعي.

ولم يغب عن بال النخب اليهودية-الصهيونية الجديدة، مأسسة عملها بجمعيات خيرية ومؤسسات تطوعية، بلغ عددها في دولة إسرائيل ما يقارب عشرات ألوف الجمعيات والمؤسسات الطوعية منها ٥ آلاف جمعية ومؤسسة طوعية عاملة لدعم الاستيطان والمستوطنين في الضفة الغربية.

خلاصة

تبنى المجتمع اليهودي، منذ نشأة الحركة الصهيونية مجموعة من الأفكار والمصطلحات، المبنية على رفض ثقافة السلام وكراهية العرب والمسلمين، وإنكار وجود الفلسطينيين على هذه الأرض. وهي ثقافة ما زالت مرافقة للمجتمع اليهودي حتى هذا اليوم، والتي تشرف عليها وتحرسها مؤسسات التعليم الرسمي والديني وهيئة التوجيه في الجيش الإسرائيلي، وجيش من المفكرين والمؤسسات البحثية والفكرية والطوعية، بهدف المحافظة على تجانس سياسي متطرف بين اليهود، هدفه الأساسي إبقاء وتغذية عقيدة الخوف من العربي، وبالتالي رفض السلام مع الدول العربية الذي وصفة البروفيسور يحزقيل درور بأنه احتياج ثانوي، في حين وصفته النخب السياسية الحاكمة بأن السلام مع العرب جاء من منطق القوة، وبعد فشل الدول العربية في إزاحة إسرائيل عن الوجود، في حين وصفت اتفاقيات التطبيع الاخيرة مع دول مثل المغرب والامارات والسودان، بأنها جاءت نظرا لحاجة هذه الدول لإسرائيل، ولم يأت لحاجة إسرائيلية.

وصلت ذروة التغيير في المجتمع الإسرائيلي عام ١٩٩٦، عندما قتل رئيس وزراء إسرائيل إسحاق رابين، مبشرا ببروز النخب الجديدة، التي يقودها مجموعة من رجال الدين (الحاخامات) مثل داف ليئور وإسحاق ليبانون وناحوم اليعازر رابينوفيتش، وبمجموعة من السياسيين مثل ميري ريغيف وبتسلال سموتريتش ونفتالي بينت، الذين يقودهم رئيس الوزراء الحالي بنيامين نتنياهو. الذين حلوا مكان من تصفهم الجهات اليهودية اليمينية المتطرفة «اليهود الكارهين لأنفسهم» ووضعت قوائم باسمائهم لحرمانهم من ممارسة أية أنشطة تتعارض مع القيم والافكار التي يحملونها.

لذلك على الشعب الفلسطيني، أن لا يراهن على أي تغيير في المجتمع الإسرائيلي لصالح السلام، بل عليهم البحث عن خيارات جديدة تستبعد الخيار والحلول التي تريدها إسرائيل مثل العلاقة بين السيد والعبد. على أن يكون الأساس في هذه الخيارات وحدة الشعب الفلسطيني من البحر حتى النهر، لمواجهة المخاطر القادمة من دولة الاحتلال، لحين توفر ظروف تساعد الشعب الفلسطيني بالخروج من المأزق الذي يعيشه اليوم.

الهوامش

- إعلان لوسائل الاعلام، عدد سكان إسرائيل لعام ٢٠٢١، دائرة الاحصاء المركزية، رابط الاعلان على المواقع الاليكترونية www.cbs.gov.il/he/mediarelease/Pages/٢٠٢٠/٪D٧٪٩٠٪، ٢٠٢١ .
- صيام عبد الحميد، ثلاثة أخطار مستجدة تحيق بالشعب الفلسطيني وقضيته العادلة، الرابط الاليكتروني للمقال www.alquds.co.uk/٪D٨٪D٩،٤٪AB/٢/٢٠٢١.
- دانيئيل سغرون، تسليم أراضي مقابل المحافظة على الحياة - الخلاف بين الحاخام عوفاديا يوسف والحاخام شئول يسرائيلي، ص ٤٩، رابط المقال الاليكتروني asif.co.il/download/kitvey-et/mhn٪kd٢٠/١٪٢٠(٣).pdf.
- أنشيل بيبر، بين التوراة والسلوك، منشورات معهد فيلورسهايمر للدراسات الإسرائيلية، ص ٥، ٢٠١٥.
- غيلي كوهين، عوفر فينتر قائد قطاع غزة لجنوده: الله إله إسرائيل، نحن نحارب عدوا دنس اسمك، هأرتس، ١١\٧\٢٠١٤، الرابط الاليكتروني للمقال، www.haaretz.co.il/news/politics/١,٢٣٧٣٨٦٤.
- البروفيسور يحزقيل درور، استراتيجية كبرى لعصر نصف السلام، محاضرة من ضمن يوم دراسي عن استراتيجية

إسرائيل الشاملة، مركز بيغن- السادات في جامعة بار- إيلان. ٢٠٠٢.

- موران أزولاي، نتنياهو: أرسلت مساعدات من القمح بخمسة ملايين دولار إلى السودان، الرابط الاليكتروني للمقال، html.٥٨٣٣٠٦٠,٠٠-L,٠,٧٣٤٠/www.ynet.co.il/articles
- أمنون هراري، الناخبون العرب أنقذوا ميرتس في انتخابات ٢٠١٩، تحتاجهم الان، رابط المقال الاليكتروني ١,٩٥٣٨٨٥٤-www.haaretz.co.il/news/elections/sakran/.premium.
- لتعريف بحركة "إم ترتسو" المنشورة في الوقع الرسمي للحركة، الرابط الاليكتروني imti.org.il/about-us/ movement
- شيني ليتمن، قادوا حركات يسارية، لكنهم يأسوا وأجبروا على الرحيل، قصة المنفيين الجدد، ملحق هأرتس الاسبوعي، ٢١/٥/٢٠٢٠
- قانون فترة التجميد للعاملين في قوات الأمن (تعديل وتشريع) ٢٠٠٧، موقع "بيسك دين" المختص بالقانون الإسرائيلي، الرابط الاليكتروني للخبر ٩٧٪www.psakdin.co.il/Law/٪D٧.

رؤية اليهود العرب للدولة الفلسطينية والتطبيع

أ.حسام أبو النصر*

طفت على السطح مؤخراً العلاقات العربية الإسرائيلية والهرولة نحو التطبيع، شملت عدة دول منها البحرين والامارات والسودان والمغرب وغيرها، متجاوزين المبادرة العربية للسلام، وقد ظهر معها حديث ليس بجديد عن المطالبة بتعويضات من الدول العربية على ممتلكات اليهود العرب قبل هجرتهم إلى فلسطين، حيث عاشوا بعد قيام دولة إسرائيل ضمن سياق المؤسسة الإسرائيلية الجديدة، رغم النقاش المفتوح منذ ذلك الحين حول دور اليهود السفارديم منذ تأسيس الدولة، وحكم الاشكناز وسيطرتهم على مراكز القرار في إسرائيل منذ النشأة، وقد يكون ذلك لأنهم أول من آمنوا وأسسوا الصهيونية، عكس السفارديم العرب الذين التحقوا متأخرين، واطلق عليهم البعض اسم إسرائيل الثانية في إشارة إلى أن الاشكناز يمثلون إسرائيل الاولى. وقد كان اليهود اليمنيون أول القادمين إلى فلسطين من اليهود العرب في القرن التاسع عشر كبديل للعمال العرب في مزارع اليهود الأوروبيين.

*الوجود اليهودي العربي في الدول العربية:

ويعود الوجود اليهودي في المنطقة العربية إلى موجات متتالية بدأت بالمستوطنين الأوائل منذ القرن السادس قبل الميلاد (النفي البابلي)، ثم موجة أخرى أتت بعد سقوط القدس (القرن الأول الميلادي). وهاجرت هذه الجماعات شرقاً نحو العراق أو نحو الجزيرة العربية أو جنوبا

* باحث فلسطيني

نحو مصر، وتسربت أعداد منها إلى شمال افريقيا. وقد امتزجت بأهل البلاد الأصليين وتكلمت لغتهم واطلق بعضهم على افرادها اسم المستعمرين وهم أقدم الطوائف اليهودية المقيمة في المنطقة. إلا أن الموجة الكبرى هي التي أتت بعد خروج اليهود الجماعي من اسبانيا على اثر انهيار الحكم العربي، وانتشر من سموا سفارديم، الناطقين بلهجة اسبانية عبرية في كل مكان على سواحل المتوسط من مراكش حتى اسيا الصغرى، ونزل بعضهم في اليونان وإيطاليا وحتى شمال غرب أوروبا وكانوا يختلفون عن غيرهم من المجموعات الشرقية من الناحية العرقية وحتى بعض الأمور الدينية ويهود اليمن أو العراق أو ايران أو أفغانستان هم ليسوا السفارديم، إلا أنه مصطلح يطلق على أبناء المجموعات الشرقية مع ان ليس كل اليهود الشرقيين سفارديم وليس كل السفارديم شرقيين، وقد قدم عدد لا بأس به من يهود إيطاليا في القرن السابع عشر واستوطنوا الجزائر وليبيا وكلا المجموعتين من المهاجرين السفارديم، وتختلف من عدة وجوه عن المستوطنين اليهود القدامى، إذ كانوا أكثر غنى وثقافة، وفي القرون التالية أصبح الفرق بين السفارديم من جهة، وبين اليهود الشرقيين من جهة أخرى اقل وضوحاً إلا أنه لم يختلف تماماً في شمال افريقيا ومصر وتركيا كون نسل هاتين المجموعتين هي الطبقة الوسطى التجارية وأصحاب المهن الاختصاصية، وقد ظلت اللهجة الاسبانية اليهودية هي اللغة المتداولة بينهم حتى وقت متأخر من القرن التاسع عشر، ثم أصبحت اللغة الفرنسية شائعة بينهم كسائر مجتمعات الحوض الأبيض المتوسط التي تعمل بالتجارة، إلا أن الجيل القديم ظل يستعمل اللادينو، بينما كانت اللغة العربية التي هي اللغة الام للمستوطنين القدامى لغة مشتركة بينهم جميعا. وقد أصبحت اللغة العربية تدريجياً لغة جميع اليهود في البلاد العربية بعد أن ظلت الآرامية لغة يهود سوريا وفلسطين حتى القرن التاسع، واليونانية لغة يهود مصر، بينما اللغة العبرية لغة الادب والوثائق القانونية، وكانت أشهر الكتابات اليهودية والتي لها قيمتها في الفكر الفلسفي العالمي قد كتبت باللغة العربية في تلك الفترة. وتأثر اليهود كسائر الطوائف بطريقة معيشة الأغلبية، فإلى جانب أنهم أصبحو عرباً في لغتهم وثقافتهم تأثرت حياتهم الاجتماعية واخلاقهم بالطابع العربي والإسلامي.

***علاقة اليهود العرب بالصهيونية:**

لقد كان تعلق يهود البلاد العربية بتراثهم الديني هو الذي يربطهم بفلسطين لما تحمله من ذكريات مقدسة، وهو الذي دفع بعض افرادهم إلى المجيء إليها من اجل الزيارة أو الحج، ولم يكن لهذا أي مدلول سياسي.

ولما قامت الصهيونية كحركة سياسية منظمة تعمل على توجيه الهجرة اليهودية إلى فلسطين من اجل خلق وطن يهودي، لم ينظر يهود البلاد العربية بعطف إلى هذه الجهود الصهيونية التي هي من عمل اليهود الأوروبيين. كما أن قادة الحركة الصهيونية حصروا اهتمامهم بادىء الأمر بالأفق اليهودي في شرق أوروبا وتجاهلوا الطوائف اليهودية التي تقيم في البلاد العربية وسائر بلاد الشرق، حتى بعد الثلاثينات حيث قام مندوبون من المنظمة الصهيونية بزيارة الطوائف الشرقية مرارا والتعرف على حالتها لمعرفة إمكانية الاستفادة منها . وكانت اعمال مندوبي الوكالة اليهودية اثناء الحرب العالمية الثانية تتركز على تشكيل منظمات صهيونية في كل البلاد العربية تعمل على تشجيع الهجرة إلى فلسطين، وقد استجاب عدد من الشباب اليهود لهذا الاغراء ولعملية ترويج الشائعات حول عدم الامن الاقتصادي والسياسي.

ومع ذلك كانت النشاطات الصهيونية في البلاد العربية متفرقة وضئيلة وادانها زعماء الطوائف اليهودية في كل البلاد العربية في مناسبات متعددة وعبروا عن معارضتهم للفكرة الصهيونية معتبرين إياها تهديداً للحياة الآمنة بين جيرانهم العرب. بالإضافة إلى ذلك فان الرأي العام العربي كان يعتبر الصهيونية أمراً خارجاً عن اطار العلاقات التقليدية بين سائر العرب وسائر الطوائف اليهودية، واكد الزعماء السياسيون العرب دوما ان عدائهم موجه ضد الحركة الصهيونية السياسية الأوروبية في فلسطين، وليس عداء لاعضاء الطوائف اليهودية في البلاد العربية، الذين يعتبرون رعايا موالين لبلادهم مع تمسكهم بيهوديتهم، كما ان مطلب الجامعة العربية بالمناداة بفلسطين العربية المستقلة كان يزدوج مع تطمينات للاقلية اليهودية فيها في حالة إيجاد هذه الدولة.

والواقع ان يهود البلاد العربية في كل من اسيا وافريقيا لم يلعبوا دوراً هاماً في الهجرة إلى فلسطين

أو في انشاء المستعمرات فيها، ولكن مع خلق اسرائيل وسط العالم العربي جرى تغير في أعداد الطوائف اليهودية وتوزعها، لم تكن البلاد العربية مسؤولة عنها، بل كان نتيجة للاعتبارات الجديدة التي ادخلتها إسرائيل إلى المنطقة بجعل الطوائف اليهودية في البلاد العربية هي المرشحة الرئيسية للهجرة إلى إسرائيل وهي التي سيكون لها وزنها في تلبية حاجات إسرائيل للمال والطاقة البشرية والقوة العسكرية.

***اليهود العرب في (إسرائيل) فلسطين المحتلة بعد عام ١٩٤٨:**

وبعد مرور كل هذه السنوات لا يمكن الحكم دون النظر للجدل التاريخي الدائر بينهما في الحياة السياسية الإسرائيلية، فدخلت كثير من المتغيرات والاحداث التي بلورت القرار السياسي الإسرائيلي الحالي، وبالتأكيد عملت إسرائيل طوال سنوات على دمج اليهود العرب في الحياة الجديدة، وقد تكون بشكل متفاوت عن الامتيازات التي حصل عليها يهود أوروبا مثلاً، إلا أنهم اصبحوا جزءاً من الخدمة العسكرية، وإدارة البلاد، والمؤسسات المدنية، وجزءاً من الحياة الاجتماعية الإسرائيلية التي هي بالاصل عبارة عن فسيفساء لأعراق مختلفة تحمل ديناً واحداً لتشكل دولتهم بالإضافة إلى العرب الفلسطينيين الموجودين بالأصل، وهنا ظهرت العديد من التسؤلات، منها حفاظ اليهود العرب على خصوصيتهم داخل إسرائيل، وبناء قرار موحد في دولتهم، اتجاه قضايا عديدة، وإذا ما شكلوا بمجموعهم جسماً موحداً داخل إسرائيل، باعتقادي بعد هذه السنوات، وتشكل الأحزاب الإسرائيلية صعوداً وهبوطاً، يميناً ويساراً ووسطاً- لايمكن القول أن الجسم اليهودي العربي في إسرائيل شكل كتلة واحدة، ولا يمكن تناولهم بمعزل عن الاثنيات والأعراق اليهودية الأخرى، ولا يمكن القول أنهم يحسبون على حزب دون الآخر، بل أنهم شكلوا مختلف الأفكار والتيارات التي اندمجت في مختلف الأحزاب اليمينية واليسارية، ولم يكونوا في موقف واحد اتجاه القضايا المختلفة لإسرائيل، واختلفوا عن الرؤية التقليدية للمشروع الصهيوني بأنهم قد يكونوا قناة اتصال بالدول العربية يوما ما، بالعكس اليوم نرى اليمين الاشكنازي وصلت علاقته للدول العربية قبل اليهود العرب، وأيضا اختلفت الرؤية

السابقة بتقلدهم مراكز ثانية أو ثانوية في الدولة التي أسسها الاشكناز الأوروبيون، كل المعايير اختلفت، فنحن نجد اليوم وزراء عرباً في الحكومة الإسرائيلية وهم الأكثر تشدداً وتطرفاً وبعضهم شكل اليمين الإسرائيلي الذي يعتمد عليه رئيس الوزراء الحالي نتنياهو بشكل كبير ويلجأ لهم.

***نماذج الموقف اليهودي العربي تجاه القضية الفلسطينية:**

وهنا نذكر نماذج من باب الذكر لا للحصر ولنؤكد هذا الطرح، فمثلاً يعيش في إسرائيل أكثر من مليون يهودي من أصول مغربية، وتزخر الساحة السياسية والاقتصادية بالأسماء من أصول مغربية، مثل أسرة إيلي من فاس، وشلومو بن عامي ابن مدينة أصيلة، ودافيد ليفي المنحدر من الرباط، بالإضافة إلى سعدية مارسيانو أحد مؤسسي حركة الفهود السود، ومردخاي فعنونو المولود في مراكش، وهو الذي كشف في عام ١٩٨٦م البرنامج النووي الإسرائيلي مؤكداً الشكوك بإمتلاك إسرائيل ترسانة نووية، فقام الموساد باختطافه من روما وتخديره ونقله إلى السجن في إسرائيل.

ينتمي اليهود المغاربة، عادة، إلى الأحزاب اليمينية، لذا فإن بنيامين نتنياهو وغيره من زعماء اليمين يحاولون استرضاءهم لأهمية أصواتهم في الانتخابات. وعندما شكل نتنياهو حكومته الأخيرة مع بيني غانتس، والتي تعتبر اكبر حكومة في إسرائيل منذ قيامها، اختار ١٠ وزراء من أصل مغربي بالإضافة إلى رئيس الكنيست وهم:

وزير الداخلية آرييه مخلوف درعي، وُلد في مدينة مكناس المغربية عام ١٩٥٩، وظهر على الساحة العامة لأول مرّة حينما تولى منصب مدير عام وزارة الداخلية في عام ١٩٨٦ وكان يبلغ حينها من العمر ٢٦ عاما. وسرعان ما أصبح القائد الفعلي لحركة «شاس» سياسياً، بفعل نشاطه وقربه من زعيمها الروحي، آنذاك، الحاخام عوفاديا يوسف. وفي الانتخابات الإسرائيلية للعام ١٩٩٩، قاد درعي، الذي كان وزيراً للداخلية، حزبه وفاز بـ ١٧ مقعداً، إلا أنه استقال فور ظهور النتائج من عضوية الكنيست بسبب ملاحقات قضائية. واستكملت الشرطة التحقيقات

معه في واحدة من أكبر قضايا الفساد في إسرائيل وقبع في السجن لأكثر من عامين، كما كان عليه البقاء خارج الحلبة السياسية لمدة عشر سنوات، من يوم صدور الحكم، بموجب قانون قائم. وعندها حل محله إيلي يشاي، إلا أن درعي عاد إلى قيادة الحزب من جديد بعد غياب استمر ١٢ عاماً. بعد كل انتخابات إسرائيلية، بات من المألوف أن يتسلم درعي منصب وزير الداخلية. وهو منصب مهم بالنسبة للمتدينين لأنه يتيح السيطرة على ميزانية البلديات، فيما شغل وزير الأمن الداخلي أمير أوحانا، وقد غادر الجيش وتفرغ للعمل السياسي في حزب الليكود. أما وزير الاتصال بين الحكومة والكنيست دافيد أمسالم: ولد لأبويين مغربيين عام ١٩٦٠ في القدس، وهو نائب من حزب الليكود وأحد المقربين من بنيامين نتنياهو، يسكن في مستوطنة «معاليه أدوميم»، التي أقيمت على أراضي الفلسطينيين، وهي أكبر مستوطنة في منطقة القدس. أما وزيرة المواصلات والبنى التحتية ميري ريغيف، وُلدت عام ١٩٦٥ في كريات غات جنوب إسرائيل والملاصقة لقرية الفالوجة الفلسطينية، من أب مغربي وأم إسبانية. وصلت إلى الكنيست لأول مرة في انتخابات العام ٢٠٠٩ وفازت لاحقاً في جميع الانتخابات. وهي تعتبر من أنصار الجناح الأكثر تطرفاً في حزب الليكود. وتسكن حاليا في مستوطنة «روش هعاين» بالقرب من تل أبيب، وهي مستوطنة أقيمت على أراضي القرية الفلسطينية مجدل الصادق، ومعظم القاطنين فيها من يهود اليمن.

أورلي ليفي أبي قسيس وزيرة تعزيز المجتمع: وُلِدَت أورلي ليفي في مستوطنة بيت شان المقامة على أراضي مدينة (بيسان) عام ١٩٧٣، وهي ابنة عضو الكنيست والوزير الأسبق دافيد ليفي. وكانت قد التحقت بسلاح الجو، وتعمل حالياً كإعلامية وتم انتخابها لأول مرة عضوًا في انتخابات الكنيست الثامنة عشرة ممثلة عن حزب إسرائيل بيتنا. وكانت ليفي قد انشقت عن تحالف "العمل- غيشر- ميرتس" المنحل، وهناك من اتهمها بسرقة أصوات اليسار لتنضم إلى الأحزاب اليمينية بقيادة بنيامين نتنياهو.

عمير بيرتس وزير الاقتصاد والصناعة: ولد في مدينة أبي الجعد بالمغرب عام ١٩٥٢ لأسرة متواضعة ونشأ في أحياء الفقر الإسرائيلية وعانى مع أبناء بيئته الشرقية من تمييز اليهود

الغربيين، الأشكناز، ضدهم. ظهر فجأة على الحلبة السياسية وحطم رموزًا أشكنازية في السلطة الإسرائيلية ووصل إلى الكنيست لأول مرة بعد انتخابات ١٩٨٨ عن حزب «العمل». وكان قبل ذلك، من العام ١٩٨٣ حتى العام ١٩٨٨، رئيسا لبلدية سديروت القريبة من غزة. ثم صار رئيساً للهستدروت (الاتحاد العام لنقابات العمال الإسرائيلية). شغل منصب وزير الدفاع ونائب رئيس الوزراء بين ٢٠٠٦-٢٠٠٧، كما كان وزيراً لحماية البيئة. عاد بيرتس لحزب العمل وفاز في انتخابات داخلية في يوليو/تموز من العام الماضي، وانتخب رئيساً له مجدداً، وفي مطلع شهر أغسطس/آب ٢٠١٩ شكل تحالفاً مع حزبي جسر وميرتس. وقبل الانتخابات الأخيرة، شكك البعض في أنه سينضم إلى نتنياهو في حال قام الأخير بتشكيل الحكومة.

ميراف كوهين وزيرة المساواة الاجتماعية: ولدت في القدس عام ١٩٨٣ من أبويين مغربيين وترعرعت في القدس وتعلمت في مدرسة «هارئيل» في بلدة «مفسيريت تسيون». أما خدمتها العسكرية فقد أدتها في محطة الراديو التابعة للجيش الإسرائيلي. وفي البداية خدمت كمنتجة ومحررة في قسم العمليات في الراديو، ثم الناطقة باسم مكتب رئيس الحكومة للشؤون الاقتصادية والاجتماعية، في عهد أرييل شارون. وهي حاليًا عضو في الكنيست عن حزب «أزرق أبيض» بزعامة بيني غانتس. ميخائيل بيتون وزير الشوون المدنية في وزارة الدفاع: ولد في يروحام في صحراء النقب عام ١٩٨٣ من أبوين مغربيين، حصل على الماستر من الجامعة العبرية في القدس،وانضم الى حزب «أزرق أبيض». ميكي زوهر مخلوف ممثل الائتلاف في البرلمان: ولد عام ١٩٨٠ في مدينة بئر السبع. وكان بين عامي ٢٠٠٨ ـ ٢٠١٣ عضواً في المجلس البلدي لمدينة كريات غات. وبين عامي ٢٠١٣ ـ ٢٠١٥ شغل منصب نائب رئيس بالبلدية. وهو رئيس مجموعة الصداقة البرلمانية بين إسرائيل وأوزباكستان. متزوج وأب لأربعة أبناء ويقيم في كريات غات، جنوب البلاد.

رفائيل(رافي) بيرتس وزير شؤون القدس والتراث: ولد في عام ١٩٥٦ لأبوين من أصول مغربية عُرِفَ عنهما التشدد والتدين، لذلك قاما بتعليم أبنائهما في المدارس الدينية. تخرج رافي من الكلية الدينية «بن دافيد» ثم خدم في الجيش والتحق بسلاح الجو الإسرائيلي وتدرج في الرُتب

حتى وصل إلى رتبة عميد، وتولى أيضًا- منصب الحاخام الرئيسي في الجيش عام ٢٠١٠. أدى تعيينه في هذا المنصب إلى عاصفة من الانتقادات والغضب، وذلك لحادثة وقعت له في الخدمة حيث تسبب إهماله في مقتل العديد من الجنود في وحدة الإنقاذ أثناء تنفيذهم لمهمة تدريب روتينية. وبعد خروجه من الخدمة عام ٢٠١٠ بدأ مسيرته المهنية ودخل المعترك السياسي وحارب للوصول إلى الكنيست. وهو قد نجح بالفعل وحصل على مقعد، وتم انتخابه - أيضًا- لمنصب رئيس حزب البيت اليهودي. ويذكر أن المغاربة في إسرائيل يحتفلون بعيد الميمونة الذي يحلّ بعد الفصح اليهودي والعودة إلى تناول الخبز المُخمّر. وهو تقليد جاؤوا به معهم من بلدهم الأصلي.

امنون إسحاق، حاخام حريدي ولد لعائلة يهودية يمنية إلا أنه إلتزم خطه الموصوف بالمتشدد في سن الرابعة والعشرين وله عدة مواقف معارضة للصهيونية مثل كثير من الحريديم ولكنه عمل ان تكون إسرائيل أكثر تديناً. براخا قافية حاخامة يمنية وزوجة الحاخام يوسف قافية وحصلت على جائزة إسرائيل لعملها الخيري لليهود خاصة في القدس. ايجال عامير، وهو قاتل رابين، يهودي يمني متطرف، مستوطن يتبع الأحزاب الدينية المتطرفة، وقتل رابين بسبب مرونته في التفاوض مع الفلسطينيين وإقامة دولة فلسطينية وهو ما يعتبروه ضد التوراة التي تعتبر أن هذه دولة أرض كنعان هي ملك اليهود، وهذه الحادثة غيرت مسار السلام.

اما من يهود العراق فكان الأبرز تطرفاً، عوفاديا يوسف حاخام اليهود الشرقيين في إسرائيل، والزعيم الروحي لحزب شاس لليهود الأرثوذكس، وهو من مواليد ١٩٢٠ في البصرة في العراق. وبنيامين بن إليعازر وزير الدفاع الإسرائيلي السابق، واسحاق موردخاي وزير دفاع إسرائيلي سابق. فيما برز مناحيم دانيال قبلهم حيث كان عضوا في مجلس الأعيان في العهد الملكي، وتوفي عام١٩٤٠ م. وأبنه عزرا مناحيم عين كذلك عضوا في مجلس الأعيان. ومن تونس ظهر اسم سلفان شالوم وزير خارجية إسرائيل السابق، الذي لعب دوراً كبيراً في تسويق سياسة إسرائيل الخارجية.

كل ما سبق هي نماذج حية على تغير الفكر اليهودي العربي مع مر الزمن والعوامل السياسية

المصاحبة، لما لا اذا كانت قيادات عربية بدأت تغير موقفها اتجاه إسرائيل، مع أن اليهود العرب كانوا ضد الصهيونية كحركة استعمارية وكانوا ينأون بأنفسهم عنها قبل اقحامهم بها وحياتهم المستقرة في البلاد العربية قبل ان يرحلوا إلى إسرائيل الا أن الأفكار والمبادئ والمنطلقات والمصالح تغيرت ليس لديهم فقط بل حتى العالم الغربي وصولاً إلى العالم العربي الذي بات أقرب إلى إسرائيل من دول أخرى، وبالتالي حتى المواقف اتجاه القضية الفلسطينية وقيام دولة فلسطينية لدى اليهود العرب ليست ثابتة فالمتردد قد يكون حسم امره خاصة بعد انتقاله لإسرائيل وانحيازه للمشروع الصهيوني وقد يكون تقربا من أصحاب القرار او للوصول لمناصب حكومية رفيعة، ومواقف أخرى مناوئة وقد تكون مرتبطة باليسارية للسياسة الاسرائيلية، ومواقف أخرى متذبذبة اتجاه الدولة الفلسطينية لليهود العرب في الخارج، باعتبار ان ذلك لا يعنيهم كونهم ليسوا في إسرائيل ومنهم المنحاز للفكرة الاسرائيلية دون الخوض بها، ومنهم الرافض للمشروع الصهيوني لذلك وجوده في الخارج، ومنهم من يعيشون عقدة الهجرة الى إسرائيل بسبب قيامها، والقبول بالامر الواقع بعد كل هذه السنوات والتعايش معه.

***اليهود العرب والحنين إلى الماضي في ظل التطبيع:**

ومهما اختلف اليهود العرب إلا أنهم يجتمعون على شيء مشترك وهو الحنين لاوطانهم الاصلية التي مهما حاولت إسرائيل تذويبها إلا أنها مازالت تعيش في عاداتهم وتقاليدهم، وهنا السؤال كيف سيكون شكل اليهود العرب بعد سنوات، ومصير الاجيال اللاحقة التي ولدت لاباء وامهات عرب في فلسطين. تحول عشرات الالاف من اليهود العرب إلى اسرائيليين منهم من تولى مناصب مهمة مع الاحتلال وغدا صهيونياً عدواً، ومنهم من انكمش واختفى ذاب فيما يسمى الدولة الإسرائيلية واخرون هاجروا إلى أوروبا وأميركا رافضين ارض الميعاد بعدما اكتشفوا أنها وهم .

في السنوات القريبة السابقة بدأت تخرج أصوات من إسرائيل ومن الجالية اليهودية في أميركا بضرورة تعويض اليهود العرب عن ممتلكاتهم وتحميل الدول العربية مسؤولية خروجهم، بل ليكون ذلك بداية انتزاع اعتراف عربي بأنهم السبب في تهجير يهود البلاد العربية، وجاء هذا

الطرح بقوة في (مؤتمر انابوليس ٢٠٠٧)، مع ان كل الدلائل والدراسات التاريخية تؤكد ان الوكالية اليهودية هي التي أشرفت على هجرتهم فيما عملت الصهيونية على ضرب مصالح يهودية في بعض البلاد العربية لاجبارهم على الخروج، المهم ان هذا الطرح كانت تهدف منه إسرائيل، نقطتين رئيسيتين، الأولى أن تعتبر اليهود العرب لاجئين مهجرين من ديارهم، وان تطالب الدول العربية بتعويضهم عن ذلك كنوع من الابتزاز وتمهيداً لشطب حق العودة للفلسطينيين الذين هجروا من ديارهم، النقطة الثانية هي ابتزاز الدول العربية من قبل الولايات المتحدة الأميركية واستعمال المطلب كورقة لاحقة تفضي للتطبيع الذي يتسابق له العرب اليوم. وبكل الأحوال فان القيادة السياسية الإسرائيلية استغلت اليهود العرب تاريخياً سواءً في تأسيس دولتها على الأراضي المحتلة، أو حتى في علاقاتها مع العرب رغم انهم مازالوا يعانون التمييز والاضطهاد في إسرائيل . وحتى لو ان اليهود العرب الان ليسوا الاقرب من الاشكناز للتطبيع العربي، وهم (اليهود الغربيون) الاغلبية الحاكمة للقرار في إسرائيل، فإن الاخيرة بكل مكوناتها لن تدّخر جهداً في استغلال اليهود العرب جسراً نحو العرب سواء كعصا أو جزرة، أو كعلاقة تاريخية بينهم تستغل فيها الرواية الانسانية واستحضار الماضي، وقد ظهرت مؤخرا روايات ومسلسلات وافلام وثائقية تتغنى بالعلاقة اليهودية بالعرب، وحنين بعضهم لبلدهم المنشأ، ورحلة البحث عن بيوتهم القديمة، ويمكن ان تكون المغرب الاكثر انفتاحاً على اليهود في هذا الموضوع، باعتبارهم شكلوا الجالية الاكبر نسبة للدول العربية الاخرى. بالنتيجة يهود عرب الامس، ليسوا يهود عرب اليوم، كما عرب الامس ليسوا عرب اليوم، وإسرائيل الامس لم تعد إسرائيل اليوم، الا أن الحقيقة الثابتة أنها ستبقى دولة الاحتلال مهما حاول التطبيع تجميل ذلك.

مراجع:

١ـ أنور زناتي، يهود البلاد العربية، المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، العدد ٤٣٣، مارس ٢٠١٥م.
٢ـ خيرية قاسمية، يهود البلاد العربية، دراسات فلسطينية ٨٢، مركز أبحاث م.ت.ف، بيروت، ١٩٧١م.
٣ـ عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية،٤ج، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٩م.
٤ـ مناحيم كلاين، اليهود العرب في فلسطين، قضايا إسرائيلية، مدار، رام الله، العدد ٥٧، ٢٠١٥م.
٥ـ وهيب أبو واصل، ثلث وزراء إسرائيل من أصل مغربي، مونت كارلو الدولية، باريس، ٢٠٢٠/٧/٣م.

قراءة في المشهد الاسرائيلي
بعد الانتخابات الرابعة

الانتخابات الرابعة.. إسرائيل هي اليمين للعديد من السنين

نظير مجلي*

الانتخابات الرابعة، التي جرت في إسرائيل في أواخر آذار ٢٠٢١، وبغض النظر عن شكل الحكومة التي ستسفر عنها، حسمت حقيقة راسخة: ليس فقط ذاهبة الى اليمين ويمين اليمين، بل ستبقى في معسكر اليمين للعديد من السنين. ويمكن الحديث عن انعطاف في الواقع السياسي الإسرائيلي، على معظم الصعد. إنه يشبه ما حدث في سنة ١٩٧٧، عندما انتصر اليمين لأول مرة وفاز بالحكم. وهذا التغير يخلق واقعا جديدا ويفرض تحديات مختلفة ويتطلب تعاطيا مغايرا معها، يختلف عن التعامل التقليدي.

فمن يقرأ تفاصيل نتائج الانتخابات وما يختفي وراءها من ظروف وأسباب، ويحاول معرفة طبيعة المعركة الانتخابية وصراعات القوى التي أفرزتها، يجد في الانتخابات الرابعة تحولات ذات دلالة، نلخصها فيما يلي:

أولا: تراجع نتنياهو وتقدم درامي لليمين

أظهرت النتائج أن تأييد نتنياهو تراجع إلى الحد الأدنى في الانتخابات الرابعة. فبالرغم من الإنجازات التي حققها في المجال السياسي، بتوقيع أربع اتفاقيات سلام وتطبيع مع أربع دول عربية (الامارات والبحرين والسودان والمغرب)، وبالرغم من نجاحه في توفير تطعيم ضد

* باحث في الشؤون الإسرائيلية.

كورونا لأكثر من نصف السكان، وبالرغم من نجاحه في تمزيق حزب الجنرالات وتفكيك عدة أحزاب لخصومه، بما في ذلك «القائمة المشتركة» للأحزاب العربية، وبالرغم من غياب منافس جدي له في الأحزاب الأخرى، حصل في الانتخابات الأخيرة على ٣٠ مقعدا. صحيح انه بقي الحزب الأكبر، ولكنه من ٣٥ مقعدا في انتخابات نيسان ٢٠١٩ و٣٣ مقعداً في انتخابات أيلول ٢٠١٩ و٣٦ في انتخابات آذار ٢٠٢٠، هبط إلى ٣٠ مقعدا في آذار ٢٠٢١. وبالمقارنة مع الانتخابات السابقة في ٢٠٢٠، خسر حوالي ٢٨٩ ألف صوت (من مليون و٣٥٢ الفا إلى مليون و٦٣ الفا)، ولم يعد يتمتع بسحر يجذب الجمهور (١).

ودلت النتائج على أن الجمهور محبط من تكرار الانتخابات، ونسبة التصويت تراجعت من ٧٢٪ في انتخابات ٢٠٢٠ إلى ٦٧٪ هذه المرة. وقال ٨٠٪ من المواطنين إنهم غير راضين عن نتائج الانتخابات. ومع ان نتنياهو ليس مسؤولا وحيدا عن هذا الإحباط في نظر الجمهور، إلا انه يتحمل مسؤولية أساسية عنه (٢).

والمعسكر الذي يؤيد نتنياهو، ووقف وراءه في تكتل مخلص أحرز نفس النتائج التي حققها في انتخابات ٢٠٢٠، ما مجموعه ٥٢ مقعدا، مع انه في هذه المرة منع ضياع أصوات يمينية. فقد عمل بشكل حثيث على توحيد صفوف اليمين المتطرف في إطار قائمة «الصهيونية الدينية» برئاسة بتسلئيل سموترتش، وشمل فيها حزب «جبروت يهودي»، وهو المنحدر من حزب كهانا الفاشي والارهابي بقيادة ايتمار بن غبير. وراح نتنياهو يلتقي المستوطنين ويحثهم على التصويت لحزب الليكود أو للصهيونية الدينية – «نحن في خندق واحد»، قال لهم. وحصلت هذه القائمة على ٦ مقاعد بشكل مستقل وعلى مقعد سابع هدية من نتنياهو، حيث أنه أدرج أحد قادتها في مكان مضمون في قائمة الليكود. واثار هذا التصرف تذمرا داخل الليكود، إذ أنه تسبب في سقوط ٧ نواب من الحزب لم ينتخبوا للكنيست، لكن أحدا لا يجرؤ على الاعتراض أو الاحتجاج داخل هذا الحزب.

بيد انه وبالمقابل، ارتفعت قوة اليمين بشكل درامي في هذه الانتخابات، من ٦٥ الى ٧٣ نائبا: الليكود ٣٠ وشاس لليهود الشرقيين المتدينين برئاسة أريه درعي على ٩ مقاعد (٣١٦

ألف صوت)، حزب اليهود الغربيين المتدينين «يهدوت هتوراة» برئاسة موشيه غفني على ٧ مقاعد (٢٤٨ ألف صوت) والقائمة الصهيونية الدينية برئاسة بتسلئيل سموترتش على ٦ مقاعد (٢٢٥ ألفا). وتضاف إليهم أحزاب يمينية أخرى هي: اتحاد أحزاب اليمين «يمينا» برئاسة نفتالي بنيت ٧ مقاعد (٢٧٣ ألفا)، وحزب اليهود الروس «يسرائيل بيتينو» برئاسة أفيغدور ليبرمان ٧ مقاعد (٢٤٨ ألفا) وحزب «تكفا حدشا» (أمل جديد) برئاسة غدعون ساعر ٦ مقاعد (٢٠٩ آلاف).

وهكذا، يكون عدد الناخبين لليمين، قد قفز من مليونين و٤٨٣ ألف صوت الى مليونين و٥٧٩ ألف صوت، وذلك بالرغم من ان نسبة التصويت انخفضت بخمس نقاط. وهذا يعني ان ما يزيد عن ٢٢٠ ألف ناخب تخلوا عن دعم أحزاب في الوسط واليسار، وانتقلوا الى دعم أحزاب اليمين، في هذه الانتخابات. ٩٦ ألفا هو الفارق بين عدد الأصوات المجرد و١٣٤ الفا هم ما يعادل انخفاض نسبة التصويت بـ ٥٪.

والتفسير لذلك هو ان قسما من الأصوات العائمة (٣)، التي تشكل عادة ربع عدد المصوتين، رأوا أن الأحزاب التي تطرح نفسها بديلا عن نتنياهو ليست ذات حظوظ حقيقية، فاختارت التصويت لليمين على أمل أن يقدم هو على تغيير نتنياهو. ومع ان هذا التصرف يعتبر مؤقتا، إلا أنه ينسجم مع نهج متواصل ويزداد حدة من سنة لأخرى، نحو اليمين والمزيد من اليمين في الخريطة الحزبية الاسرائيلية.

ثانيا: هزيمة الجنرالات

في نهاية العام ٢٠١٨، استبشر الإسرائيليون «خيرا»، في نشوء حزب جديد، يدعى «حوسن ليسرائيل» (حصانة لإسرائيل) بقيادة رئيس اركان الجيش الأسبق بيني غانتس، ومشاركة رئيس أركان آخر هو غابي اشكنازي وعدد آخر من الجنرالات الذين يحملون رتبة «لواء» من خدمتهم في الجيش أو الشرطة أو المخابرات او مصلحة السجون، إضافة إلى عدد من كبار المسؤولين السابقين في الدولة العميقة، الاقتصاد والعلوم والتكنولوجيا. وقد عرف هذا

بحزب الجنرالات. وطرح نفسه كحزب بديل عن السلطة، الذي جاء ليطيح بنتنياهو.

من ناحية الجمهور، بنى هذا الحزب أملا حقيقيا للتغيير، خصوص بعدما أقام تحالفا مع حزب «تيلم» بقيادة الجنرال موشيه يعلون، وهو رئيس اركان سابق أيضا وخدم كوزير دفاع في حكومة نتنياهو. ثم انضم الى هذا التحالف حزب «يش عتيد» (يوجد مستقبل) بقياد النجم التلفزيوني والكاتب يائير لبيد. وأصبح حزبا بديلا بشكل حقيقي للسلطة.

ولكن، من ناحية موضوعية، كان هذا حزب جنرالات بمفهوم أعمق. فقد عبر وبشكل مباشر عن مصلحة المؤسسة الأمنية الإسرائيلية، التي رأت في حكم نتنياهو خطرا يهدد المصالح الاستراتيجية العليا للدولة. فهذه المؤسسة، ومنذ بداية حكم نتنياهو في سنة ٢٠٠٩، دخلت في صدام معه في عدة مواضيع، في مقدمتها الموضوع الايراني. وعندها ضم نتنياهو اليه ايهود باراك، الذي يعتبر في إسرائيل أهم شخصية امنية ويحمل أكبر عدد من الأوسمة العسكرية. وقد حاولا معا الدفع نحو حرب مع إيران ورصدا للجيش مبلغ ١١ مليار شيكل لهذا الغرض (٤). وقد أقام رؤساء المؤسسة الأمنية جبهة ضد نتنياهو وباراك، واعرضوا عن نيتهما شن الحرب. وضمت هذه الجبهة كلا من رئيس اركان الجيش، غابي اشكنازي، (وفيما بعد خليفته بيني غانتس)، ورئيس المخابرات الخارجية (الموساد)، مئير دغان (وفيما بعد خليفته تمير بدرو)، ورئيس «جهاز الأمن العام» (الشاباك)، يوفال ديسكين (وفيما بعد خليفته يورام كوهن)، ورئيس شعبة الاستخبارات العسكرية «أمان»، أفيف كوخافي (الذي يتولى رئاسة الأركان اليوم، وقد غير موقفه وأصبح أقل معارضة للحرب مع إيران ويطلب من الحكومة رصد ميزانيات كافية للتسلح لهذه الغاية). وامتنعوا عن التقليد المتبع لديهم بشن حرب مرة كل ٣-٤ سنوات، بالرغم من ان الحرب بالنسبة لهم «ضرورية لتجريب الأسلحة الجديدة، حيث انهم يرون ان بيع أسلحة مجربة هو سحر لإقناع المشترين، وضرورة لتدريبات الجنود». وها نحن ندخل العام السابع بعد حرب ٢٠١٤ على غزة من دون حرب. والسبب أن الجنرالات يخشون ان يستغل نتنياهو الحرب ويجيرها لمعركته في القضاء لمواجهة تهم الفساد.

وفي حينه اختلف الجنرالات قادة المؤسسة الأمنية مع نتنياهو أيضا حول الموضوع الفلسطيني وطالبوه بان لا يطفئ جذوة المفاوضات ورفضوا الادعاء بأن الرئيس الفلسطيني محمود عباس «غير شريك في عملية السلام» وحذروا من انفجار امني. واعترضوا على خلافاته مع إدارة الرئيس باراك أوباما وتحفظوا من إجراءات الرئيس دونالد ترمب، الذي منح نتنياهو كل مطالبه.

وتحولت الخلافات الى غضب عليه، عندما بدأ هناك نهج جديد في الخطاب السياسي لليمين الإسرائيلي، ضد الجيش. فقد بدأت تظهر مقالات ودراسات في وسائل الاعلام تطعن في قدرات الجيش وطرق عمله وإدارته. ونشرت هذه المواد بشكل منهجي في الصحف اليمينية «يسرائيل هيوم»، التي تعتبر ناطقة بلسان نتنياهو، و»جروزلم بوست»، و»القناة ٢٠» للتلفزيون، وموقع «ميدا» للتحقيقات السياسية، والمركز الأورشليمي لشؤون السياسة والدولة، وغيرها. وقد بدأت شعبية الجيش تنخفض في الشارع، من ٩٤٪ إلى ٧٦٪ (٥).

لذلك، فإن تجمع ١١ شخصية عسكرية وامنية سابقة في حزب واحد، كان بمثابة إشارة بأن الجنرالات قرروا أن يفعلوا شيئا لتغيير الحكم. وفي الحلقات الداخلية لأحزاب اليمين اعتبروا ذلك «محاولة انقلاب عسكري أبيض». لكن هذا الحزب نجح في استقطاب قوى جماهيرية واسعة. وعندما تحالف مع حزب «يوجد مستقبل» بقيادة يائير لبيد، وأسموه «حزب كحول لفان» (أي أزرق أبيض، لوني العلم الاسرائيلي)، أصبحوا يشكلون حزبا بديلا يهدد لأول مرة مكانة وحكم نتنياهو بشكل حقيقي. وقد كان جمهور الناخبين الاسرائيليين كريما جدا معهم، فمنحهم في انتخابات نيسان ٢٠١٩، ٣٥ مقعدا تماما مثل الليكود، ولكنهم لم يعرفوا كيف يستغلون الفرصة ويسقطون نتنياهو. وتمت إعادة الانتخابات ثانية وثالثة وحصل على ٣٣ ثم ٣٢ مقعدا. في أعقاب الانتخابات الثالثة والرابعة، كان بمقدور غانتس تشكيل حكومة برئاسته، لولا الموقف العنصري الذي ساد الحلبة الحزبية بالامتناع عن التحالف مع ممثلي المواطنين العرب في «القائمة المشتركة». فقد كان بحوزة «كحول لفان» برئاسة غانتس ٥١ نائبا (٣٢ نائبا له و٨ لحزب أفيغدور ليبرمان و٦ نواب للعمل و٥ نواب لميرتس) ولديه ١٣

نائبا للقائمة المشتركة برئاسة النائب ايمن عودة. وفي الانتخابات الرابعة هبط رصيد الأحزاب في هذا المعسكر الى ٤٧ نائبا (غانتس ٣٣ ولكل من العمل وليبرمان ٧ نواب) ولديه فرصة للتحالف مرة أخرى مع «القائمة المشتركة» التي قفزت يومها الى ١٥ مقعدا. لكنه امتنع عن ذلك.

لقد ارتكب حزب الجنرالات خطأ عمره بإضاعة هذه الفرصة. ووقع في حبائل بنيامين نتنياهو، وانضم الى ائتلافه اليميني. في الانتخابات الثلاث بدا غانتس في أوْج قوته. إذ قدّم نفسه بديلاً من نتنياهو، الذي اعتبره فاسداً لا يحق له البقاء في منصبه. وتوجّه بخطابه إلى جمهور الناخبين من اليسار ويسار الوسط وذوي الميول اليمينية الذين يأملون إنهاء حكم نتنياهو. ولكن سحره الأساسي لدى الجمهور نبع من انتمائه الى حزب الجنرالات، إلى الجيش والمخابرات. بفضل الثقة الواسعة والعميقة للمؤسسة الأمنية، حصل غانتس على هذا الدعم الهائل.

إلا أن قادة هذا الحزب لم يستفيدوا من هذا الانتماء لإحداث تغيير في الفكر أو التوجه السياسي في الشارع الإسرائيلي. فمع أنهم حاربوا نتنياهو بسبب مساسه وإضراره بالمصالح الاستراتيجية، لم يطرحوا بديلا سياسيا واستراتيجيا يوضح الفرق بينهم وبينه. لقد تموضع غانتس في وسط الخريطة الحزبية بين معسكر «الوسط-اليسار» ومعسكر اليمين، إلا أنه في الواقع لم يقدم طرحاً إيديولوجياً جديداً. وعندما أعلن غانتس عن برنامجه الانتخابي لم يكن مختلفاً في جوهره عن توجهات «الليكود»، ليتبيّن أن هدف غانتس هو إسقاط نتنياهو وليس مشروعه السياسي. فقد ركّز برنامج «كحول لفان» الانتخابي على أن «إسرائيل هي الوطن القومي للشعب اليهودي»، وتعهّد بتعزيز الكتل الاستيطانية، ومعارضة إقامة «دولة فلسطينية»، ورفض أي انسحاب أحادي الجانب، وأكد أنه يتمسك بإبقاء منطقة غور الأردن «الحدود الأمنية الشرقية لإسرائيل»، وشدّد على أن «القدس موحّدة عاصمة أبدية لإسرائيل»، وأن «الجولان جزء لا يتجزأ من إسرائيل»، مؤكداً أنه في أي تسوية مع الفلسطينيين لن تكون هناك مساومة على مصالح إسرائيل الأمنية. وتطرّق البرنامج إلى إيران

بوصفها «خطراً يهدد إسرائيل»، خاصة لدعمها حزب الله في لبنان وحركتَي حماس والجهاد الإسلامي في قطاع غزة. ودعا إلى عقد مؤتمر إقليمي مع الدول العربية الحليفة لمواجهة إيران والحفاظ على المصالح الأمنية الإسرائيلية.

وتعهد بأن لا يقيم حكومة مع نتنياهو أو مع العرب. ومع برنامج كهذا، صارت المعركة الانتخابية ذات طابع شخصنة، مع نتنياهو او ضد نتنياهو. ومع ظهور نتائج الانتخابات، تمكن نتنياهو من تشكيل كتلة يمين متماسكة إلى جانبه. وبات حزب الجنرالات أمام أحد خيارين: إما ان يتراجع عن تعهداته وينضم الى نتنياهو وإما ان يتراجع عن تعهده العنصري ويقيم حكومة تستند الى دعم ما من «القائمة المشتركة». وقد اختار الانضمام الى نتنياهو. وتسبب ذلك في تفكيك تحالف غانتس مع حزبي يائير لبيد وموشيه يعلون. ومن يومها وهو كيس خبطات من نتنياهو.

وبات أسوأ ممثل للجيش، في الوعي الجماهيري: جنرال في الحرب وجندي نفر فاشل في السياسة. والأسوأ، بالنسبة للمؤسسة العسكرية، صار غانتس رمزا لهزيمة المؤسسة العسكرية. وقد ترك الأمر اثرا بالغا على مكانة هذه المؤسسة في المجتمع الإسرائيلي من جهة وأدى إلى زعزعة ثقتها بنفسها أمام هذا المجتمع. ودخلت في خانة الدفاع عن النفس في مواجهة «مؤسسة نتنياهو» المخضبة بالفساد.

وقد حاولت المؤسسة ترميم مكانتها بتفعيل الجنرالات السابقين، الذين هبوا لنجدتها في الانتخابات الرابعة. وتمكنوا من انقاذ حزب الجنرالات من السقوط، حيث حظي بثمانية مقاعد بعد ان كانت الاستطلاعات قد أظهرت احتمال عدم تجاوزه نسبة الحسم.

وفي الوقت نفسه، راحت هذه المؤسسة تبحث عن وسيلة لوقف حرب نتنياهو عليها وبناء جسور معه. «الموساد» بقيادة يوسي كوهن تحول إلى ذراع بيدي نتنياهو، وليس فقط في توجيه الضربات لإيران، بل أيضا في تقديم خدمات شخصية وسياسية له. يتولى مسؤولية العلاقات مع الدول العربية الأربع، التي وقعت اتفاقيات سلام وتطبيع. ويدير مفاوضات لشراء لقاح ضد كورونا. ويغطي على تجاوزات نتنياهو في شراء غواصات لا يريدها الجيش.

ويدير مفاوضات مع شركات استخراج الغاز من آبار البحر المتوسط. ومجلس الأمن القومي في مكتب رئيس الحكومة، بقيادة مئير بن شبات، يؤدي خدمات في السياسة الداخلية ويتوسط بين نتنياهو وأحزاب وشخصيات سياسية ودينية.

ورئيس أركان الجيش، أفيف كوخافي، يغير موقف الجيش من الموضوع الإيراني ويتولى مهمة تهديد إيران ويعلن عن خطة عسكرية للحرب. وبعد سبع سنوات من الامتناع عن الحرب، يدير كوخافي سلسلة مناورات استعدادا للحرب، «على عدة جبهات في آن»، ويقصد جبهات الشمال ضد سوريا وحزب الله وقطاع غزة وحتى الضفة الغربية. ولم يستبعد المراقبون أن تشن حرب أو حروب لخدمة أغراض نتنياهو. وقد عبر الجنرال يائير غولان، نائب رئيس أركان الجيش الأسبق، عن احتمال أن يقدم نتنياهو على شن حرب تساعده في معركته للتهرب من المحاكمة (٥).

ثالثا: مكانة العرب

بالرغم من تراجع تمثيل المواطنين العرب (فلسطينيي ٤٨) في الكنيست، من ١٥ إلى ١٠ مقاعد، وبغض النظر عن النقاش حول طريقة عملهم ومضامين طروحاتهم، ويوجد نقاش كبير حول الأمر، فإن الانتخابات الأخيرة أسفرت عن ارتفاع مكانتهم في الحلبة السياسية الاسرائيلية. وقرار الحركة الإسلامية بقيادة النائب منصور عباس الاستعداد للتحالف مع نتنياهو، جعلهم لسان الميزان في بعض الحسابات لتشكيل حكومة. وبغض النظر عن نجاح هذا الطرح او فشله، فإن مجرد طرحهم كقوة سياسية شرعية في الائتلاف الحاكم، هو تطور مهم فرض نقاشات واسعة في المجتمع الإسرائيلي حول مكانة العرب وشرعيتها، التي كان قد نزعها اليمين واليسار على السواء في الماضي، وفتح الباب أمام احتمال تأثيرهم الفعال على السياسة الاسرائيلية.

كما هو معروف فإن فلسطينيي ٤٨ يشكلون نسبة ١٩٪ من السكان في إسرائيل. لكن عدد أصحاب حق الاقتراع من العرب يبلغ أكثر من مليون ناخب، يشكلون نسبة ١٥٪ من مجموع

الناخبين، لأن نسبة الشباب ما دون ١٨ عاما بين صفوفهم اعلى منها بين اليهود. لكن نسبة التصويت عموما تكون لدى العرب منخفضة بشكل ملحوظ عن اليهود، وهذا يخفض من تأثيرهم وتمثيلهم. فلو بلغت نسبة التصويت لديهم مثل اليهود، لاستطاعوا ادخال ١٨ نائبا الى الكنيست. لكن انخفاض نسبة التصويت لديهم بارز جدا (في انتخابات ٢٠١٣ بلغت ٥٤٪ وارتفعت في العام ٢٠١٥ الى ٦٣٪ بسبب توحيد صفوفهم في قائمة مشتركة وانخفضت الى ٤٩٪ في نيسان الماضي بسبب تفكك القائمة المشتركة، وعادت لترتفع الى ٥٩٪ في انتخابات أيلول الماضي بعد إعادة تشكيل القائمة المشتركة ثم ارتفعت الى ٦٤٪ في الانتخابات قبل الأخيرة في آذار ٢٠٢٠، وحصلت القائمة المشتركة على ١٥ مقعدا، ولكنها عادت وتراجعت في آذار ٢٠٢١ بعدما حصل الانشقاق في «القائمة المشتركة» فلم يشارك سوى ٥٠٪ منهم في عملية التصويت.

إن مسألة الوحدة والانشقاق لدى فلسطينيي ٤٨ ليست مجرد إجراء تقني. إنه مرتبط بالمسيرة التاريخية لهذه الشريحة من الشعب الفلسطيني، التي بدأت في العام ١٩٤٨ في عصر النكبة وشهدت تطورات وقفزات ونجاحات واخفاقات عدة. في البداية اختاروا التمسك بالوطن والبقاء فيه بأي ثمن. وكانوا الشريحة الوحيدة تقريبا التي قبلت بقرار تقسيم فلسطين، رغم ما يحتويه من إجحاف لشعبهم. ثم راحوا يكافحون لتعزيز البقاء حتى يواجهوا مخططات الترحيل التي لم تسقط عن طاولة الحكومة الإسرائيلية لعشرات السنين. الحكومات الإسرائيلية الأولى لم تعطهم الجنسية، فخاضوا معارك جماهيرية واقاموا المظاهرات مطالبين بها. حاولت منع تعليم اللغة العربية، فناضلوا للحفاظ على لغتهم وفرضوا تعليمها. وتعرضوا لحكم عسكري ونهب للأرض والحقوق، وفي الوقت ذاته شقوا طريقا راسخا لتحقيق الإنجازات في شتى مجالات الحياة. وحققوا إنجازات هائلة.

في سنة ١٩٩٢، أتيحت لهم ولأول مرة أن يكون لهم شأن في السياسة الإسرائيلية. ومع انهم كانوا ممثلين بخمسة نواب فقط (الجبهة الديمقراطية للسلام والمساواة ٣ والحزب الديمقراطي العربي ٢)، استطاعوا التأثير. ففي حينه كان رئيس الوزراء اسحق رابين وكانت

المنطقة تعيش أجواء مؤتمر مدريد للسلام. وبدأت مفاوضات حول الموضوع الفلسطيني مع وفد أردني فلسطيني مشترك. وقد حارب اليمين الإسرائيلي حتى هذه المفاوضات وسعى إلى إسقاط حكومة رابين. ولكن رابين اتفق مع العرب على تشكيل جسم مانع يضمن لحكومته الاستمرار في الحكم، إذ تعهد النواب العرب بالتصويت ضد نزع الثقة بالحكومة. وكان الشرط لذلك أمران: العمل على تقليص الهوة بين اليهود والعرب في الميزانيات ووقف سياسة التمييز، وبموجب ذلك تم رصد ٥ مليارات شيكل للسلطات المحلية العربية، والتعهد بالتخلي عن معارضة الحكومة للمفاوضات مع منظمة التحرير الفلسطينية وإلغاء القانون الذي سمي «مكافحة الإرهاب» ومنع في حينه أي اتصال لأي مواطن إسرائيلي بمنظمة التحرير (٦). وقد نفذ رابين وعوده. وبدأت محادثات اوسلو السرية بين حكومة إسرائيل ومنظمة التحرير. وعندما انسحب حزب شاس من الحكومة وبقيت مع ٥٦ نائبا (من مجموع ١٢٠)، بقيت الحكومة صامدة بفضل دعم العرب، حتى نهاية دورتها. في حينه تم اغتيال رابين وحل محله شمعون بيرس. وفي انتخابات ١٩٩٦، فاز نتنياهو.

حكم نتنياهو باشر العمل على ابعاد النواب العرب عن أي موقع تأثير. وخرج بنظرية تقول إن القرارات المصيرية للحكومة الإسرائيلية يجب أن تحظى بأكثرية يهودية في الكنيست، حتى لا يؤثر العرب فيها. وفي انتخابات ٢٠١٩ خرج بنداء ملح للناخبين يحذرهم فيه بأن العرب يتدفقون إلى صناديق الاقتراع بحافلات تمولها جهات أجنبية. وفي الانتخابات التالية اتهم العرب بأنهم يزورون الانتخابات وطالب بفرض كاميرات في لجان الصناديق. وعندما حاول غانتس تشكيل حكومة تستند الى أصوات العرب، خرج نتنياهو بحملة يقول فيها إن حزب الجنرالات يستند الى مؤيدي الإرهاب.

وهكذا، نجح في تقويض شرعية التأثير للتمثيل العربي البرلماني. ولكن نتنياهو نفسه أحدث انعطافا حادا في موقفه هذا، عندما شعر بانه سيحتاج الى أصوات العرب لضمان بقائه في الحكم. وأقام علاقات تنسيق وطيدة مع الحركة الإسلامية، وراح يفاوضها على ضمها الى الحكومة أو على الأقل تلقي دعمها من خارج الائتلاف، كما حصل في زمن حكومة رابين.

من جهة الأحزاب العربية لم يكونوا جاهزين لهذا التطور. فهي أحزاب وطنية لديها مواقف راسخة ضد الاحتلال والاستيطان ومن أجل إحقاق الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني في تقرير المصير وتنادي بحل الدولتين على أساس حدود ١٩٦٧ بحيث تكون القدس عاصمة لدولة فلسطين وبتسوية عادلة لقضية اللاجئين. ولديها إصرار على تحقيق المساواة التامة للمواطنين العرب. وهي تعرف ان غالبية أحزاب اليمين ترفض ان يكون العرب شركاء في إدارة شؤون الدولة. وتدرك ان نتنياهو بالذات ليس صادقا في هذا التغيير وان كل ما يريده هو ضمان البقاء على كرسي الحكم حتى يغير القوانين ويجهض محاكمته بتهمة الفساد.

لكن هذا الموقف بدأ يصطدم بموقف آخر عبر عنه الجمهور يطالب الأحزاب العربية بالمشاركة في الائتلاف الحاكم. في استطلاع راي أجراه المعهد الإسرائيلي للديمقراطية سنة ٢٠١٥، قال ٦٠٪ من العرب إنهم يؤيدون انضمام الأحزاب العربية الوطنية الى الائتلاف الحكومي. وفي تشرين الثاني من سنة ٢٠١٧، أعلن النائب أيمن عودة، رئيس «القائمة المشتركة»، أنه في حال فاز حزب العمل بالحكم وقرر مرشحه لرئاسة الحكومة آفي جباي السير على طريق رابين في السلام والديمقراطية والمساواة فإنهم لا يجدون سببا يمنعهم من تشكيل جسم مانع في وجه اليمين، مما جرى في ١٩٩٢. وفي سنة ٢٠٢٠، أعلن عودة استعداد «القائمة المشتركة» دراسة الدخول الى حكومة سلام. وفي انتخابات أيلول ٢٠٢٠ أوصى جميع نواب المشتركة على غانس لتشكيل الحكومة.

على هذه الخلفية خرجت الحركة الإسلامية بمبادرتها الانضمام الى الحكومة، أية حكومة، تحت شعار التأثير. وخطت عدة خطوات بعيدة الى الامام، باتجاه نتنياهو وحكم اليمين. فمع أنها أعلنت انها لن تكون في جيب أحد، لا في اليمين ولا في اليسار، بدا أنها قد اتفقت مع نتنياهو أن تكون معه. وانشقت عن «القائمة المشتركة» قبل الانتخابات ورفضت حتى ابرام اتفاق فائض أصوات معها. وبسبب هذا الموقف خسرت الإسلامية مقعدا خامسا، وحصلت على ٤ نواب.

لقد أغضب الانشقاق الناخبين العرب فامتنع حوالي ١٥٪ عن التصويت، لينضموا الى ٣٥٪

يقاطعون الانتخابات وخفضوا نسبة تأييدهم للأحزاب العربية، من ٨٦٪ في انخابات ٢٠٢٠ إلى ٧٧٪، حصلت منها «المشتركة» (الجبهة الديمقراطية للسلام والمساواة برئاسة ايمن عودة والعربية للتغيير برئاسة احمد الطيبي وحزب التجمع الوطني برئاسة سامي أبو شحادة)، حصلت على ٤٢٪ من الأصوات وتمثلت في ٦ نواب، فيما حصلت القائمة العربية الموحدة (الحركة الإسلامية) برئاسة منصور عباس على ٣٥٪ من الأصوات وتمثلت بأربعة نواب. وهكذا، فقد انخفض تمثيل الأحزاب الوطنية من ١٥ الى ١٠ مقاعد.

لقد أظهرت هذه النتائج ان العرب ليسوا غاضبين فحسب من الانشقاق في القائمة المشتركة، بل أيضا الإعلان انهم يريدون المشاركة في الحياة السياسية الإسرائيلية بشكل فاعل والتأثير على هذه السياسة لصالح حقوقهم واهتماماتهم. وبغض النظر عن مدى النضوج في المجتمع اليهودي إزاء هذه المشاركة وعن الموقف العنصري لدى غالبية المنتخبين، فقد منحوا أصواتهم لفكرة المشاركة.

بالنسبة للمشتركة، تعتبر هذه النتيجة فشلا ذريعا. فهي تضم ثلاثة أحزاب وطنية قديمة (الجبهة والعربية للتغيير والتجمع)، وانضم اليها في اللحظة الأخيرة حزب معا الجديد المتحالف مع الحزب الديمقراطي العربي، بقيادة د. محمد دراوشة. هذه المجموعة من الأحزاب، حاولت الحفاظ على القائمة المشتركة من خلال التأكيد على أهمية الوحدة الوطنية. وكان شعارها الانتخابي هو ان العرب يحققون المكاسب فقط إذا كانوا موحدين وأقوياء. وأكدوا على ان تجربة القائمة المشتركة كانت تجربة ناجحة، لأن جميع النواب (١٥ نائبا) عملوا بنشاط وتعاون واحترام متبادل، وهذا صحيح. وحرصوا على خطاب ايجابي خلال المعركة الانتخابية. وعندما أصرت الإسلامية على الانشقاق، عرضوا عليها الارتباط باتفاق على الشراكة بفائض الأصوات. وعندما رفضت، عرضوا عليها التوقيع على ميثاق شرف. ورفض عرضها.

بالمقابل، الحركة الإسلامية اتخذت من البداية قرارا بفسخ هذه الوحدة وأظهرت موقفا مخالفا مبدئيا. فقالت إن أحزاب المشتركة يضعون شعار اسقاط حكومة نتنياهو، وهم يعتبرون ذلك «وضع أنفسنا في جيب اليسار، الذي طالما اضطهدنا وادار الحروب ضد شعبنا».

وطرحوا بالمقابل شعار: «لسنا في جيب أحد» و»نفاوض المعسكرين ونتخذ قرارنا على مدى تجاوب كل منهما مع مطالبنا». ثم رفعت شعار «نحن محافظون»، في تلميح لرفضهم الموقف الليبرالي من القضايا لاجتماعية. واتخذت خطابا سياسيا سلبيا يهاجم بحدة ويستخدم التكفير. وتعاونت مع الليكود في عدة قرارات برلمانية، ومنعت في مرحلة ما سن قانون ضد تهرب نتنياهو من المحاكمة. فكيف حققت الإسلامية هذا النجاح وفازت بهذا العدد من الأصوات؟

هناك من يرى ان هذا النجاح يعود الى التأييد الأكبر الذي حصلت عليه في منطقة النقب، حيث يوجد في الإسلامية مرشح متقدم من أبناء النقب، هو النائب سعيد الخرومي، بينما المشتركة وضعت مرشح النقب في المكان التاسع، وهناك من يرى أن القضية الطائفية لعبت دورا أساسيا لصالح الإسلامية وهناك من انتقد المشتركة لأنها أدارت معركة انتخابية بخيلة (حد أدنى من المصاريف المالية، مع ان النشاط الانتخابي ممول بسخاء من الحكومة) ومتأخرة (فقط قبل ثلاثة اسابيع نشرت اعلاناتها). وقد تكون هذه كلها أسباب مؤثرة. لكن الأمر الأساس يبقى سياسيا. فقد عكس هذا الفوز موقف المواطنين العرب من السياسة الإسرائيلية. فالعرب يريدون من قيادتهم ان تحاول بجد المشاركة في إدارة شؤون الدولة العبرية حتى لو كان ذلك في إطار ائتلاف حكومي مع اليمين. وقد أعربوا عن هذا الموقف عدة مرات في استطلاعات الرأي العام. وإذا كان يؤيد هذا الموقف ٦٠٪ في سنة ٢٠١٥ فإن النسبة قفزت في آخر استطلاع معمق للمنتدى الإسرائيلي للديمقراطية في كانون الثاني ٢٠٢١، حيث قال ٧٦٪ انهم يؤيدون هذا التوجه (٧).

هذا الأمر لا تقبله القائمة المشتركة. فأحزابها الوطنية تخشى من أن يؤدي ذلك الى انحلال سياسي في الشارع الوطني. ومع ان رئيسها ايمن عودة كان اول من عبر عن رغبة الجمهور في الشراكة وضرورة التجاوب معها، مؤكدا ان هناك حصانة وطنية لدى الجمهور العربي ويجب الحرص على تعزيزها، إلا أن شركاءه في قيادة الجبهة وكذلك حلفاءه من التجمع، كبلوا يديه. فسارعت الحركة الإسلامية الى ملء الفراغ. ولولا خطابها السياسي السلبي والتكفيري لكانت حظيت بأصوات أكثر بكثير.

المغازي

في يوم الخميس، التاسع عشر من سنة ١٩٧٧، اجتمعت هيئة تحرير صحيفة «الاتحاد» الفلسطينية، في مكاتبها على سفوح جبل الكرمل في حيفا، لتقرر خريطة ومضمون العدد القادم. كانت تصدر يومها مرتين في الأسبوع، الثلاثاء والجمعة. وكنا في حالة غليان كالمرجل. ففي مساء يوم الثلاثاء من ذلك الأسبوع، أعلن التلفزيون الإسرائيلي نتائج الانتخابات بكلمة واحدة: «انقلاب». وكان الانقلاب بمثابة انعطاف يمكن وصفه بالتاريخي، في الحياة السياسية. فالمعراخ، حزب العمل اليوم، الذي كان قد أسس الحركة الصهيونية وقاد مؤسساتها بأكثرية مطلقة وأقام جيشها وتولى مسؤولية الحكم فيها منذ قيام الدولة لمدة ٢٩ سنة، قد انهار في تلك الانتخابات. من ٦٢١ ألف صوت تمثلوا بما لا يقل عن ٥١ مقعدا، هبط الى ٤٣١ ألف صوت و٣٢ مقعدا. وفازت المعارضة اليمينية لأول مرة بالحكم، تحت قيادة الليكود الذي عمل تحت قيادة مناحيم بيغن. فارتفع من ٣٩ الى ٤٣ مقعدا، وتمكن من تشكيل ائتلاف من ٧٦ نائبا.

لم نكن نعرف الليكود من خلال التجارب، فهذه أول مرة سيحكم. لكن خطابه السياسي كان متطرفا جدا. في برنامجه السياسي كان يعتبر قرار تقسيم فلسطين غير شرعي ويطالب بإلغائه وضم الأراضي الفلسطينية والعربية المحتلة في العام ١٩٦٧، والاعلان عن حدود اسرائيل ليس فقط على أرض فلسطين الكاملة، بل طالب أيضا بتفكيك المملكة الأردنية وضمها الى إسرائيل، وإعلان القدس الموحدة عاصمة لدولة إسرائيل الكبرى. ودعا الجيش الإسرائيلي الى تصفية منظمة التحرير الفلسطينية والقضاء على وجودها في لبنان. ودعا الى الاستيطان اليهودي الحر في كل بقعة من أرض فلسطين: «لكل يهودي في إسرائيل والعالم الحق في الاستيطان في كل مكان في ارض إسرائيل، في الخليل وبيت لحم ونابلس واي مكان آخر يرغب في العيش فيه، ويحظى بحماية الجيش الإسرائيلي الكاملة» (٨).

واتخذ الليكود موقفا معتدلا من المواطنين العرب في إسرائيل، فلسطينيي ٤٨، يقضي بدمجهم في المجتمع الإسرائيلي والتعامل معهم بمساواة في الحقوق المدنية، علما بأنه كان قد اختلف

مع حكومات حزب العمل التي فرضت على العرب حكما عسكريا منذ ١٩٤٨ وحتى ١٩٦٦، وكان رايه حاسما في إلغاء هذا الحكم العسكري. ولكن الليكود أخرج من صفوفهم ما اسماه «قوى التطرف»، وقصد بذلك الشيوعيين والوطنين الذين قادوا معركة يوم الأرض ٣٠ آذار ١٩٧٦، فطالب بنزع شرعية عملهم السياسي وطرد قادتهم من البلاد.

لذلك، فإن انتصار اليمين بقيادة الليكود بالحكم، كان بمثابة تطور خطير بل رآه كثيرون على انه مخيف. وساد فزع حقيقي في صفوف المواطنين العرب. وكان علينا في هيئة تحرير «الاتحاد» أن نخرج بموقف يتعاطى مع هذه الحالة. وخرجنا بموقف، طرحه الكاتب والمناضل العريق، إميل حبيبي، الذي كان رئيس تحرير الصحيفة آنذاك، واختصره بكلمتين ونصف عنون بهما المقال الافتتاحي للعدد: «يا اهلا بالمعارك». وكان هذا العنوان بداية لتغيير عميق في المعنويات. ودارت فعلا المعارك الكبرى لفلسطينيي ٤٨، على مدار سنوات طوال.

واليوم، بعد نتائج الانتخابات الأخيرة، تقف إسرائيل في محطة تاريخية جديدة تحتاج إلى نفس شبيه تحت عنوان «يا أهلا بالمعارك»، ولكن معارك هذه المرحلة تختلف. فإسرائيل تتجه بانعطاف حاد نحو اليمين أكثر من أي وقت مضى. ولكن العرب يكسبون مكانة شرعية حتى في نظر اليمين. وعلى الرغم من الحسابات الحزبية الضيقة لدى نتنياهو، إلا أن هذه الشرعية تتغلغل في الوعي الجماهيري اليهودي. نتنياهو يتحدث عن شرعية وزير من الحركة الإسلامية في حكومته ولبيد يتحدث عن وزير من الجبهة في حكومته. ووسائل الاعلام الإسرائيلية العبرية، التي كانت تعتمد على «خبراء يهود في الشؤون العربية»، لكي يحللوا الأوضاع لدى العرب صاروا يستضيفون محللين وخبراء عربا. وحزب ميرتس يضع مرشحين عربيين في أول خمسة أماكن في قائمته الانتخابية وهناك جهود متقدمة لتشكيل حزب يهودي عربي بشراكة كاملة.

إن الساحة الإسرائيلية الداخلية مهمة لفلسطينيي ٤٨ ليس فقط في موضوع المساواة، إنها لا تقل أهمية في المعركة من أجل السلام والتخلص من الاحتلال وتسوية قضية الشعب الفلسطيني في تقرير المصير وتحقيق الاستقلال الوطني. والعمل فيها ضرورة حيوية قصوى.

وفلسطينيو ٤٨ هم أهم ركن في هذه المعركة. فإذا توفرت وحدة الصف وتماسكت الأهداف واستخدموا قوتهم، سيكون لهذا النضال شأن كبير. والانتخابات الأخيرة، رغم الانجراف الى اليمين، تزيد من قدرة العرب على التأثير.

الهوامش

(١) نتائج الانتخابات الرسمية كما صدرت عن لجنة الانتخابات المركزية.

(٢) حسب نتائج استطلاع للرأي، أجراه معهد البروفسور كميل فوكس لصالح «القناة ١٣» للتلفزيون الإسرائيلي، التي بثت يوم ٣٠ آذار ٢٠٢١

(٣) الأصوات العائمة هي تلك التي لا يلتزم أصحابها لحزب معين. وهم يقفون عادة وسط الخريطة الحزبية يصوتون وفقا للموقف الذي يبلورونه في تلك الانتخابات وقد يختلف من انتخابات لانتخابات. ولهذا نلاحظ انه في كل انتخابات، يقوم حزب جديد أو أكثر في الوسط ويجرف كمية كبيرة من المصوتين، الذين خاب أملهم في الحزب الذي صوتوا له. في الانتخابات الأخيرة كان ذلك حزب غدعون ساعر وفي الانتخابات الأسبق كان «كحول لفان». ويقدر حجم هذه المجموعة من المصوتين بحوالي الربع ٢٥٪.

(٤) تصريحات رئيس الوزراء السابق، ايهود أولمرت، للقناة الثانية للتلفزيون الإسرائيلي في ١١ كانون الثاني ٢٠١٣.

(٥) صحيفة «معريب» ١٣ نيسان ٢٠٢١

(٦) مذكرات عبد الوهاب دراوشة – «بانوراما» ٢٣ تشرين الاول ٢٠١٩

(٧) منشورات المنتدى الإسرائيلي للديمقراطية ٢٠٢١

(٨) مؤتمر حيروت، الحزب المركزي فيما أصبح لاحقا الليكود، والذي عقد في أيار ١٩٦٨ في تل أبيب.

الانتخابات الأخيرة وأزمة إسرائيل السياسيّة

محمّد علي طه*

كان الطّقس غائمًا ومغبرًّا في يوم الانتخابات للكنيست الرّابعة والعشرين في ٢٣ آذار ٢٠٢١ كأنّه ينذر القوائم المتنافسة، وعددها ٣٨ قائمة، بنتائج قاسية ومستقبل غامض ويشي بأنّ الانتخابات هذه لن تحلّ أزمة الحكم في اسرائيل.

بلغ عدد أصحاب حق الاقتراع ٦٥٧٨٠٨٤ ناخبًا وشارك في العملية الانتخابيّة ٤٤٣٦٣٦٥ ناخبًا أي نسبة ٦٧,٤٤ ٪ وبلغ عدد الأصوات الصالحة ٤٤١٠٠٥٢ صوتًا وبلغ عدد الأصوات الملغاة ٢٦٣١٣ صوتًا واجتازت نسبة الحسم وهي ٣,٢٥ ٪ من الأصوات الصالحة أيّ ١٤٣٣٢٦ صوتًا ١٣ قائمة فقط.

خاض نتنياهو رئيس حزب الليكود هذه الانتخابات بعد فشل إئتلافه مع حزب «أزرق أبيض» برئاسة الجنرال بيني غانتس الّذي خان ناخبيه وعددهم ١٢٢٠٣٨١ وطعن الأحزاب الّتي أوصت عليه لرئيس الدّولة ومنها القائمة المشتركة وانضمّ الى ائتلاف نتنياهو ضاربًا عرض الحائط بوعوده الّتي أطلقها قبل الانتخابات.

اعتقد نتنياهو أنّ الظروف تلعب لصالحه بعدما فكّك حزب «أزرق أبيض» وبعد أن عقد معاهدات «سلام» وتطبيع مع الامارات المتحدّة ومملكة البحرين وجمهوريّة السودان وبعد نجاح التّطعيم ضدّ وباء الكورونا الّذي أشرف بنفسه على شراء المصل لجميع السّكان وبعد

* كاتب فلسطيني.

أن فكّك القائمة المشتركة أيضًا، وقد هيّأ الشّعب إعلاميًّا وهو البارع في ذلك في خطاباته المتلفزة وفي توزيع الأموال على العمّال والموظّفين المعطلّين عن العمل (حوالي مليون انسان) ودعمه للمصالح التجاريّة.

كانت كلّ حركة من حركات نتنياهو في السّنة الأخيرة وفي ظلّ جائحة الكورونا وخلافه مع غانتس تشي بأنّ الرّجل يعدّ لانتخابات قريبة يفوز فيها ب٦١ نائبًا في الكنيست أو أكثر كي يمرّر القانون الفرنسيّ الّذي يعفيه من المحكمة الّتي تقلقه وتسرق النّوم من عينيه أو كما يقول خصومه كي يفكّ الأنشوطة من حول عنقه.

وكان نتنياهو يشعر براحة بعد أن تمزّق حزب «أزرق أبيض» وكان مؤلّفًا من ٣٣ نائبًا ولم يبقَ حزب ينافسه في عدد نوّابه، وبعد أن هرول المطّبعون العرب الى إسرائيل وصارت تل أبيب مربط خيلنا، وبعد أن تدفّق الألوف من رجال الأعمال والسوّاح الاسرائيليّين الى دبي، وبعد أن ربط رئيس الكنيست يريف ليفين والنّاشط اليمينيّ "إيشل" علاقة لها ما بعدها مع د.منصور عبّاس رئيس القائمة الموّحدّة (٤نوّاب) الّتي هي جزءٌ من القائمة المشتركة الّتي حرضّ عليها كثيرًا منذ تأسيسها في العام ٢٠١٥ لدرجة أنّه شيطنها ومنع غانتس وغيره من التفاوض معها فهي في تصريحاته العديدة مؤيّدةٌ للإرهاب وعدوّة للدولة ولا تعترف بإسرائيل دولة للشّعب اليهوديّ ويشارك نوّابها في جنازات الشهداء وهي نفسها الّتي منعته من تشكيل حكومة يمين كما يشتهي عندما فازت ب١٣ نائبًا ثمّ ١٥ نائبًا.

ولتذكير القارئ نورد ما يلي:

توحدت الأحزاب العربيّة الأربعة بمبادرة وقيادة لجنة الوفاق الوطنيّ وهي الجبهة الديمقراطيّة للسلام والمساواة، والقائمة العربيّة الموّحدة (الحركة الاسلاميّة الجنوبيّة)، والتّجمع الوطنيّ الدّيمقراطيّ، والحركة العربية للتغيير في قائمة واحدة اسمها القائمة المشتركة في ٢٣/١/٢٠١٥ قبل انتخابات الكنيست العشرين في ١٧/٣/٢٠١٥ وحصلت على ٤٤٧ألف صوتًا.

تفكّكت القائمة المشتركة نتيجة خلافات أهمّها قضيّة التنّاوب وقاد هذا التفكّك النّائب أحمد

الطيبي وسارعت القائمة الموّحدة والتجمع بإقامة تحالف انتخابيّ بينهما الّذي أدّى الى تحالف بين الجبهة والعربيّة للتغيير فعاقب النّاخبون العرب التّحالفين وهبطت نسبة التصويت الى ٤٩,٢ ٪ وحصل تحالف الجبهة والعربيّة للتغيير على ١٩٤ ألف صوت وستّة مقاعد بينما حصل تحالف الموحدّة والتجمع على ١٤٤ ألف صوت وأربعة مقاعد وهذا يعني انخفاض ١١٠ آلاف صوت.

أعادت لجنة الوفاق الوطنيّ تشكيل القائمة المشتركة لانتخابات الكنيست ال٢٢ الّتي جرت في تاريخ ١٧/٩/٢٠١٩ وحصلت القائمة المشتركة على ١٣ مقعدًا وارتفعت نسبة التّصويت عند النّاخبين العرب الى ٥٩٪ وزاد عدد أصوات المشتركة ب١٣٣ ألف صوت اذ حصلت على ٤٧٠ ألف صوت.

جرت انتخابات الكنيست ال٢٣ في ٢/٣/٢٠٢٠ بتركيبة المشتركة نفسها وارتفعت نسبة النّاخبين العرب الى ٦٥٪ ونالت القائمة المشتركة ٥٨١ ألف صوت أي بزيادة ١١١ ألف صوت وحصلت على ١٥ مقعدًا منها أربعة مقاعد للنساء وهذا انجاز كبير وغير مسبوق ممّا جعل الأحزاب الصهيونيّة تنظر بتقدير للقائمة المشتركة وتغيّر تعاملها معها فبعد أن كان يائير لبيد رئيس حزب يش عتيد «المستقبل» ينعتها بكلمات عنصريّة صار يتودّد اليها ويصرّح بأنّه مستعدّ للتعاون معها وأن يشركها في ائتلاف حكوميّ وكذلك صرّح بيني غانتس وليبرمان بأقوال مشابهة.

كان النّائب أيمن عودة من الجبهة رئيسًا للقائمة المشتركة والنّائب أحمد طيبي رئيسًا للكتلة في الكنيست والنّائب د.منصور عبّاس نائبًا لرئيس الكنيست كما نصّ على ذلك الميثاق الّذي وضعته لجنة الوفاق الوطنيّ وأبدى الناخبون العرب فرحهم بهذا الإنجاز وتطلّعوا الى أن يصل عدد نوّاب المشتركة في الانتخابات القادمة للكنيست ال٢٤ الى ما بين ١٧-٢٠ نائبًا.

بدأ د. منصور عبّاس يتحدّث عن نهج جديد للحركة الإسلامية لتحقيق حقوق مدنيّة للمواطنين العرب وهذا يذكرنا بجملة مشهورة قالها نتنياهو مخاطبًا السلطة الفلسطينية قبل سنوات «إذا أعطونا يأخذون» وعندما سأل أحد الصحافيّين النائب منصور عبّاس إذا

كان مستعدًّا أن يصوّت مع الليكود لتمرير القانون الفرنسيّ الّذي يعفي رئيس الحكومة من المحاكمة أجاب بصراحة: إذا لبّى لنا طلباتنا.

في وثيقة القائمة المشتركة بندٌ اقترحه د.منصور عبّاس ووافق الجميع عليه ينصّ على أنّ القرارات في المشتركة تُؤخذ بالأكثريّة وعلى الجميع الالتزام بها وحدث أن رفض التجمع بشدّة التوصيّة على غانتس الّا أنّه التزم بقرار الأكثريّة.

كثر اللغط في أجهزة الإعلام العبريّة عن التنسيق بين الليكود وبين الحركة الإسلامية بقيادة د.عباس وكان هذا اللغط يزداد كلّما اقترب موعد الانتخابات.

حاولت لجنة الوفاق الوطني جسر الهوّة بين عبّاس وبين قادة المشتركة وقد جلسنا في بيتي أنا والأخوان مصطفى كبها الناطق الرّسميّ باسم لجنة الوفاق ومحمّد بركة رئيس لجنة المتابعة للجماهير العربيّة مع د. منصور عبّاس محاولين بأقصى الجهد للتّوفيق والمحافظة على المشتركة وأكّد

د. منصور عبّاس في الجلسة أنّه يريد المشتركة الّا أنّه يدعو الى نهج جديد يقضي بالتّعاون مع الحزب الحاكم ليخدم شعبه وعندما أكّدنا له أن الميزانيّات والخدمات الّتي تطلبها المشتركة من الحكومة هي حقٌّ لشعبنا وليست منّةً من أحد ونرفض أسلوب المقايضة ادّعى أنّ هذا الأسلوب لم يحقّق النّتائج المرجوّة فذكر له محمّد بركة ما أنجزه النّواب العرب طيلة سنوات وفي نهاية الجلسة أعلن: عندي مشروع أرغب بتحقيقه.

لم نيأس فعدت ودعوته ثانيةً الى بيتي وشارك في الجلسة مصطفى كبها والنّائب أيمن عودة وكان واضحًا من نقاشه أنّه قرّر الانفصال عن المشتركة الى أنّه يخشى من تهمة الانشقاق الّتي لا يريدها شعبنا وأنّه يسعى كي تقوم بذلك الأحزاب الأخرى.

عرفت د.منصور عبّاس منذ العام ٢٠١٤ عندما كان عضوًا في لجنة المفاوضات مع لجنة الوفاق الوطنيّ ممثلًّا للقائمة الموّحدة وكان النّائب مسعود غنايم رئيس وفدها. ولا بدّ من قول كلمة حقّ بأنّ التّعامل معهما كان مريحًا ومفيدًا ولم يحدث أن وقع خلافٌ بينهما وبين

لجنة الوفاق الوطنيّ بل كانا يقدّمان كلّ ما تطلبه اللجنة من أجل التّوفيق والعمل المشترك.

وكانت القائمة الموّحدة (الحركة الاسلاميّة الجنوبيّة) تبدي كلّ الدّعم للحفاظ على القائمة المشتركة وقدّمت تنازلًا مشكورًا عندما تنازلت في قضيّة التنّاوب ثمّ في قضيّة المكانين الثالث والرّابع في انتخابات الكنيست ال٢٢ وال٢٣.

فماذا جرى وما سرّ هذا التّغيير؟

لاحظت لجنة الوفاق الوطنيّ منذ تأسيس القائمة المشتركة خلافات في الرّأي بين الجبهة وبين التجمع وأحيانًا بين الجبهة والعربيّة للتغيير ولكن كنّا نشير بتقدير واحترامٍ للتفاهم بين الجبهة وبين الموحدّة.

كان شعار المشتركة أنّها إرادة شعب فهل تغيّرت هذه الارادة أم امّحت؟

حذّرت لجنة الوفاق الوطنيّ من أنّ الانقسام سيؤدّي الى الأمور التاليّة:

١- انخفاض نسبة التصويت عند النّاخبين العرب حيث هبطت النسبة من ٦٤٪ في العام ٢٠١٥ الى ٤٩٪ في نيسان ٢٠١٩.

٢- عودة الأحزاب الصهيونيّة الى المدن والقرى العربيّة ففي انتخابات ٢٠١٥ عند تأسيس المشتركة بلغت نسبة المصوتين للأحزاب الصهيونيّة ١٨٪ (قسم كبير منهم من القرى الدرزيّة) وارتفعت عند الانقسام في نيسان ٢٠١٩ الى ٣٠٪ ثمّ انخفضت في اذار ٢٠٢٠ الى ١٣٪.

٣- عودة الاحتراب والتراشق الكلاميّ بين الأحزاب بينما سادت روح المودّة والتآخي في مدننا وقرانا.

من اللافت للنظر أنّ الانتخابات الأخيرة تدور بين جبهتين في الشّارع اليهوديّ جبهة تقول "نعم لنتنياهو" وجبهة ثانية تقول "لا لنتنياهو" وتجاهلت جميع الأحزاب عن عمد قضايا الاستيطان والاحتلال والشّعب الفلسطينيّ وقضيتّه.

نجح نتنياهو في خلال عشر سنوات بمصادرة كلمات مثل السّلام والاحتلال من القاموس السياسيّ كما نجح في تحويل الشّعب الاسرائيليّ الى شعب يمينيّ يؤيّد الاستيطان ويرى في

القدس العربيّة والضّفة الغربيّة مناطقَ اسرائيليّة وبعد أن شرعنت الكنيست ضمّ القدس والجولان بدأ الحديث عن ضمّ مناطق الأغوار ومناطق أخرى في الضّفة الغربيّة كما أيّدت جميع الأحزاب نقل السّفارة الأميركية من تل أبيب الى القدس وأيّدت كذلك بحماس صفقة القرن الّتي برمجها وهندسها ترامب ونتنياهو.

هل الانقسام من جيناتنا؟ كتبت يومئذٍ مقالة بعنوان «ننقسم كي نتوحّد» وهذا نصّها.

نحن عرب أقحاح ودمُنا نقيّ بالرّغم من حملات التّتار والمغول والفرنجة فنساء يعرب وقحطان لرجال يعرب وقحطان، نساء شريفات طاهرات: واذا ابتسمت إحداهن لغير زوجها أو أخيها قتلناها حفاظًا على شرف القبيلة.

ونحن قبائل وحمائل وبطون وأفخاذ وحتّى أنامل، ومن شدّة اعتزازنا بنسبنا نظمنا قصائد الفخر، وأنسَنّا سيوفنا وحنّطناها ورثيناها.

نعتزّ بثوابتنا وبتقاليدنا مثلًا نأخذ بالثّأر ولو بعد أربعين عامًا ونصلّي الصلوات الخمس ونلعن الشّيطان.

رضعنا الحرّيّة من أثداء أمّهاتنا ومن شعر خيامنا، ولا نؤمن بوحدة خارجة عن حمولتنا، فأنا وأخي على ابن عمّي، وأنا وابن عمّي على الغريب، والغريب ليس بالضرورة أجنبيًا بل قد يكون جارنا أو قريبنا أو بلديّاتنا أو صهرنا.

رافقتنا الفتنة منذ فجر الاسلام فقتلنا الخلفاء الرّاشدين باسم بالدّين، وبكينا على ذي النّورين، وانتحبنا على مَن كرّم الله وجهه، ولعنّا الوسواس الخنّاس وانشطرنا الى قيسيّة ويمنيّة.

وحّدنا معاويةُ الأمويُّ في عام الجماعة ودفعنا مهر الوحدة ثمنًا غاليًا أسميناه التّوريث، فما كان من أبناء عمّنا العبّاس الا أن ذبحوا هذه الوحدة مثل أضحية العيد مستعينين بأحفاد فيروز أبي لؤلؤة.. ولم تكن دعوة الأجنبيّ لنصرتنا جديدة في تاريخنا فقد ابتدعها الّذي ضيّعه أبوه صغيرًا و حمّله دمه كبيرًا وسجّل بدعوة الرّوم إلى جزيرة العرب سابقة تاريخيّة، تفوق معلّقة «قفا نبكِ» فسار على نهجه ابن العلقميّ وذرّيّة سلاطين سايكس بيكو.

وحّدنا صلاح الدّين فسجّلنا النّصر الكبير في حطّين واستعدنا القدس وطهّرناها من الدّنس فما ان مات القائد حتّى عدنا نبحث عن داحس والغبراء... وناقتنا الحبيبة.

اكتشف الغرب عزوفنا عن الوحدة فقسّمنا المستعمران العنصريّان سايكس وبيكو الى دويلات وامارات ومشيخات وصنع من عجيننا وطيننا ملوكًا وامراء وشيوخًا وسلاطين ثمّ عصرنها برؤساء جنرالات.

كم كنت طيّب القلب ونقيّ السّريرة، يا أبا خالد، عندما وحّدت النّيل مع بردى وطمحت بدجلة الخير ولم تتوقع أن يطعنك بظهرك تجّار الشّام وأيتام الفرس والرومان.

يا لسذاجتنا نحن العرب الباقين في هذا الوطن الصّغير الجميل.. لا ترى عيوننا الانقسامات والحروب الأهليّة في الشّام والعراق والسّودان واليمن وليبيا و...و كأننا لم نسمع عن الانقسام الفاقع في شعبنا الفلسطينيّ، فتح وحماس، ووحدة وحدة ما يغلبها غلّاب. وحدة أحباب. كيف نتحدّث عن الوحدة لو لم ننقسم؟

نحن عرب أقحاح نحبّ حريّة البادية ونحن أقليّة صغيرة لا يعجبنا العجب، ونسبح عكس التيّار، ونشكّل قائمة مشتركة فيها الاسلاميّ والشيوعيّ، والقوميّ والأمميّ والسّنيّ والشّيعيّ وفيها العربيّ واليهوديّ، ونتحدّى الثعالب والأقنان!!

على رسلنا!! لماذا وجع الرأس؟ ولماذا نرتدي بذلة أكبر من مقاس الجسد؟

نحن أبناء قيس ويمن. نحن عرب ولا نخجل وكل منّا يغنّي على ليلاه وننقسم على اثنين، على ثلاثة...على...

ونتّهم القوى الأجنبيّة ثمّ نسعى الى الوحدة.

ما أذكانا..ما أذكانا...

***

انشقت الموحدة عن المشتركة وشكلّت قائمة انتخابيّة هي نفسها التي كانت مع المشتركة الا أنّها وضعت في المكان الثّاني شخصًا لا ينتمي للحركة الاسلاميّة هو مازن غنايم رئيس

بلديّة سخنين السّابق الّذي غيّر موقعه وانتماءه السياسيّ من التجمع الى الحركة الاسلاميّة متمثّلًا بقول الجنرال موشيه ديّان «الحمار هو الّذي لا يغيّر موقفه» عندما ترك حزب العمل كي يكون وزيرًا للخارجيّة في حكومة مناحم بيغن. وأعلنت الأحزاب الثّلاثة الأخرى أسفها لانشقاق الموحدّة وأصرّت على استمرار المشتركة.

غاب البرنامج السياسيّ الواضح عند القائمتين وغلب على خطاب المشتركة الانجرار وراء مقولات وشعارات القائمة الموحدّة الّتي كان شعارها «صوت مؤثر واقعيّ ومحافظ» وقد لعب دورًا كبيرًا بالرّغم من أنّه فارغ سياسيًّا وانجرّت القائمة المشتركة الى نقاشٍ حول هذا الشّعار وغاب النّقاش حول القضايا الوطنيّة والسياسيّة، كما لعبت قضيّة دعم المثليين الّتي اتّهمت بها الموّحدة نوّابًا من المشتركة دورًا كبيرًا بالرّغم من أنّها لا تهمّ أبناء شعبنا. وتمّ استغلال الدّين وتقسيم المجتمع الى مؤمن وكافر والى وطنيّ وخائن. ونسيت القائمتان الأحزاب الصهيونيّة. وحدث ما حذّرنا منه فانخفضت نسبة التّصويت في المجتمع العربيّ الفلسطينيّ الى ٤٥٪ وهي النسبة الأقلّ منذ بداية مشاركة العرب في الانتخابات البرلمانيّة في الكنيست الأولى عام ١٩٤٩.

حصلت القائمة المشتركة على٢١٢٠٤٨ صوتًا أي ما يعادل ٨,٤ ٪من الأصوات وحصلت الموحدّة على ١٦٧١٣٢ صوتًا ما يعادل ٧,٣ ٪ وحصلت الأحزاب الصهيونيّة على ٨٠ ألف صوت، حصل الليكود منها على ٢٠٪ وميرتس على ١٩٪ وحزب ليبرمان على ١٧٪.

ومن الجدير ذكره أنّ ٣٣ ألف صوت من هذه الأصوات من القرى العربيّة الدرزية بينما حصلت القائمتان معًا من هذه القرى على ٦٦٠٠ صوت ولم تختلف نسبة التصويت في هذه القرى عن بقيّة المجتمع العربيّ.

أعطت هذه الأصوات المشتركة ٦ مقاعد (٣ للجبهة ٢ للعربيّة للتغيير ١ للتجمع) وهذا معناه أنّ الجبهة خسرت مقعدين والعربيّة للتغيير خسرت مقعدًا واحدًا وخسر التّجمع مقعدين أيضًا وأمّا القائمة الموحدة فقد حافظت على أربعة مقاعد.

حصلت القائمتان على ما يقارب ٣٨٠ألف صوت أي أقل بحواليّ ٢٠٠ألف صوت عن الانتخابات

السّابقة. وبالرغم من دخول الأحزاب الصهيونيّة للمجتمع العربيّ وزيارات نتنياهو للمرّة الأولى في حياته الى المدن والقرى العربيّة لم يحدث تحوّل في التّصويت للأحزاب الصهيونيّة وهذا يدلّ على أنّ الامتناع عن التّصويت هو الظاهرة الكبرى في هذه الانتخابات ويعود الى ثلاثة أسباب أولّها سبب أيديولوجيّ لا يعترف بشرعيّة العمل البرلمانيّ وثانيها سبب سياسيّ هو الاحتجاج على الانقسام في المشتركة والخلاف بين مركباتها وثالثها اللامبالاة من العمل البرلمانيّ أو السياسيّ.

اهتمّت الأحزاب الصهيونيّة بالصّوت العربيّ بسبب نجاح المشتركة في الانتخابات السّابقة فبذلت هذه الأحزاب جهدًا كبيرًا في دعايتها الانتخابيّة في اللغة العربيّة وأدرجت بعضها شخصيّات عربيّة وبخاصّة نسائيّة في قوائمها فقد أدرج حزب ميرتس مرشّحين في المكانين الرّابع والخامس وفازا بالمقعدين ولم يحصل ميرتس سوى على ١٤ألف صوت عربيّ وأدرج حزب العمل سيّدة عربيّة متزوجة من رجل يهوديّ في المكان السابع وفازت في المقعد.

***

أظهرت نتائج الانتخابات تراجعًا في عدد النّاخبين لحزب الليكود فقد خسر حوالي ٣٠٠ ألف صوت عن الانتخابات السّابقة.

هذا الجدول يبيّن قوّة الليكود الانتخابيّة:

دورة الكنيست	عدد الأصوات	عدد المقاعد
٢٠	٩٨٥٤٠٨	٣٠
٢١	١١٤٠٣٧٠	٣٥
٢٢	١١٥١٢١٤	٣٣
٢٣	١٣٥٢٤٤٩	٣٦
٢٤	١٠٦٦٨٩٢	٣٠

وتوزعت المقاعد في الانتخابات الأخيرة كما يلي:

الليكود ٣٠ مقعدًا، المستقبل «يش عتيد» ١٧ مقعدًا، شاس ٩ مقاعد، أزرق أبيض «بيني

غانتس» ٨ مقاعد، يمينا «نفتالي بينيت» ٧ مقاعد، حزب العمل ٧ مقاعد، يهدوت هتوراه ٧ مقاعد، يسرائيل بيتينو «ليبرمان» ٧ مقاعد، الصهيونيّة الدّينيّة «أيتام كهانا» ٦ مقاعد، القائمة المشتركة ٦ مقاعد، أمل جديد «جدعون ساعر» ٦ مقاعد، ميرتس ٦ مقاعد، الموحدة ٤ مقاعد.

هذه النتائج تعني أن التجمع المؤيّد لنتنياهو من الليكود وشاس ويهدوت هتوراه والصهيونيّة الدّينيّة يساوي ٥٢ مقعدًا ويعني أيضًا أن نتنياهو يحتاج الى ٩ مقاعد أخرى على الأقل لكي يشكل الحكومة وهو يسعى في هذه الأيّام لضمّ حزب يمينا برئاسة نفتالي بينيت (٧مقاعد) كما يحتاج الى دعم القائمة العربيّة الموحدة من الخارج بمقاعدها الأربعة الّا أنّ حزب الصهيونيّة الدّينيّة يرفض بشدّة الاعتماد على العربيّة الموحدّة ويسعى نتنياهو الى اقناعهم كما يسعى الى اغراء نوّاب من أحزاب أخرى للانضمام الى ائتلافه مقابل وزارة ما.

في هذه الانتخابات كانت المنافسة بين اليمين وبين اليمين المتطرّف وقد فاز فيها ١٠٤ نوّاب يؤيّدون الاحتلال والاستيطان والسيطرة على الشّعب الفلسطينيّ وسلب أراضيه وفرض حكم الابرتهايد عليه.

هناك صعوبة كبيرة في تشكيل حكومة وهذا يعني أنّ الأزمة السياسيّة في إسرائيل بقيت في مكانها بل أنّ هذه النتائج قد عقدّتها.

هناك ٣ إمكانيات:

أولًا حكومة برئاسة نتنياهو وشاس ويهدوت هتوراة والصهيونيّة الدّينيّة وحزب يمينا ودعم العربيّة الموحدّة من الخارج. وأظنّ أنّ هذا المخرج قد ينجح.

ثانيًا حكومة مناصفة لقوى التغيير كما يسمّون أنفسهم برئاسة نفتالي بينيت أولًا ثمّ يئير لبيد مدعومة من: يش عتيد ١٧ مقعدًا، يمينا ٧ مقاعد، أزرق أبيض ٨ مقاعد، يسرائيل بيتينو-ليبرمان ٧ مقاعد، حزب العمل ٧ مقاعد، أمل جديد-ساعر ٦ مقاعد، ميريتس ٦ مقاعد ودعم من الخارج من الموحدّة ٤ مقاعد والمشتركة ٦ مقاعد.

ثالثًا انتخابات خامسة في شهر أيلول ٢٠٢١.

لا أحد يستطيع أن يتنبّأ أيّة امكانيّة من هذه الإمكانيات الثلاث سوف تنجح لأنّ ما يحرّك الأحزاب الصهيونيّة هو "نعم لنتنياهو" أو "لا لنتنياهو" ولن نتفاجأ إذا ما انتقل حزب من جبهة الى جبهة ثانية كما حدث مع بيني غانتس وحزب أزرق أبيض بعد الانتخابات السّابقة وربّما سيجد نتنياهو أعضاء برلمان ينسحبون من أحزابهم وينضمون الى الائتلاف مقابل اغراء وزاريّ وقد حدث هذا قبل سنة أيضًا ونشرت الصحف في هذه الأيّام أنّ نتنياهو عرض على نوّاب من حزب أمل جديد أي حزب جدعون ساعر وزارات هامّة مقابل انسحابهم وانضمامهم اليه الّا أنّهم رفضوا الاقتراح.

فماذا تخبّئ لنا الأيّام من مفاجئات؟!

الانتخابات الاسرائيلية ومصير الدولة الاستيطانية الاستعمارية

د. وليد سالم*

تحاجج هذه المقالة بأن للانتخابات وظيفة في إطار الدول الاستيطانية الاستعمارية، تختلف عن وظيفتها في الدول العادية ، فكل جولة انتخابات في الدولة الاستيطانية الاستعمارية هي منعطف في الطريق الممتد لتقرير كيفية استمرار المشروع الاستيطاني الاستعماري توسيعا أو تقليصا ، وذلك بالعلاقة مع واقع الصراع مع الشعب الاصلاني ، ومع العوامل الاقليمية والدولية ، وكذلك بالعلاقة مع رؤى أطراف العملية الانتخابية داخل الكيان الاستيطاني الاستعماري لكيفية بناء الدولة ونظامها السياسي والتشريعي والقضائي، وفي حالة اسرائيل يضاف لذلك عامل آخر يرتبط بطبيعة علاقة الدولة مع يهود العالم.

هذا وكان الكاتب قد حلل في دراسة محكمة سابقة «وظيفة الانتخابات في النظام الاستيطاني الاستعماري : حالة اسرائيل «، حيث تقفى هذه الوظيفة تاريخيا منذ نشأة الدولة عام ١٩٤٨ وحتى عام ٢٠٢٠ وذلك في إطار مفهوم « الديمقراطية الاستيطانية الاستعمارية « المقتبس من عالم الاجتماع التاريخي مايكل مان (مان . الجانب المظلم من الديمقراطية ، ٢٠٠٥)، وهو نموذج تتناسب زيادة ديمقراطيته لمستوطنيه المستعمرين طرديا مع زيادة إجرامه ضد الشعب الاصلاني . بهذا المعنى تقرر كل عملية انتخابية تجري داخل الكيان الاستيطاني الاستعماري شكل الحكومة وتشكيلتها ، وبالتالي طبيعة الإجرام الذي سيتم انتهاجه بعدها

* باحث واكاديمي فلسطيني.

ضد الشعب الأصلي بناءً على هذه التشكيلة (سالم ، مجلة العلوم القانونية والسياسية - جامعة القدس ، العدد الخامس ، ٢٠٠٠).

في هذه المقالة الموجزة سيتم المضي قدما لتحليل ما وصلت إليه هذه الوظيفة للانتخابات من استعصاء في ضوء عقد أربع جولات انتخابية على خلفية العوامل الداخلية والاقليمية والدولية المؤثرة رسمية وشعبية ، وتتم المحاججة هنا أن هذا الاستعصاء يرتبط بوجود تيارين صهيونيين قديمين - جديدين داخل إسرائيل يحاججان بطرق مختلفة : أحدهما يرى تبعا لحراك العوامل الداخلية والاقليمية والدولية بأن يتم الاكتفاء بدولة استيطانية استعمارية مقلصة تضم فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨ مضافا لها القدس الشرقية الموسعة والكتل الاستيطانية الاستعمارية في الضفة ، مع عدم السماح بعودة جماعية للاجئين الفلسطينيين إلى ديارهم، واقامة دولة فلسطينية خاضعة للسيطرة الامنية الاسرائيلية على بقايا الضفة وقطاع غزة ، ويطرح ذلك أحزاب يوجد مستقبل والعمل وازرق أبيض وتتشارك معهم حركة ميرتس في رفض تقسيم القدس ورفض عودة اللاجئين الفلسطينيين جماعيا إلى داخل دولة اسرائيل . قوام هذا التيار هو ٣٨ عضو كنيست في الانتخابات الاسرائيلية الاخيرة هذا الشهر. وعلى الصعيد الداخلي يريد هذا التيار الحفاظ على الشكل العلماني للديمقراطية الاستيطانية الاستعمارية، ويرفض قمع « اليسار الصهيوني « وتهميشه (مع أن بعضا من أطرافه يدعو لوقف تحكم المتدينين اليهود بالنظام السياسي مما يخلق لهم تناقضا مع الأحزاب الدينية)، ويطرح توسيع الحقوق الفردية والثقافية والدينية للفلسطينيين داخل اسرائيل (ولكن بدون الاعتراف بحقوق قومية لهم) ويشمل ذلك طرح امكانية التحالف مع أحزاب عربية لتشكيل ائتلاف حكومي مع تفضيل أحزاب على اخرى (مثلا : تفضيل القائمة الموحدة برئاسة الدكتور منصور عباس على القائمة المشتركة حاليا ، وتفضيل حزبي ايمن عودة رئيس الجبهة الديمقراطية للسلام والمساواة واحمد الطيبي رئيس الحركة العربية للتغيير من القائمة المشتركة ورفض حزب التجمع الوطني الديمقراطي العضو في ذات القائمة).

التيار الثاني يلتفت بشكل أقل للعوامل الإقليمية والدولية ، ويهتم بشكل أكبر لما يريده اليهود

من فرض حقائق على الأرض جريا على ما طرحه جابوتنسكي وقبله هرتزل صاحب العبارة المشهورة « إذا اردتها ، فإنها لن ليست حلما : It is not a dream .If you will it »، لذا يرى هذا التيار ضرورة الاستمرار في بناء دولة استيطانية استعمارية موسعة ، وفي هذا الإطار لا يخفي هذا التيار خططه لتوسيع دولة إسرائيل لتشمل كل الضفة أو اجزاء واسعة منها ومنع اقامة دولة فلسطينية، وتوسيع القدس الكبرى شرقا حتى البحر الميت ، وجنوبا حتى مشارف مدينة الخليل ، وشمالا حتى منتصف الطريق إلى نابلس مع ربط القدس بطريق سريع مع مستعمرة آرييل المقامة على أراضي محافظة سلفيت ، واقتلاع فلسطينيي الغور وجبال الخليل والقدس من بلادهم ، ورفض عودة اللاجئين حتى بأعداد رمزية ، وترك مصير قطاع غزة معلقا إلى حين نضوج ظروف تسمح بمعالجة وضعه ، وقد طرح نتنياهو خلال زيارة له لأوكرانيا في آب من عام ٢٠١٩ « مقترحا» لترحيل فلسطينيي غزة وتسهيل ذلك إلى أي بلد ترغب باستقبالهم . وعلى الصعيد الداخلي يسعى هذا التيار للسيطرة على جهاز القضاء، وتهميش اليسار ، وتحويل الإعلام إلى بوق للسلطة الحاكمة . بالنسبة لفلسطينيي الداخل يحصر هذا التيار حقوقهم بالجانب الفردي والديني ، ولكنه يختلف عن التيار الأول بأن هناك من يدعو من صفوفه إلى تسهيل طرد العرب ونزع الجنسية الاسرائيلية عنهم، أو نقلهم من وضع التجنس إلى وضع الاقامة الدائمة أو المؤقته كما هو حال فلسطينيي القدس الشرقية المحتلة عام ، ، ١٩٦٧.وفيما يتعلق بالائتلاف الحكومي يرفض قسم من هذا التيار مشاركة العرب فيه لأسباب يعتبرونها مبدئية ، فيما بعضهم مستعد لمشاركة بعض العرب « المقبولين» في الاتفاق الائتلافي وليس في الحكومة كما هو مطروح حاليا على منصور عباس من قبل بعض أقطاب الليكود. يضم هذا التيار ٧٢ عضو كنيست من انتخابات هذا الشهر يشملون الليكود ، وأحزاب يمينا والقائمة الصهيونية المتدينة وأمل جديد واسرائيل بيتنا ، والحزبان الدينيان شاس ويهدوت هتوراه، وهي أحزاب تتنافس كلها حول أيها أكثر تطرفا ضد الشعب الفلسطيني. فأمل جديد ويمينا أكثر تطرفا من الليكود ، واسرائيل بيتنا هو صاحب فكرة تجريد فلسطينيي المثلث من الجنسية الاسرائيلية ونقلهم مع مناطق سكناهم

إلى مناطق السلطة الوطنية الفلسطينية ولكن مع سلب ٧٠ بالمئة من أراضيهم التي صودرت بعد عام ١٩٤٨ وابقائها جزءاً من إسرائيل ، وهو ما تم ادراجه في صفقة القرن الاخيرة.

زاد من الاستعصاء الذي رافق الانتخابات الأربعة الاخيرة في إسرائيل بين منطق الدولة الاستيطانية المقلصة ، وتلك الموسعة ، ذلك التناقض الذي نشب داخل التيار الثاني، والذي نجم عنه عدم قدرة هذا التيار على تشكيل حكومة منفردة من قواه . بدأ الأمر برفض حزب اسرائيل بيتنا الانضمام إلى حكومة تشمل الأحزاب الدينية ، ثم امتد ليشمل تمرد جدعون ساعر على نتنياهو الذي لم يعطه أي منصب وزاري رغم حصوله على موقع متقدم في الانتخابات الداخلية لليكود ، وهو ما دفعه للانشقاق وتشكيل قائمة « أمل جديد « للانتخابات الاخيرة . وقد منعت هذه التناقضات نتنياهو من تشكيل حكومة حصرية من التيار الثاني بعد جولات الانتخابات الثلاث الماضية ، وقد تمنعه من القيام بذلك بعد جولة الانتخابات الرابعة هذا الشهر ، مما يلوح بامكانية التوجه إلى انتخابات خامسة .

هنالك عاملان يفسران نشوء هذه التناقضات داخل التيار الثاني ، أحدهما يتعلق بغياب أي مقاومة فلسطينية فعالة مع ما ينشأ عن ذلك من حالة من الاسترخاء داخل الكيان الاسرائيلي تسمح بطغيان التناقضات الداخلية العامة (مثل الصراع العلماني - الديني داخل التيار الثاني ذاته)، والشخصية (مثل صراع ساعر - نتنياهو). يزيد تدهور الوضع العربي وعدم قدرته على توفير أي ضغط فعلي على اسرائيل من حدة تأثير هذا العامل. أما العامل الثاني المكمل فيمكن اعادته إلى ما تطرحه نظرية « الجشع مقابل الضيم : Greed Versus Grievances" المعروفة في نظريات تفسير الصراعات. وفي حال تطبيق هذه النظرية على الحالة الاستيطانية الاستعمارية في فلسطين ، يمكن أن يجد المرء أن الجشع هو ما يفسر سلوك نتنياهو الفاسد، كما يفسر الجشع مزاودة حزب يمينا على نتنياهو عندما علق ضم ٣٠ بالمئة من اراضي الضفة إلى اسرائيل اعطته اياها صفقة القرن في ضوء اتفاق التطبيع مع الإمارات العربية المتحدة . فلسان حال حزب يمينا يقول : لماذا نقلص جشعنا على الاستحواذ طالما أن العرب لن يستطيعوا اتخاذ أية خطوة فعلية يمكنها أن تمنع ما نفعل ؟ . من الجهة المقابلة يجد المرء

أن الضيم لفقدان الأرض والوطن والكرامة هو ما يحرك مقاومة الشعب الفلسطيني ضد مشروع الاستحواذ والاستئصال الجشع .

عدا العاملين الواضحين السابقين ، هناك عامل ثالث جدلي ومتناقض ، وهو عامل التطبيع العربي الاخير مع إسرائيل من الإمارات والبحرين والمغرب والسودان ، وعما إذا أدى هذا التطبيع لكبح جماح التوجه لدولة استيطانية استعمارية موسعة عند بعض أطراف التيار الثاني سيما الليكود بقيادة نتنياهو، واستبداله بالاكتفاء بدولة استيطانية استعمارية مقلصة . هذا وقد لوحظ بعد التطبيع العربي الاخير استغلاله من قبل نتنياهو لتعميق التناقض مع الأردن سيما في موضوع الإشراف على الاماكن الاسلامية المقدسة في القدس والسعي لنزع الاشراف الهاشمي عليها، ومن جهة أخرى أجل نتنياهو خطوة تشريع الضم ل ٣٠ بالمئة من الضفة إلى إسرائيل ، ولكن لم يضيره ذلك بشيء حيث استمر في عملية الضم الفعلي والزاحف بدون اعتراض من دول التطبيع العربية الجديدة على الأمر . ينجم عن ذلك أن التطبيع يؤدي لتمكين اسرائيل للعمل على ضرب الدول العربية ببعضها البعض ، ويعزز من قدرتها على المضي قدما في الضم الزاحف في ظل غياب خطوات فعلية عربية ضد ذلك ، ولكنه قد يستجيب لبعض الطلبات العربية غير الاساسية بالنسبة إليه مثل الطلب الحالي له من الإمارات العربية المتحدة والمكرر من أطراف دولية عدة بأن لا يضم إلى حكومته القادمة التيارات التي تكره العرب وتدعو لقتلهم وطردهم (التيار الكهاني المسمى عوتصما يهوديت و المنضوي في قائمة الصهيونية اليهودية ويتزعمه ايتمار بن غفير).

اذن لا العامل الفلسطيني الضعيف ، ولا العامل العربي المطبع لديهما القدرة حاليا على جعل إسرائيل تنسحب من الاراضي الفلسطينية المحتلة عام ١٩٦٧، ولا حتى لجعل تيارها الثاني يتراجع عن صيغة دولة إسرائيل الاستيطانية الاستعمارية الموسعة. وفي ظل العجز الواضح للتيار الأول عن تشكيل حكومة بدون مشاركة أطراف من التيار الثاني المؤيد لفكرة الدولة الاستيطانية الاستعمارية الواسعة وبالتالي التنازل لها ، فإن الفرصة الاكبر تبقى للتيار الثاني لتشكيل حكومة أو الذهاب لانتخابات خامسة ، سيما وأن التيارين لا يمكنهما رغم

تحالفاتهما مع قوى صهيونية أخرى (سيما التيار الاول)، تشكيل حكومة بدون دعم لسان ميزان الانتخابات الاخيرة ممثلا بالقائمة الموحدة التي يقودها الدكتور منصور عباس . في هذا الاطار قد يستطيع التيار الاول استصدار قرار بالاغلبية داخل الكنيست لمنع نتنياهو المتهم جنائيا من تشكيل حكومة ولكنه سيحتاج لموافقة منصور عباس للحصول على تلك الأغلبية ، وقد لا يوافق عباس على ذلك أملا بالحصول على مطالب من نتنياهو ، وإن وافق ، فإن الطريق لن تصبح ممهدة لتشكيل حكومة من التيار الاول بدون عباس وهو ما ترفضه احزاب يمينا وأمل جديد التي سيحتاجها التيار الاول لتشكيل حكومة ، وعليه فإن الخلاصة هي إما تشكيل حكومة من الليكود (بقيادة نتنياهو أو سواه إذا ما تم عزله بقرار كنيست، وحينها ستنضم قائمة أمل جديد للزعيم الآخر الذي سيحل محل نتنياهو لتشكيل حكومة هذا عوضا عن مشاركة يمينا المستعدة أيضا للمشاركة في حكومة يرأسها نتنياهو)، وإما الذهاب الى انتخابات خامسة لتحقيق نصر واضح للتيار الثاني ، تيار الدولة الاستيطانية الاستعمارية الموسعة .

تبقى هنالك عوامل أخرى لإجبار تيار الدولة الاستيطانية الموسعة على أن يتراجع نحو دولة استيطانية استعمارية مقلصة تتسع أو لا تتسع لدولة فلسطينية على البقايا وفق الصيغة التي عرفت بها في بداية هذا المقال ، وهذه العوامل بايجاز هي : أولًا : موقف اميركي- دولي صارم ولا يبدو ذلك في الافق كما عالج الكاتب في دراسة اخرى ستنشر قريبا حيث أن أقصى ما يمكن أن يطرحه العالم هو دعوة الطرفين للعودة للمفاوضات وترك النتائج لتكون رهنا بما يتفقان عليه. ثانيا : موقف عربي صارم ، وهذا لا يبدو ايضا في الافق سيما ضد عملية الضم الزاحف الجارية على الارض بوتيرة متسارعة. ثالثا : موقف يهود العالم سيما يهود أميركا تجاه اسرائيل ، حيث يؤيد ما يزيد عن ٧٠ بالمئة منهم الحزب الديمقراطي الأميركي المساند لدولة إسرائيلية استيطانية استعمارية مقلصة وليس موسعة ، وهذا قد يكون له بعض التأثير ، هذا علما أن التيار الثاني في إسرائيل شكل تيارا أميركيا موازيا ومؤيدا لسياساته قاده الملياردير شيلدون أدلسون حتى وفاته هذا العام سمّي باسم « المجلس الاسرائيلي الأميركي ".

مقابل هذه العوامل هناك اخرى قد تعزز التوجه لدولة استيطانية استعمارية مقلصة ومنها : تراجع قدرة الجيش الاسرائيلي على احتلال أراض جديدة أو البقاء في اراض واسعة بسبب تراجع الارادة للقتال المباشر وتدهور استعدادات سلاح المشاة في الجيش الإسرائيلي للالتحام المباشر مع « العدو « . ثانيا : تراجع أفق الهجرة إلى اسرائيل والمستوطنات في الضفة والقدس ، وفي السنوات الاخيرة تحاول اسرائيل تعويض ذلك من خلال نسبة النمو الطبيعي العالية للسكان سيما في قطاع المتدينين ، أو من خلال جعل مواطني اسرائيل الأغنياء يشترون بيوتا في مستعمرات الضفة تكون بيوتا ثانية لهم لتلك التي يمتلكونها داخل اسرائيل . ولكن هذه الإجراءات لها حدود ، ولا تغني عن الحاجة لهجرة واسعة من يهود الخارج . هذه المعضلة قابلة للحل فقط في حال قرر يهود الولايات المتحدة تنظيم هجرة واسعة منهم إلى إسرائيل . ثالثا : تراجع حالة كون اسرائيل هي المكان الآمن لليهود في العالم ، فقد بات وجود اليهود في دول العالم أكثر أمنا لهم من إسرائيل المهددة بالصواريخ من كل حدودها. رابعا : امكانية تصاعد الكفاح الفلسطيني بأوجهه الستة : الكفاحية الميدانية ، والاقتصادية والتنموية ، والقانونية ، والسياسية الدبلوماسية ، والاعلامية ، والمعرفية ، مدعوما من قوى التضامن و المقاطعة وسحب الاستثمارات والعقوبات على المستويات الشعبية والبرلمانية العالمية . وخامسا : قرارات من محكمة الجنايات الدولية قد تجبر إسرائيل على الحذر اكثر في تنفيذ سياساتها الاستيطانية الاستعمارية التوسعية.

هذا وقد يترتب عن هذه العوامل الخمس ما هو أكثر من مجرد انكفاء اسرائيل عن مشروعها الاستيطاني الاستعماري الموسع ، لصالح اعادة انبعاث الكفاح الوطني الفلسطيني بثوب جديد تجعل العالم كله ساحته. هذا وقد بقي عامل آخر لم يناقش هنا وهو المتعلق بدور فلسطينيي الداخل إذا وحدوا جهودهم وهو ما سيخصص له مقال آخر في الأيام القادمة .

أوراق ثقافية

محمود شقير.. شيء من السيرة في «تلك الأمكنة»!

بديعة زيدان

لكل منّا قصته، وللقصص ذاتها قصص، فحركتنا مرتبطة باعتبارات الزمان والمكان، باللحظة التاريخية، وبالحريّة أو اللاحريّة المتاحة في وقتها.. في القدس، وبين الرحيل عنها، والعودة إليها، عاش محمود شقير الكثير: المدينة وتحوّلاتها، حماسة جيله وإحباطاته، وهزائم الواقع، وكتب كثيراً.

في سيرته الموسومة بـ»تلك الأمكنة»، والصادرة حديثاً عن «نوفل» دمغة «هاشيت أنطوان» في بيروت، يستكمل شقير سرديته الأدبية عن العام انطلاقاً من الخاص، حيث الحديث عن تنقله من مدينة إلى أخرى، والتحاقه بالسياسة، وأبنائه وفرحة الأحفاد، ليضيء على شيء من تفاصيل حياته ومنعطفاتها، ببساطته الممتنعة المعهودة، فنرى خلف التفاصيل الصورة الأكبر، صورة الديناميّات الثقافية الفلسطينية والعربية، والتحديات السياسية والاجتماعية.

يتلو شقير قصّته في «تلك الأمكنة»، ولكن، كالعادة، نقرأ من خلفها، قصة المدينة وأهلها..

"حين عدتُ إلى القدس في العام ١٩٩٣، بعد غيابٍ قسريّ دام ثماني عشرة سنة، أمضيتُ سنة كاملة وأنا أعيد ترتيب أوضاعي الخاصة، كي تكون حياتي في الوطن ممكنة.. كانت العودة إلى المكان الأول مثيرة للبهجة، إلا أنّ إعادة التموضع في المكان لم تكن سهلة، إذ لابدّ من تأمين سكنٍ لي ولزوجتي ولابنتي، ولابدّ من وقتٍ لمدّ جذوري من جديد في أرض الوطن.. كان

بيت العائلة الذي عشت فيه حتى العام ١٩٧٤ مخصّصاً لوالدي ووالدتي، ولم أسكن في البيت الجديد الذي أنهينا، أنا ووالدي، الإشراف على تشييده، سوى أشهرٍ معدودات قبل اعتقالي وإبعادي من السجن إلى لبنان. بعد ذلك بادر والدي إلى تقسيم أملاكه بيننا نحن أبناؤه الثلاثة، فأصبح ذلك البيت لشقيقي الأصغر.. أقمنا أنا وزوجتي وابنتي شهوراً عدّة في بيت ابني خالد الذي لا يكاد يتّسع له ولزوجته ولطفلهما.. فكّرت باستئجار بيت، ولم يكن السكن بالإيجار مُستساغاً بالنسبة إليّ، جرّبته وأنا مقيم في شقق في بيروت وبراغ وعمّان. كنتُ أثناء إقامتي في بيت لا أملكه، أظلّ نهباً لشعور خفيّ بأنني سأغادر هذا البيت ذات يوم إلى جهة ما- فلا أشعر بالارتياح.. قمت بمعونةٍ من الأهل والأصدقاء، بتشييد بيت صغير على أنقاض غرفةٍ قديمةٍ بناها أبي قبل هزيمة حزيران ١٩٦٧».

شقير طفلاً

وعاد شقير بالذاكرة بعيداً، فكتب: حين بلغت الخامسة من العمر سمعت صوت انفجار قويّ في أحد أحياء القدس، ومنذ تلك اللحظة لم يتوّقف صوت الانفجارات وإطلاق الرصاص وتحليق الطائرات الحربيّة إلا على فترات.. في السابعة من العمر كتبتُ أولى الكلمات. أحببتُ المدرسة التي جعلتني صديقاً للكتاب. خاطت لي أمّي حقيبة من قماش، وضعتُ فيها كتاب القراءة وكتاب الحساب ودفترين وقلم رصاص ومبراة وممحاة.. كنت مغتبطاً بالمعارف الأولى التي شحذت وعيي الطفل، مثلما اغتبطتُ بعالمي الجديد الذي لم يعد مُقتصراً على البيت وعلى من فيه من أهل، وعلى من يجاور أهل البيت من أقارب. ثمّة تلاميذ قادمون إلى المدرسة من كل أحياء القرية، وثمّة معلمون، منهم من يتعامل مع التلاميذ بتفهم واحترام، ومنهم من يقسو عليهم، ولا تفارق العصا يده طوال وقت الدوام المدرسي.. حاولت أنا وأطفال آخرون، الردّ على عصا المعلم بدم الحراذين، كنّا نرقب هذه الكائنات الخشنة وهي تهزّ رؤوسها فوق السنابل الحجرية، لتؤدّي ما اعتقدنا أنها صلاة، نحاول القبض عليها قبل أن تختفي في شقوق السناسل.. بعد جهود مثابرة نقبض عليها، نصبغ راحات أكفنا بدمها، الدم

الذي لم ينجح في تخفيف الألم الناتج عن عصا المعلم.

واعترف شقير: بهرتني القدس حينما دخلتها أوّل مرّة برفقة أبي، بهرتني الشوارع وكثرة السيّارات والناس، بهرتني الحوانيت بما اشتملت عليه من دمى وألهاب ومن مواد غذائيّة وملابس، بهرتني تلك المدينة، ولم تغادرني منذ ذلك الوقت.. حين بلغت التاسعة، شاهدتُ لأوّل مرّة ما في صندوق العجب من مناظر مُدهشة. كنّا: أنا وجمهرة الأطفال، نتحلق من حول صاحب الصندوق الذي اعتاد أن يقف قريباً من ملعب المدرسة، وهو يصدح بصوت المنغّم الممطوط معلناً عمّا في صندوقه من مفاجآت «يا الله.. اتفرج يا سلام على البطل الهمام».. دفعتُ له نصف قرش من مصروفي اليومي، ثم ثبّت عينيّ على عدستين من زجاج، وشاهدتُ العجب العجاب. كان صاحب الصندوق يطوي الصور الملوّنة بآلةٍ لها مقبضٌ معدنيّ، ويطلق شروحه المثيرة التي تصف عنترة والزير سالم وكلّاً من كليب وجسّاس.. كنتُ مبتهجاً إلى أقصى حد وأنا أرى عالماً مدهشاً لم أشهده من قبل.

ومما ذكره شقير حوله عائلته ويومياته وإياها: كان أبي يشتغل في فلاحة الأرض عندما لا يظفر بفرصة للعمل في شقّ الطرق في قرى القدس أو رام الله أو أريحا أو بيت لحم أو الخليل. كانت لدائرة الأشغال العامة مكاتب قريبة من شارع صلاح الدين في لقدس. أتمشّى في ذلك الشارع بعد دوامي المدرسي، أرقب مكاتب الدائرة والآليات الجاثمة في ساحتها، وأقول لنفسي: «هنا يتم اتخاذ القرار بتشغيل أبي في شق الطرق، خمسة أو ستة أشهر في السنة».

"كنتُ أركب حمارنا الأبيض وأذهب لملاقاة أبي العائد من ورشةٍ في إحدى القرى البعيدة، أنتظره في موقع (راس كوبسا) القريب من قرية أبو ديس، عند موقف الباصات القادمة من الخليل، لكي يركب الحمار ونعود معاً إلى البيت في المساء.. وكنّا في بعض الأحيان نقتني عنزتين أو ثلاث عنزات، نسرّحها في أرضنا القريبة من البيت لكي ترعى العشب، ونقتات بحليبها مع الخبز والشاي، لكني لم أكن أقترب من فرس جدي، كان لها سقيفة تعيش فيها بعيداً عن الحمير والكلاب والماعز والدجاج. كنتُ أنظر إليها بتبجيل خاص نابع من مكانتها في نفس جدي، ومن مكانة جدي في العائلة (...) كنتُ أخشى البغال. ذات مرّة، رفس بغلٌ

أحد أبناء قريتنا وقتله، ضربه بحافره الصلد على صدره ومات. ومنذ تلك المأساة صار الأهل ينصحوني بالابتعاد عن البغال".

السواحرة القديمة والسواحرة الجديدة

ويلاعبنا شقير بحكايته والعائلة ما بين سرد واستعادات سردية، فنراه يكتب: وُلد أبي في بريّة السواحرة، في بيت من شعر الماعز، وولدت أمّي في بيت من شعر، ولما انتقلت عشيرة الشقيرات التي أنتمي إليها من البريّة إلى مشارف القدس، بني جدي بيتاً من حجر مكوّناً من ثلاث غرف وليوان على شكل زاوية قائمة.. كان بيت جدي الذي خصّ والدي ووالدتي بغرفةٍ فيه من أوائل البيوت التي بُنيت في العام ١٩٣٨ في القرية التي سيطلق عليها اسم «جبل المكبّر»، أو عرب السواحرة الغربية، تمييزاً لها عن الجزء الآخر من القرية، السواحرة الشرقيّة.

وتابع: أذكر مثل حلم غامض سنواتي الأولى في تلك الغرفة.. في العام ١٩٤٥، كان عمري أربع سنوات حين بنى أبي غرفة ملاصقة لغرفتنا هذه، وفتح شبّاكها الغربي ليُصبح باباً يوصل بين الغرفتين. صرنا نسمّي غرفتنا: الدار العتيقة، والغرفة الثانية: الدار الجديدة.. أصبحت الدار الجديدة مُخصصة لنوم أبي وأمّي. وفي النهار يجري استخدامها مضافة لاستقبال الضيوف، ولجلوسهم على فرشاتٍ من صوف مصفوفة على أطراف الغرفة مع وسائد للاتكاء عليها، وللنوم على الفرشات عندما يحل وقت النوم.

"في العام ١٩٤٨، غادرنا بيتنا إلى السواحرة الشرقية، تحت وطأة العدوان الذي قامت به إحدى العصابات الصهيونية المسلحة ضد جبل المكبّر، غبنا عن البيت أربعة أشهر، ثم عدنا إليه، وكم سررتُ وأنا أعود إلى البيت، وإلى الركن الذي كنت أنامُ فيه.. لدارنا الجديدة بابٌ حديديّ متين، ولها ثلاثة شبابيك مستطيلة تنفتح غرباً على كروم العنب والتين، وشبّاك رابع ينفتح شمالاً على القدس وسورها العتيق. أمّا حيطان الدار فهي مزوّقة من الداخل بدهانٍ ملّون، وبأشكال هندسية بهيجة.. ولدارنا القديمة بابٌ حديديّ متين، وفيه طاقة مربّعة مزنّرة بشبكٍ من حديد، نفتحها في ليالي الصيف لكي ترسل إلينا نسائم منعشة تخفف من حرارة

الطقس، وفي ما بعد أحضر أبي أحد البنّائين وفتح في الحائط المحاذي للباب نافذة لتمرير النور والهواء إلى الدار.. في هذا البيت تعلّمت أولى الكلمات، وفيه كتبت قصّتي التي نُشرت في المجلة الثقافية المقدسية، وأنا في الحادية والعشرين من العمر».

بيوت عدّة

"سكنتُ في بيوت عدّة"، قال شقير، قبل أن يُفصّل: سكنتُ في بيت من غرفة واحدة قريب من الجامع خاص بأقارب لعائلة أبو حمدة أو حمدي، وهي من أشهر العائلات في القرية. سكنتُ في ذلك البيت مع زميل آخر كان يدرّس معي في مدرسة القرية التي درّست فيها لأربع سنوات. كان قرب المنزل من الجامع يغري بعض الخارجين من الصلاة لزيارتنا وللسهر عندنا ساعة أو ساعتين، ولتبادل أحاديث شتى عن القرية وعن المعلّمين الذين عملوا في مدرستها، وعن مرشّحي البرلمان الذين زاروها إبّان قيامهم بالدعاية الانتخابية لأنفسهم، كان اسم فائق ورّاد، أحد قادة الحزب الشيوعي ومرشّحيه إلى البرلمان الأردني، يتردد على الألسنة باستمرار.. سكنتُ في بيتٍ آخر من غرفة واحدة عند طرف القرية الغربي مطل على حقول وأشجار صبّار وزيتون، مطل كذلك على الساحل الفلسطيني. جاءت أمي ومعها شقيقتي الصغرى نعيمة للسكن معي بضعة أسابيع، ولإعداد الطعام لي. ولمّا عادت هي وشقيقتي إلى بيتنا في جبل المكبّر، عدتُ إلى الاعتماد على المعلبات وعلى البيض المسلوق والبطاطا المسلوقة (...) سكنتُ في غرفة في وسط القرية محاطة بالجيران والجارات من كلّ جهة، وكان عليّ كلما خرجتُ منها أو عدتُ إليها أن أرفع صوتي قائلاً: يا ساتر، لكي تتنبه إلى وجودي النسوة الجالسات في الحوش الذي يتوسّط البيوت.. سكنتُ كذلك في بيت قريب من مدرسة الأولاد في الطرف الشرقي للقرية».

"بعد انتقالي منها للتدريس في المدرسة الهاشمية الثانوية في البيرة سكنتُ في عدد من البيوت: بيت في الطابق الثالث في بناية مجاورة لدوار الساعة في رام الله، سكنّاه أنا وثلاثة زملاء، كان لدى أحدهم مسجّل يصدح بعد العصر وفي الأماسي بأغنيات أم كلثوم، ما يجعل القراءة

متعذرة وكذلك الكتابة.. سكنتُ في بيت واقع في حي بطن الهوا في رام الله على مقربة من الشارع الفرعي المار من وسط الحيّ، كانت له برندة مطلة على كروم العنب والتين والزيتون وأشجار أخرى. كنتُ أعود من عملي في المدرسة، أجلس بعض الوقت في البرندة، وأذكر أنّني كنت في تلك الفترة أقرأ كتاب (المعذّبون في الأرض) لفرانز فانون، وفي غيره من الكتب.. سكنتُ في بيت على مقربة من دوّار المنارة، في هذا البيت، كنت أقرأ بجد واجتهاد وكتبتُ بعض القصص، وسكنتُ في بيت آخر مع ثلاثة زملاء على مقربة من شارع الإرسال، وكما هي العادة في السكن المشترك، لم أتمكّن من امتلاك الوقت المطلوب للقراءة والكتابة، فقد كنّا نمضي الوقت في تحضير الطعام، وفي الاستماع إلى الأغاني التي يبثها المذياع وإلى نشرات الأخبار، وكنّا نمضي وقتاً غير قليل في الدردشة الفارغة حيناً وفي المناقشات السياسية حيناً آخر".

"في صيف العام ١٩٦١ تزوجتُ فتاة من عشيرة الجعافرة، وهي إحدى عشائر قريتي، وكان أهملها مقيمين في بلدة صويلح الأردنية منذ نكبة العام ١٩٤٨. كنت أعود إلى بيتي في جبل المكبّر عند نهاية الأسبوع، أقضي يوم العطلة مع زوجتي نعيمة وبقية أفراد العائلة، ثم أعود صباح السبت إلى المدرسة، وفي العام ١٩٦٥ ولد طفلنا الأول، خالد، وفي العام ١٩٦٦ سكنتُ في بيت مكوّن من غرفة قريبة من دوار المنارة".

سياسة

ولم يغفل شقير الحديث عن السياسة، سواء في ستينات ما قبل الاحتلال الإسرائيلي، أو ما بعده، فما قبل الاحتلال، تحدث عن حملة اعتقالات واسعة ضد الشيوعيّين والقوميّين العرب والبعثيّين، وكيف كان يحرص عند خروجه من مسكنه لحضور اجتماع حزبي في رام الله، إلى تجنّب المشي في شوارع المدينة الرئيسية، وعن الاجتماعات في بيت منعزل في أحد أحياء رام الله، كان يقوده «الرفيق عبد الحليم شتات ساعة أو ساعتين»، ليعود بعدها إلى مسكنه وبحوزته أعداد من جريدة "التقدم"، وكان اسمها "الجماهير"، وهي جريدة سرية للحزب الشيوعي، ومحظورة، كما تحدث عن انشقاق الحزب في العام ١٩٧٠، وزيارات

محمد البطراوي له وكانت تتم "بصحبة زوجته عايدة، كي لا تثير شبهات رجال المباحث. يُوصّل لي الرفيق وزوجته رسالة ما من الحزب ثم يغادران.. كنت أخشى أن تطالني حملة الاعتقالات في تلك السنة (١٩٦٦)، إلا أنني نجوت من الاعتقال، وربما كانت تلك مسألة حظ، أو ربّما لم يكن لي ملف حتى ذلك الوقت».

وفي موقع آخر يعترف شقير: كنتُ انتسبتُ إلى الحزب الشيوعي الأردني في العام ١٩٦٥، حيث كانت الضفة الغربية بما فيها القدس جزءاً من المملكة الأردنية الهاشمية منذ العام ١٩٥٠.. كنت في تلك الفترة أعمل مدرّساً للغة العربية والتاريخ في المدرسة الهاشمية الثانوية في مدينة البيرة.. وكانت الأحزاب محظورة.. بعد سبع سنوات من انتسابي للحزب، أصبحت عضواً في لجنة قيادة الضفة الغربية التابعة للجنة المركزية، وكنت أعمل مدرّساً للغة العربية والفلسفة في مدرسة دار الأيتام الإسلامية الثانوية في القدس. درّست طلاباً من القدس ومن القرى المحيطة بها.. كنتُ معنيّاً بالتأثير على وعي الطلاب بحيث أجندهم إلى النشاط السياسي، وإلى النضال ضد الاحتلال، وأعتقد أنني حققت نجاحاً في ذلك إلى جانب نجاحي في التدريس.

الاعتقال والإبعاد

ويروي شقير شيئاً من فصول اعتقاله «بعد الهزيمة بعامين»، ففي «ليلة من ليالي صيف العام ١٩٦٩ طوّق الجنود الإسرائيليون بيتنا في جبل المكبّر، وكان معهم أحد ضباط المخابرات. انتشروا في البيت مثل الجراد، وفتشوا كل ركن فيه، خافت أمي وارتعبت، استعان أبي بقدرته على الإقناع، لعل الضابط يؤجل أمر الاعتقال ولكن دون جدوى.. اقتادني الجنود وضابطهم إلى سجن المسكوبيّة في الجزء الغربي من القدس، وإلى سجن صرفند العسكري وسجن الدامون الواقع على مقربة من حيفا. أمضيتُ في الزنازين وفي غرف السجون عشرة أشهر عدتُ بعدها إلى البيت».

"بعد ذلك بثلاث سنوات أجبرتُ مجدّداً على مغادرة البيت، ففي ليلة من ليالي خريف

١٩٧٣، طوّق الجنود الإسرائيليون بيتنا، ولم أكن في البيت. كانت حرب تشرين تدق أبواب المحتلين، وتُبشّر بأمل ما. اختفيت في نابلس وفي رام الله، ولم أعد إلى البيت إلا بعد أسابيع من انتهاء الحرب.. لم يطل الوقت حتى ألقوا القبض عليّ بعد شهرين، لكني لم أمكث في المكتب التابع للمخابرات سوى ساعة من الزمن. ثم بعد أشهر معدودات اعتقلت من جديد، وبقيت في السجن عشرة أشهر، ثم أبعدت إلى الحدود اللبنانية مع أربعة رفاق".

وواصل شقير الحديث: استضافتنا منظمة التحرير الفلسطينية في فندق «البوريفاج»، كانت المنظمة في أوج نشاطها على مختلف الأصعدة، ولها مكاتب ومؤسسات كثيرة في الجزء الغربي من بيروت.. جدّدتُ علاقتي مع أصدقاء كنتُ أعرفهم من قبل، وتعرّفتُ إلى آخرين من كتّاب وأدباء ومثقفين، ومن قيادات التنظيمات الفلسطينية وكوادرها.. جاء والدي من القدس لزيارتي، كان يحاول إخفاء همومه عنّي، إلا أنني خمّنت من نظراته ومن شرود ذهنه بعض هذه الهموم. حدثني عنه وعن والدتي وعن زوجتي وأطفالي وعن العائلة. أبدى ارتياحه لأنني غادرت السجن، لكنه تمنى لو أنني عدتُ من السجن إلى البيت.. انتقلت بعد مغادرة الفندق إلى بيوت عدّة، كان آخرها بيت واقع خلف مبنى جامعة بيروت العربية.. عملت بضعة أشهر محرّراً في مجلة "فلسطين الثورة".. عشتُ في بيروت أقل من سنة، وفي عمّان إحدى عشرة سنة، انتقلت بعدها إلى براغ وعشت فيها ثلاث سنوات، لأعود مجدّداً إلى عمّان للإقامة فيها ثلاث سنوات قبل العودة إلى القدس.

عمّان والكتابة للتلفزيون

حين غادر شقير بيروت إلى عمّان عمل مدرساً ثم مديراً في عدد من المدارس لعشر سنوات، عمل فيها كذلك في صحيفة «الأخبار» ثم في صحيفة «الرأي»، وبدأ الكتابة للتلفزيون بمسلسل «عبد الرحمن الكواكبي» وأخرجه صلاح أبو هنّود، وقام بأدوار البطولة فيه: نبيل المشيني وسلمى المصري وعدد آخر من الممثلين والممثلات.. قال: كنتُ معنيّاً بالكتابة عن هذا المصلح الديني الرافض للاستبداد، في زمن كان الاستبداد يخيّم فيه على كثير من البلدان العربية.

كتب شقير خمس مسلسلات أخرى، تفاوتت، باعترافه، فيما بينها «من حيث المستوى الفنيّ وعمق المضمون، وربّما أكثرها اتقاناً بعد الكواكبي»، كما يرى صاحبها، مسلسل «دروب لا تلتقي» وأخرجه موفق صلاح، وقام بأدوار البطولة فيه: محمد القباني، وجولييت عوّاد، وزهير النوباني، وآخرون.

العودة إلى القدس

في الثلاثين من نيسان ١٩٩٣ عاد شقير من عمّان إلى القدس.. «عدتُ إلى مكاني الأول، وكم سررتُ وأنا أذهب بعد أسبوع واحد من العودة إلى الأماكن التي لطالما أقمتُ فيها أو تردّدتُ عليها. تفقدت المقاهي والمطاعم التي دخلتها من قبل في القدس ورام الله وبيت لحم، وكذلك البيوت التي سكنتها في رام الله، وفي بيت حنينا، وفي بعض قرى فلسطين».

إلا أن شقير وصف «هذه العودة» بـ»المنقوصة»، فالقدس «ما زالت عرضة للتهويد، والوطن ما زال مكبّلاً بالقيود.. ابتداء من ذلك التاريخ، أعدتُ وصل ما انقطع بيني وبين مكاني الأوّل، المكان الذي شهد قصصي الأولى، غير أن العودة إلى الوطن ليست مثل الخروج من البيت صباحاً والعودة إليه مساء.. أمضيت سنة كاملة، وأنا لا أستطيع القراءة والكتابة، كنت مشغولاً بترتيب أمور معيشتي».

عمل مدّة عام محرّراً في صحيفة «الطليعة» الأسبوعية الناطقة بلسان حزب الشعب ثم رئيساً للتحرير، وعاد إلى الكتابة بعد انقطاع، نشر في «الطليعة» مقالات أدبية وسياسية عديدة، و»التحقت بوظيفة في وزارة الثقافة الفلسطينية منذ العام ١٩٩٥».. أثناء ذلك كتب شقير مسرحية «ديمقراطي بالعافية»، وعرضت في رام الله والقدس وغيرها من مدن فلسطين، وكان كتابه «ظل آخر للمدينة» قد صدر في رام الله قبل سفره إلى الولايات المتحدة الأميركية للالتحاق ببرنامج الكتابة الدولي الذي انعقد في جامعة «أيوا» لثلاثة أشهر، ما بين آب وتشرين الثاني من العام ١٩٩٨، مع عدد من الكاتبات والكتاب من مختلف البلدان، ومن هنا واصل الكتابة، بل جرّب كتابة السيناريو بعد سنوات.

"انهمكنا أنا والزميلة ليانة بدر، أشهراً عدّة في الإعداد لكتابة سيناريو فيلم عن القدس، ثمة متعة في دخول تجارب كتابية جديدة، رغم المحاذير المترتبة على ذلك، واحتمالات الإخفاق وما يتبع من إحباط.. قطعنا شوطاً في كتابة السيناريو السينمائي، ولم أكن متأكداً ممّا كتبناه حتى الآن، خلقنا شخصيات لها علاقة حميمة بالقدس، جسّدنا في مشاهد درامية بعض ما تتعرض له المدينة من ممارسات. ولمّا أنهينا كتابة السيناريو قرأه المخرج هاني أبو أسعد وحذف المشاهد التي لم تكن لها ضرورة درامية، وأعاد ترتيب الباقي، لإضفاء شيء من الغموض على بعض الشخصيات.. أخيراً، وبعد أسابيع من تسليم النص للمخرج، انتهت علاقتي بسيناريو (القدس في يوم آخر). قال إن ما كتبناه أنا وليانة أقرب إلى الكتابة التلفزيونية منه إلى الكتابة السينمائية. وكان كلامه صحيحاً، فانسحبتُ من المشهد بهدوء، ومن دون حجج أو ادعاءات».

مع درويش

كثيرة هي حكايات «تلك الأمكنة»، من بينها تلك السردية القصيرة التي جاء فيها على لسان شقير: زرت محمود درويش في مكتبه بمركز خليل السكاكيني، أهديت له كتابي الأخير «مرايا الغياب»، ثم تحدثنا في شؤون شتّى.. تحدّثنا عن كثرة الكتب الجديدة التي تصدرها دور النشر، وعن ضرورة اللجوء إلى الاختيار، لأن من المستحيل أن نتمكن من قراءة كل ما يصدر من كتب. تحدّثنا عن ضعف عادة القراءة في المجتمعات العربية، وعن الخراب الذي تنشره الأصوليّات وأنظمة الحكم المستبدّة في هذه المجتمعات، وعن سلبيّات الشيخوخة، وكيف يترهل جسم الإنسان ويعتريه الضعف. قال محمود إن الزمن يفعل فعله، والزمن هو عدو الإنسان.. تشاورتُ معه في الفكرة التي أطلقها نعيم الأشهب بخصوص إصدار مجلة شهرية أو فصلية يشارك في تحريرها كتّاب علمانيّون، أبدى تحفظه على الفكرة، لأنها ستظل نخبويّة. قال إنّ المطلوب وسيلة إعلامية أكثر انتشاراً لكي تنافس الفضائيات التي تروّج على نطاق واسع للفكرة الأصولية.

ليس كأي سيرة

شهد العام ١٩٩٨ ولادة كتابة «ظل آخر للمدينة» لمحمود شقير، وهو كما وصفه «سيرة للمكان، وفيه بعض أجزاء من سيرتي»، ليواصل كتابة سيرته متوزعة بين عدة كتب، فأثناء مشاركته في برنامج الكتابة الدولي الذي انعقد في العام ١٩٩٨ واظب على تدوين يومياته التي شكلت جزءاً من كتاب «مدن فاتنة وهواء طائش» الصادر في العام ٢٠٠٥، وهو حسب صاحبه «مُكرّس للمدن التي زرتها في ثمانينات وتسعينات القرن العشرين وما بعد ذلك، وفيه تفاصيل من سيرتي».

وفي العام ٢٠٠٧ أصدر شقير كتابه «مرايا الغياب»، الذي «وردت فيه أجزاء من سيرتي، وأنا أتحدث عن شقيقتي آمنة، وعن الرفيقين بشير البرغوثي وسليمان النجّاب، وعن الصديق الروائي الأردني مؤنس الرزّاز»، كذلك له كتاب آخر هو «قالت لنا القدس» الصادر في العام ٢٠١٠، و»المُكرّس للقدس على وجه الخصوص، اشتمل على أجزاء من سيرتي ومن علاقتي بالمدينة بوجهٍ عام».

ولفت شقير «صدرت اليوميّات التي واظبت على تدوينها منذ العام ١٩٩٦»، في كتاب «مديح لمرايا البلاد»، الذي «يغطّي بعض تفاصيل سيرتي الشخصية وأسفاري في الأعوام ما بين ١٩٩٦ و١٩٩٩»، وصدر في العام ٢٠١٢، أما كتاب «أنا والكتابة.. من ألف باء اللغة إلى بحر الكلمات» الصادر في العام ٢٠١٩، فيصفه شقير بأنه «ضوء كاشف على ما له علاقة بالكتابة وبمكانتها في سيرة حياتي».

في «تلك الأمكنة»، وحسب شقير نفسه، «تفاصيل من سيرتي ويومياتي، ومن أسفاري داخل فلسطين وخارجها، وفيه وصف للأمكنة التي عشت فيها وعاشت فيّ، في العشرية الأولى من القرن الأول للألفية الثالثة، وما قبل العشرية بكثير، وما بعد العشرية إلى العام ٢٠١٥، على أمل أن أتبعه بكتاب آخر يغطّي الفترة من حيث انتهى الكتاب الأول إلى وقتنا الراهن وما بعده بسنة واحدة، حين أكون بلغت الثمانين من العمر».

"هنا في هذا الكتاب تجربة في الحياة أدوّتها لا للتفاخر أو للمباهاة، ولا لادّعاء بطولات أو

للوقوع في المبالغات، بل للرّد على من ينفون وجودنا، وينكرون علينا حقّنا في وطننا، لكي يبرّروا استيلاءهم عليه استناداً إلى الخرافة والأكاذيب المسندة بقوة الغزو والعدوان (...)".

واستعاد شقير في وصف «تلك الأمكنة»، توصيف ناشر كتابه «أنا والكتابة»، حين قال «إنّ محمود شقير يستدعي سيرته الذاتية وسيرة الأمكنة والشخصيّات التي رافقته في مسيرته الأدبية، وينتقل بين مدن الحياة والذاكرة: بيروت، وعمّان، وبراغ، والقدس التي ظلت غصناً يانعاً في قلبه رغم سنوات المنفى.. ويقلّب الكاتب سيرة كتاباته، ويسائلها، فيتحوّل إلى قارئ لمدوّنته المتناثرة عبر الزمان، دون أن يلتزم بخط زمني متتابع، بل يعمد إلى تشكيل سيرة الكتابة وفق خط زمني متشابك ليخرج عن الرتابة، ولتكون الكتابة رحلة الذات وهي تتملى مرآتها في وجوه الأمكنة والناس والوقائع التي مرّت بها القضية الفلسطينية».

فضلت في استعراض هذا الكتاب، المليء بالقص الشخصي، أن أترك الحديث لصاحبه، فلا شيء أصدق من ذلك، ولا يمكن إضافة ما يشكل إضافة فعلية على ما قال وكتب حتى عن الكتاب نفسه، لأترك العلاقة بينه وبين القارئ، كما أرادها مباشرة، ناقلاً لهم الكثير عن الأزمنة والشخوص غير المتخيلة والأمكنة، عبر سيرته هذه، وخاصة القدس، فهو كما نُقل في الغلاف الخلفي للكتاب عن الروائي الفلسطيني فاروق وادي «عاش الحياة في الكتابة والكتابة في الحياة، ليروي، كما عبّر ماركيز ذات مرّة.. تشبّث شقير بالكلمات بإصرارٍ مثلما تشبث بالقدس، مدينته المتفرّدة بين المدن».

ملاحظات نقدية حول رواية عربية معطوبة

أحمد المديني

نريد أن نعنى هنا بموضوع يبتغي الشمول في عمومه، ويتأسس كما يتكون من مجموع مسائل مفردة ولها خصوصيتها في كليته، وهي مجتمعةً ومترابطةً ما سيرسم إطاره وعناصره. للتدقيق، يحسن بنا أن نشرح مفردات العنوان هي خير هدي لما نقصد النظر فيه ومعالجته.

أولها، أن البُغية تقديم ملاحظات، ونعني بها ما وقفنا عليه واستخلصناه من قراءة طويلة وممتدة على سنوات لمجموعة أعمال في متن روائي كبير ومتنوع نوعاً وفناً وأعماراً وبلداناً، بما يسمح برصد رؤية شمولية، ما أمكن. تقتضي الملاحظة رصدَ فكرة وتعيينَ شيء على سبيل الإشارة والتنبيه أكثر مما للتحليل وتعميق النظر، فقد سبق لنا في دراسات سابقة أن طرحنا وبيّنا أطروحاتنا وفرضياتنا النظرية وذلك بين التقديم الموسّعِ والتحليل المفكِكِ، والباني بالقراءة والدرس للنصوص السردية المختارة والمعالجة هنا بنظر وذوق. وبما أن نسقها هكذا، فهي لا تحتمل التفصيل والتوسّع، ويمكن أخذها بمثابة مفاتيح ومداخل لدراسات وتأملات لاحقة، لنقل إنها طرز من المقدمات والملخصات المركزة حصيلة قراءة. ونعني بالشمول، أن ملاحظاتنا وهي مُوَلّدة من نصوص محدّدة واستناداً إلى مبناها ومعناها، ومن غير أن تحظى بوضع النموذج والمثال المصطفى، بلا استثناء، قابلة لأن تنطبق وتنسحب على أخرى مماثلة أو مجاورة بهذا القدر أو ذاك، نعتبر أن لا أدبية لنص يعدم أسلوبه المميز.

ملاحظاتنا، تتجه للرواية كجنس أدبي، فقط، والسرد التخييلي كتابة، على نحو أعم. هنا، أيضا، ننبه، أننا لا نقصد الرواية العربية بإطلاق، فتاريخُها تجاوز القرن، كفيل بمتنها الكبير، وإنما، فضلا عن نصوص معدودة لحقبة محددة، مثلت ضرباً من الانتقال والتحول في الأشكال والأساليب، من نحو، وشهدت وما تزال تتواصل كثرة إصدارات تجعل من هذا الجنس الأدبي الأول في النتاج الأدبي العربي المعاصر، من نحو آخر. ولا بأس لو أشرنا بأن الملاحظات قد لا تسمِّي حتما هذه الرواية وتلك، فبما أنها عامة اقتضى أن تستقى زُبدتها من مخاض كبير، الهدف تدوين عناوين بارزة لنصوص في سياق وإنتاجية متن كلي، وإلا فإن التخصيص يُلزم بتفكيك بناء الرواية العربية كله من جديد، والحقبة المعنية تحديدا، وإعادة تركيبها تحليلا وفهما وتأويلا، وما هذا بطبيعة الحال غرض عملنا هنا ولا غايته. بقي أن نشرح بعض الشيء ما نعني بالعطب، ومن إلحاق صفة العطب بالرواية العربية، فإننا بنزعنا عنها ال التعريف قلصنا من حجمها وفي الوقت ضمنّا التعميم والخصوص، في آن. العطب، لغة، ولا، خلل وعيب وفساد وانكسار يصيب الإنسان والطبيعة، وهو نقيض للسلامة ولذلك يصل معناه إلى دلالة الهلاك. هو ضرر يلحق كل ما هو مادي، وينصرف كذلك إلى ما هو معنوي ورمزي مثل الأفكار والإبداع محمولة في النصوص، بذا فإن قولنا رواية معطوبة يفيد وجود تعويق وعاهات وأضرار مخلة بسلامتها، بصحتها (الجسدية) كما لو كانت كائنا حيا، وهي كذلك من حيث تشتمل على كائنات وعوالم وأحداث ضمن بناء ونسق.

تفضي بنا صفة العطب هنا إلى استحضار الوجه المغيّب الذي تحيل إليه، إلى الصحة، وضمنا وجود متنين روائيين، واحد سليم، وآخر ليس كذلك. نحن أبعد من أن نصدر حكما جازماً بقدر ما نصف، ولا يظهر أننا نستثني ماضي الرواية بقدر ما نعنَى بالمتأخر منها والحاضر. السبب، أن ماضيها يمثل نشأتها ومراحل تكوينها والتمرين على القواعد وخوض تجربة أجناسية من الطبيعي أن تشوبها أخطاء وتعرف عثرات، ومع كل عمل جديد كانت الرواية العربية، عبر هذه المراحل، تقطع خطوة وتضع لبنةً في بناءٍ طفِق يرسَخ ويكبُر ويعلو طبقاتٍ بشكل منظم ومنسّق، أي أني لا أتحدث عن نصوصها البسيطة والمتمحّلة، ابتداءً من منتصف الأربعينات، وإلى

حدود ثمانينات القرن الماضي، إذ استقرت وعمّقت جذورَها في تربة أدبنا الحديث، الواقعية بتلويناتها وتعدد منظوراتها هي الرؤية الأم وما يلي جداول تخرج وتصب في نهرها الذي بدأ يجري بلا انقطاع ويشهد سابحين كثرا كتابا وقراء خاصة، فلا رواية ولا أدب عموما يعترف به ويقبل العيش والتطور بدون الارتباط بدينامية وعلائق اجتماعية، القراء علاقة أساس فيها بما أنهم جزء من التجربة وسمادها ومتلقون فاعلون تحتاج إليهم خَلْقاً واستقبالاً.

نحسب أن الحقبة الموالية وامتداداً إلى سنوات الألفية الجديدة هي ما شهد الأعمال التي اتسمت بالانزياح عن الرؤية الواقعية والخطط الفنية لبلورتها، ويعد نجيب محفوظ معلمها ورمزها الأول، ولا اختزال في قولنا، فقد اجتمعت عند أبي (الثلاثية) التيارات والتجارب المختلفة التي دارت في فلكها، ولم يخف الجيل اللاحق أنه جاء ب(حساسيته الجديدة) التي نظّر لها أحد كبار خصومه الفنيين إدوار الخراط لينقلب عليها ويقدم شخصيات وأزمات من زمنه وعوالم أخرى مستجدة، وصيغا في السرد والتخييل تفكك خيوط الثوب الكلاسيكي وتطرز على هواها. هل من شك أن التمرد على ما اعتُبر قيودا، وإحداث شرخ بل شروخ من قِبل كتاب شباب جامحين متمردين على الآباء وباحثين عن لغة وأخيلة وأساليب ونماذج اجتماعية غير مسبوقة، هذا وسواه كثير من تعابير التمرد أنجب رواية / روايات عربية جديدة، وصفة الجدة هنا لا تعني بالضرورة الابتكار بقدر ما تمثل صورة لمرحلة من الزمن ومضمون الثقافة ونوعية الرؤية الاجتماعية، وبالطبع، الحساسية والمنظور الذاتيين في موهبة مفردة ومتفاعلة مع محيطها، بما يصنع صوتا وشخصية أدبية لجيل، قل لأجيال. إن كتابةً هذا منشأُها ومنحاها وأرضيتُها لا مناص من أن تتعثر ولم يتيسر لها الاكتمال والنضج من داخل منظومة مفاهيمها وصيَغها إلا بعد عديد اختبارات، من أقواها وأبرزها فيما سمته حداثتُها شعارا ومنهجا نعين التالي:

١ـ إحداث قطيعة مع السرد التقليدي، على مستوى الشكل، في كسر التسلسل الخطي المرسوم بالتعاقب الزمني؛ ٢ـ تفكيك الوحدات الثلاث المعهودة؛٣ـ اعتماد الاسترجاع والاستشراف؛ ٤ـ استبطان الشخصية؛ ٥ـ تعدد مواقع التبئير؛ ٦ـ مركزية ضمير المتكلم بدل ضمير الغائب

المعتمد في الرواية الواقعية؛٧ـ من هنا نزوع كثيف نحو التّذويت (جعل الذات بؤرة بمركزية ضمير المتكلم)؛ ٨ـ تداخل السرد وتراوحه بين السارد والمؤلف والشخصية؛ ٩ـ استخدام متصل للمونولوغ الداخلي؛١٠ـ فتنتهي أحادية الشخصية والصوت، وتحلّ شخصيات هامشية في مواقع التمثيل ومعها ناسها وفضاءاتها وهمومها، لقد سقط مثال البطولة المركزية في نطاق الاهتزاز الذي عرفه المجتمع/ المجتمعات العربية على الصعد كافة، واختلت ثوابتُه بعوامل داخلية وخارجية، لذلك تطلبُ رواية مختلفة لا تحاكي ولكن تفكك وترصد الشتات، وبنيتها الانشطار والشذرات، وتتكلم بعديد لغات، ولم يعد الواقع بؤرتها ولكن واقعاً من ذات.

هذه بعض خصائص القطيعة المحدثة بين ماضي الرواية وحديثها الوليد بعدها والمرتد عليها. خصائص جزئية لا غير، أفردناها هنا خلفية وتذكيرا قبل استقصاء ما اعترى المتن الذي أسست من عيوب وأعطاب. ولا نعني بهذه اختلالات ونقصا قياسا بالمتن السابق عليها، المؤسس والمطور، نص المحاكاة الواقعي، فبما أن هذه الرواية جاءت بإبدالات تناسبها، ومن خارج السنن الفني والنسق الفكري والحقل الاجتماعي، فلا يجوز مقارنتها بها إلا من ناحية تبيان ما يستمر فيها وما ينفصل، وفرز مميزاتها بعلاقة مع تراث تنتسب إليه ولا خيار لها مهما أنكرت وتمردت بأساليب الانزياح واختراقات التجريب. أومن زيادةً على هذا بأنه لا يجوز المفاضلة ولا المقارنة داخل الأدب الواحد خاصة لأعمال ظهرت في زمنين متباعدين وفي شروط موضوعية مختلفة. منه، أيضا، أن لا معنى للقول بالتجاوز، وهي كلمة تستخدم أحيانا من لدن كل جيل لاحق، بوازع قتل الأب والاعتداد بأنا نرجسية تبحث عن مكان تحت شمس الأدب ترى أن السلف يشغله كاملا بظلاله ولا يبقي لها إلا الهامش والفتات إن أبقى. هو صراع قائم منذ الأزل، ويعود بالخير دائما على الفكر الإنساني وإبداع البشرية بما أنه يحفز على التنافس من أجل العطاء وشغل كل جيل لزمنه بما يبرر وجوده في المكان والزمان. هنا يأخذ التجاوز معنى وقتيا لأن التاريخ في جوهره الخلّاق استمرار لا تراجع ونكوص، وإن حدثت فيه انتكاسة وتراخٍ فهذا جزء من مساره ومرتبط بصيرورته تظهر الفارق لا محالة. الإبداع العربي، والرواية في قلبه، تتحرك وتعمل بين طرفي هذا الجدل، وكلما كان حيا

ومتناميا حدث التجاوز، أي اكتساب الأدب لملامح جديدة وينحت فيه زمنُه وواقعُه خطوطه من وحي مواهب الذوات وأحاسيس وبالتمثلات المنتجة له، ليأتي تعبيراً عن حاضره ويدشن أفق غده، الذي سيتجاوزه حتما، وسوى هذا نعرة وكلام عقيم، لا دخل له في مجال الأدب.

وعليه، فإن ما نبغي معالجته في القسم الثاني من المتن الروائي العربي اللّاحق على التأسيس والترسيخ، تعددت مسمياتُه وصفاتُه بين التجديد والتحديث والتجريب والحداثة، ومنها كذلك الاستمرار على النهج المحاكاتي الواقعي، لِم لا، هو بعض، وليس كلّ ما يجتمع فيه من خصائص تبرزه كيانا نصيا قائم الذات، مكتمِلاً حسب الأدوات والمواد البانية له فنا وكونا. ما نروم الوقوف عليه بالتعيين والحصر، كما أسلفنا، أقلّ من التحليل، هو أن الرواية العربية، وأعي مزلق التعميم والتفاوت بين كتابتها من بيئة عربية إلى أخرى ومستويات تلقّيها ونوعه، تنتقل في السنوات الأخيرة إلى ضرب من التحلل من العناصر البانية لها، والتخلّي ولا أقول التحرر من النظام، من مقتضيات قرينة بالجنس الأدبي مهما تجدد وتهجّن وتناسخ من أضداده، يبقى محتفظا بأهم مقوماتها وإلا تحلل وزال، فيما نحن نحسب أن الرواية عندنا صارت القول البلاغي البديل للشعر الذي كان يسمى» ديوان العرب». سأسعى إذن إلى تبيان ما أعتبره خللا وأصفه بالعطب، أي العيب اللاحق بجسد نص مهيكل ومسنّن فنيا بضوابط محددة وأخرى لقحته مستحدثة فيه. هذا كله بما لا يعاكس حق التجديد والانزياح الملازم للفن، لا خلاف حوله، وإن لا ينبغي أن يتخذ ذريعة ويصبح تكأة يستند عليها قاصرو الموهبة وكتبة النصوص العرجاء، ما أكثرها، حين تضطرب المقاييس في مجالات شتى، الأدب أحدها، ويتخفف النظر النقدي من مؤونة البصر السديد، ويختلط حابل ما هو روائي بغارب إلقاء الكلام على عواهنه.

١

إن ما يسترعي انتباه دارس وقارئ الروايات العربية ـ الأفضل أن نستخدم الجمع لأنها عديد من بلدان مختلفة وبيئات أدبية متفاوتة المستويات الثقافية ـ المكتوبة في الألفية الجديدة، هو عدم انتظامها في تيار ولا خطوط بِسِمات متجانسة بما يفيد وجود وعي مشترك وذائقة لمرحلة يلتقي فيها جيل من الكتاب حول تيمات وطرائق فنية تسِمُهم وحدَهم ويهتدي بها

الدارس وإليها المتلقي. إن قولنا الرواية العربية بهذه التسمية والإطلاق مصدره، بعد كل ما تختزنه مدونة التاريخ الأدبي والسجل النقدي المتصل بها، يعني فنا أدبيا نشأ وتطور واكتسب عبر مسار توليدي وزمني خصائص أضحت مائزةً وانتظم متشكِّلاً في قوالب ووجوه ومعمار ورؤى وتيمات ومضامين، الخ.. وفي أكثر من بلد عربي، فتأتّى في الأخير مفرداً، وهو جمع، في الإسم المذكور، ولن نجانب الصواب إن وضعناه جلّه في إهاب الواقعية ونظامها. صحيح أن هذا تطلب زمنا ومرّ بعديد مراحل من التعلم وتلقي التأثير والتجربة والتفاعل مع أوضاع وأحداث كبرى صنعت المادة الروائية المطلوبة لهذا الفن، الذي لم يظهر بيُسر بسبب جِدّته الطارئة على البيئة ذات التقاليد الأدبية القديمة كتابة وقراءة، ولأن مجتمعها لم يكن قد تبلور فظهرت عندنا الرواية في مجتمع غير روائي لم تتبدل فيه العلاقات والنظم الاقتصادية والسياسية والقيم الموروثة عقيدية وإيديولوجية وخلقية، وتخلفها إبدالات حديثة من قبيل تلك التي هيأت لهذا الفن الظهور الجدي في المجتمعات الغربية ورسخته بحسم في القرن التاسع عشر. جاء التحاقُنا بالرواية شكلا لا بنية، وفضاءً للتعدد في الرأي والصوت والموقف والصراع والجدل، لذلك كانت الروايات الأولى أشبه بلوحات وشخصياتها نمطية ولغتها إنشائية وبلاغة. ما لم يمنع من اقتدار مواهب محددة على سبر البانوراما المجتمعية والتقاط الصور والنماذج والمعضلات في منعطف التحول في الأفكار والسياسة والعلاقات الاقتصادية والاجتماعية، والتبلور الحتمي بفعل عوامل داخلية وأجنبية لطبقات جديدة صاعدة متطلعة لحياة أخرى، الطبقة الوسطى أهمّها وهي التي شيّد أبو الرواية العربية نجيب محفوظ عالمه من ثقافتها وأزماتها وأجوائها وأفرادها خاصة. هو نفسُه الذي شقّ الطريق وعبّدها وكان وبقي في طليعة الكتابة الروائية إلى سنواته الأخيرة، وبرفقته وحوله آخرون من مصر والعالم العربي عملوا في المنجم ذاته وصاغوا أعمالا من عجين محيطهم وخبرتهم به، كذلك من تعاسة ناسه وأحلامهم، حتى تحولت إلى مسرح واقع فوق الواقع الحقيقي، بالمحتمل والمتخيل اللذين يُعدّان قوام هذا الجنس. بالإضافة إلى ما تحقق من تواتر وتراكم، يعنيني التواشج الموجود بين روايات هذا الرعيل بفروعه، وتعدد منظوراته ضمن رؤية مشتركة من

وحي زمنها، والتعالق الوثيق الحميم بين النصوص وعوالمها وشخصياتها المنبثقة روائيا منها لا إسقاطات المؤلفين. هكذا، وبالرغم من صعوبات المخاض والولادة واستيعاب الأدوات والتحايل على إدخال نماذج وصور وأفكار وأصوات ولغات وإجمالا تشغيل واستثمار طرائق غير مألوفة في القص العربي، أمكنها أن تمُدّ الجذور عميقاً وتنمو شجرةً وتصبح ذاتَ أنساب وفروع، بعد أن متحت من مشاربَ شتّى، صافيةٍ وعكِرة، محليةٍ وخارجية، وتعطينا في نهاية المطاف وهو المعوّل عليه مدونة كاملة نقرأها اليوم، وندرسها ونعيد، وهي على علاتها، انضمت إلى مصاف الكلاسيكيات، أي فخر!

هذا لا يمكن قوله ولا به يُنعت النتاج الروائي الموالي لمرحلتي التأسيس والترسيخ، بصورتيهما الكبيرتين الواقعية والتحديثية الموسعة والمنوعة. هذا النتاج الذي عُدّ اختراقا لقواعد ونُظُم ما سبقه في الرؤية ومقتضيات النسج السردي والتمثيل، وذهب كُتّابُه بحكم طراوة عودهم وما استجدّ نسبيا في زمنهم، إيجابية وسلبية، وبحكم ما تمّ التمهيد له والانفتاح على آفاق ونصوص أغزر، إلى أنهم ينقلون الرواية العربية إلى مدارج ومواقع مغايرة وفي زعمهم أكثر تحديثا. ليس مجال المفاضلة هنا، ولكن ملاحظة أنه بالرغم من انصرام ما يقرب من أربعة عقود على الانخراط في كتابة سردية نَصِفها إجمالاً بأنها مختلفة، متعددة الروافد، ومتنوعة إن لم نقل مشتتة وزادت تتشرذم مع الأيام. اشتركت بداية في ملامح عامة أشرنا إليها، يمكن اعتبار مصر مع السبعينات وانطلاقا منها بيئتها الأولى ومنها تمددت صانعة لها مشاتل في بيئات أدبية عربية أخرى. وما يمضي على الحركة والتيار أزيد من عقد من الزمن إلا وينفيه ويليه مغاير له أو نقيض، حتى أنك تجد من يسارع باختزال مجموعة من الكتاب والناشئين، أيضا، في زمنية الجيل بما لا يتعدى عشر سنوات، ولا تسل بالنسبة للشعر والشعراء، والحال أن الأدب يحتاج إلى وقت غير يسير وحفرٍ عميق قبل أن يتبلور لروائي أو قاص أو شاعر قولُه وملامحُ فنه، من وحي موهبته ورؤية زمنه وينحت بخبرته وقدرة إعادة البناء والتشكيل في خطوط تلتقي وتتقاطع مع مجايليه في صورة بحث غير مضمون سلفا إذ الأدب رهان على مجهول أكثر من معلوم، ومن هنا إبداعيته ومستقبليته. حصر الأجيال الأدبية وتحقيبها عمل يقوم به تاريخ الأدب لا

الصّرْعات المحلية والأمزجة الفردية وأهواء الأدباء في تنافس غير ناضج مبعثه نزوات إلغاء أو إقصاء كتاب سابقين بافتعال صراع جيلي تُستخدم فيه لغة خارج القاموس النقدي، والخلقي المسموح به أحيانا، وفي النهاية، أي عند محصلة هذا التاريخ السديد تذروها ريح الإهمال مثلما تحيل إلى التلاشي النصوص التي تنادت بها على أساس أنها متجاوزة وطليعية وحداثية إلى أقصى الحدود خلافاً لسابقات لها تُذمُّ ب(الكلاسيكية) التي هي أعلى ما يصل إليه أدب، وتنقلب في مزاد السجال الجيلي الضحل إلى تسمية ونسبة قدحية. بينما المطلب أن تنجح الجيلية، لو قبلنا بها، في رسم صورتها وصنع نسق واتساق لسردها.

على أن الجيلية ذاتها لا تصلح، فالكتابة السردية للعقود الأخيرة، وابنة الألفية الثالثة، خاصة، هي تجربة أفراد لا مجموعات، وغدرانٌ ضيقة قليلةُ الماء لا أنهار طويلة ومتدفقة المجرى. كأن ما ضرب بنية الواقع العربي من تصدُّع كبير لمقوّماته وأطره الإيديولوجية وخيبة مطامحه، انعكس مباشرة على البنية الفكرية والأدبية، أو اشتُقّ منها، فبعد مشاعر الانكسار والإحباط واليأس والسوداوية واختناق الأفراد في زنازن أزمات الذات مع إطباق الاستبداد على مصائر الأفراد والجماعات وانسداد الآفاق أمام كل تغيير، وغيره مما شحن السرد العربي المعاصر، لم يكن بد من التشتت والتشرذم، قد انعدمت رؤية منسجمة للواقع تتفاعل ضمنها الكتابة ومنها تنبثق وعنها تعبر، وأصبحت الذات هي البؤرة الإبدال لا الجماعة أو الإيديولوجية والمخيال الجمعي ولا حتى حلم ممكن مشترك. تفسّخت مرجعيات (براديغمات) الماضي ولم تخلفها إبدالات متماسكة غير قابلة للوجود في مجتمعات بين مدّ القيم التحديثية للتقدم والتحرر، وجَزْر الأنظمة المهيمنة، مع تكالب سلفية دينية رجعية ظلامية كاسحة وذات طبيعة إرهابية عاتية. أضف، إفلاس الإيديولوجيات الكبرى للقرن العشرين محليا وفي الخارج، ما جعل البحث عن الخلاص يمسي فرديا، والمصادر السياسية الفكرية والأدبية التي كان الكتاب يتغذون بها وهي تتعدد بل تتضخم لكن ليمشي كلّ إلى سبيل، ولتشهد المحافل الفكرية والأدبية نعم فورةً في الإنتاج، ولكن معها خلطاً في المفاهيم وهجنةً في التعابير وتكلفاً في القول وتدريجيا ـ سنعود إلى هذا ـ محواً للحدود بين الأنواع

الأدبية زائفاً وتخليا، وهو نوع من الجهل وضعف الخبرة، بات يصعب معه للدارس، للناقد، لكل قارئ محترف أن يستخدم الأدوات المناسبة لعمل محدد. ولا يحسبن أحد أنني أطلب الوحدة على حساب التعدد وتنوع التجارب والمغامرة هي أمّ العملية الإبداعية، بل إن تجربة الكاتب الواحد ما تنفك تنقلب على ما تقدمها أو مآله الجمود، وإنما ينصرف المعنى إلى ما يمكن أن يتسمى بجد نقدي مشروط بمقتضياته، إلى الرواية، بما أننا بصددها، بوصفها جنسا أدبيا يُكتب في ضوء قواعد بأي اهتزاز تعرف، وتنتظم، وتظهر في مسار، ولكاتبها لغة وأسلوب وفنية وبطبيعة الحال منظور للحياة وخبرة اجتماعية وإنسانية، تتخللها الحساسية الفردية لذات مستقلة قريبة جدا من الناس تمشي معهم في رصيف مشترك، وبمنأى ضروري كأنها كوكب مستقل يرى كواكب أخرى، ويشعّ بينها بقوة وجاذبية بلا نظير. وإذا ما مثّل كلّ روائي مجرة وحده، كيف يتأتى توفر ذائقة مشتركة أو متقاربة وتوجد في مناخ التعدد، هذه الذائقة ليست تجريدية، ولا منقطعة عن محيطها، بل من صميمه، والعطاء الشخصي المنتظم يغذّيها بروحه ونظرته ويطورها نستطيع ضمنها تمييز الجديد من القديم، والأصيل من العابر. هكذا، ومع بعض التحفظ أيضا، أجدني أميل إلى القول أن ما تلا المراحل المؤسسة للرواية العربية في القرن العشرين، رغم الكثرة الكاثرة من المطبوعات، والتدافع على النشر والسباق بين الناشرين ارتباطا بمصيدة الجوائز وما فرخت من أباطيل وأضاليل، لغايات خارج الأدب، وكشفت قليلا جدا من المواهب، فالحصيلة هي وجود روائيين لا الرواية العربية، وروايات فنية وأخرى رائجة بلا قيمة، وتشظّيها واختلالُها وضحالتُها جزءٌ من جسد أدبي وثقافي واجتماعي كبير العطب، ويحتاج إلى تشخيص نقدي نزعم أن كلماتنا بعض منه.

٢

يصلنا هذا بطبيعة الحال إلى قرينة نص غائب، يفترض أنه نموذجي، سابق على روايات المرحلة الأخيرة، رغم اعتبارنا خصوصيتها ومن ثم عدم جواز المقارنة والمفاضلة داخل الأدب الواحد. نؤمن بأن الرواية نص دينامي متحول، وبالتالي فتعريفه غير مستقر، ويلزمنا الحذر

من تعميم المقاييس والمعايير القبْلية، رغم أنها ناظمةٌ ومكرّسةٌ في سياقها وتاريخها، لا بد من وضعها في علاقة متبادلة مع عصرها. في هذا الصدد يقول تنيانوف:» إن من المستحيل دراسة الأنواع الأدبية خارج النظام الذي هي فيه ومتبادلة الصلة معه»(انظر « عن التطور الأدبي» ١٩٢٧، و» نظرية الأدب» ترجمة تودروف، لوسوي، باريس، ص١٣٦). لا مندوحة في الآن، من طرح سؤال مزدوج: أولاً، هل يمكن دراسة الروايات/ النصوص مفردةً ومنبتةً عن بعضها، فصرنا نقرأ وندرس كل عمل على حدة وكأن ليس للرواية تاريخ وتقاليد؟ وهل يمكن للكتاب اللاحقين أن يضربوا صفحا عن هذه التقاليد كأنها ما وُجدت، إما جهلاً بها، أو استخفافاً، وإن من باب التحدي أنهم آتون بما» لم تستطعه الأوائل»؟ بين حدّي هذين السؤالين ينشأ موضوع كبيرـ معضلة يتطلب تحليلا وحده، نبغي منه تعيين عطب آخر في روايتنا اليوم، إن لم يكن أدبنا كلّه. لا يوجد أدب مهما حدث فيه من تحولات وقطائع إلا وهو اتصال من النصوص مترابطة ومتلاقحة ومتواشجة في حلقات عبر الأزمنة، والرواية الحديثة منذ منشئها الذي صبح بعيدا هي هرم تعلو أحجاره فوق بعضها وهي متماسكة تشد بينها بنيانها. كذلك، وهي بكل ما اعتراها من عوامل ومظاهر التحول وتبديل اللباس والأدوات والصفات الفنية، بقيت قواعدُها الكبرى مستقرة، أتينا على ذكرها غير مرة، لا نظامُها ما ينفك يغدو لها نظاما. فهل يمكن أن يختلف أو يماحك متعاطٍ للرواية والقصّ عموما، على سبيل المثال، حول تعريف ووظيفة السرد، كونه فعل تلفّظي يقوم بالإخبار، بالإشعار ليبلغنا معرفة بشيء؛ أولا، وثانيا أنه ينهض نتيجة الفعل البلاغي الذي يوصل به المعرفة بتعيين حالة المخبر عنه، وإن غلب الدارسون الفعل الأول. بهذا لا يمكن أن يكون أيّ كلام سردا أو في مقامه، ولا يصحّ خلطُه بملفوظات أخرى لا تقوم بوظيفته، ما نلاحظه انتشر عشبا ساما في حقول رواية المتأخرين، غدا عطبا فيها مكينا، نجم عن خلط في المفاهيم وعدم خبرة بالوظائف وما هي الأدوات المستخدمة من نوع أدبي وآخر، بينما نلتمسه بيُسر لدى الأولين، ويصبح مثار جدل ومماحكة.

ـ إن الجمل الإنشائية الفضفاضة والعائمة، أي بدون أن تكون مبنية لأداء إحدى الوظائف

الضرورية للقص، هي من قبيل كتابة الخاطرة، ولا يمكن لهذه الصياغة أن تحلّ محلّ السرد، أو تنوب عنه بزعم (رواية الخاطرة) فهذا النثر المرسل على عواهنه غير السرد الذي هو نثر لكن بلغة وطريقة تركيب ونوعية أداء. تجربتي قارئا محترفا ودارسا متابعا ومدققا لكثير مما صدر من روايات وقصص، أيضا، في السنوات المتأخرة، وضعت أمامي فيضا بلا حدود من النثر، النثر العام، الرّخو، بانثيالات عاطفية، والملحوظ أن أكثر هذه بأقلام نسوية، تتخذ من بعض الحكايات، ومن منا لا يملك حكاية، فيشحنّها بالمشاعر، ينفّسن عن ممنوع ومكبوت. ماذا يبقى إذا جردتَ من جسد الرواية ورم الخواطر وشحم الانثيال؟ حكاية نحيلة وكلام هلام.

لغة السرد خاصة ودقيقة تتكون من مفردات يعيّن لها الكاتب نقل الخبر والفعل والتأثير، أيضا. إن زادت وتكررت وتمططت في عبارات تفيض عن الحاجة فقد خرجت عن مرماها وفقدت وظيفتها، في ما يسميه البلاغيون الحشو، وفي الاصطلاح الحشو من الكلام(الفضل لا خير فيه)، وعرفه أبو هلال العسكري في (الصناعتين):» أن ندخل في الكلام لفظا لو سقط لكان الكلام تاما»، وفي المعنى نفسه عند عبد القاهر الجرجاني ف» إنما كُره وذُمّ وأُنكِر ورُدّ، لأنه خلا من الفائدة». أما في نحو السرد فهذا عطب مشين، وخلل دليل ضعف لا محل له.

أغرب منه القول بلغة شعرية، هي لا توجد أصلا، فاللغة مفرداتها محايدة، وعلاقاتها وتراكيبها هي التي تصنع صيغتها وتعطيها دلالتها. وما يطلق عليه اللغة الشعرية هو استخدام الصور والاستعارات، ونقل التعبير من دور التعيين إلى مرتبة المجاز والإيحاء(connotation). وإنك تجد عشرات النصوص مطعّمة أو كثير من فقراتها المفروض أنها سرد مقاطع كتابة شعرية يمكن للقارئ نزعها ووضعها خارج سياق ما وردت فيه يمكن تقليصها في عبارات. وهذا مقام آخر يختص به ما يسمى ب(الرواية الشعرية) وعلاقة الشعر بالرواية، مما هو مختلف، بيد أن الشعر لا ينوب عن السرد، ولن يكون تمثيلا لوصف وموقف وحبكة اللهم ان اعترى الشخصية تهيؤات فتشطح بخيالات، من قبيل المناجاة، وهذه آفة أخرى تستحق وقفة.

ثمّة خلط فادح في فهم وتسويغ النجوى في الرواية. النجوى محادثة النفس واستدعاؤها لخاطر وذكرى إما على سبيل التذكر أو التأمل أو الحنين، إجمالاً، هي خطاب العزلة

والوحدة. فلا يجوز إذن خلطُها بالمونولوغ الداخلي المرتبط بتيار الوعي كتعبير وتقنية في الرواية الحديثة استخدم بجد عند فرجينيا وولف وجيمس جويس، واندرجت بعدهما صوتا محوريا للشخصية. لا يعمل هذا المونولوغ مستقلا، نافراً عن سياق، ولا يُحشى بأي كلام استطراداً وخطابة، بل هو صوت شخصية إما تقول باطنَها أو تعزّز التعرفَ على شعورها وموقعها في القصة وأزمتها، وبالعلاقة مع أطراف الحبكة وشخصيات أخرى، أما عداه فثرثرة لا تحقق الحوار. وإنك واجدٌ محاولاتٍ كثيرة من هذا القبيل، يظن مفتعلوها أن صنيعهم هذا ونظائرَه يحقق اختراقاً في السرد التقليدي، ويلحقه بالحداثي(كذا)، بينما هي طريقة مزلق لمن لا يحسن استخدامها ولعدم موافقتها لمحكيه والشخصية المنوط بها وضعه وإصدار خطابه. إن تحديث الرواية ليس تشغيلاً مفتعلاً لعناصر وتطريزاً بفنيات شكلية، بل نظرة كلية يتناغم فيها شكل ومضمون، بناء ومعنى، والحداثة جوهر اجتماعي حضاري يستدعي تعبيره بكيفية تخصّه. بعبارة أخرى، المناجاة هي للشعر، للتجريد، للغنائية، للذات غير المقيّدة بشرط وموضوع، هي بؤرتها، خلافا لذاتٍ واقعةٍ ضمن علائقَ ومحكومة بشروط أكبر منها(= موضوعية)، والمونولوغ الداخلي طبقة مضاعفة تمثل التعقيد الذي أصبحت عليه الذات الشخصية ضمن نسيج مركب لا سطحي، متعدد الأصوات(بوليفوني)لا أحادي الصوت والبعد، مرتاب ومهتز، لا بيقين. المناجاة كانت أليق بالزمن ما قبل الروائي، أدبيا واجتماعيا وحضاريا، والتحولات الكبرى لمطلع القرن العشرين وصعدا كسرت الخطية،غيّرت المنظور وجاءت بهذا المونولوغ إنما، سواء بالمناجاة، أو الحوار الداخلي، فإن الخلل يتضاعف إذ نتجاوز الطريقة ونفحص المحتوى، فبماذا يمتلئان، ماذا يقولان، أيُّ خطاب وشعور وقلق للشخصية، هواجسها، عموما؟ يقودنا السؤال إلى العطب الناجم عن سوء تدبير الأداتين، وله عنوان هو الفكر والتفكير داخل الرواية. مبدئيا، ننطلق من أن الشخصية في الرواية التقليدية، الواقعية، تعمل ولا تفكر، أو بالأحرى ليست مهمتها نقل وقول الأفكار وإنما وجودها في سياق أفعال وانخراطها في أحداث في مجرى القصة، نسقُها والرؤية المصهورةُ داخلها هما فكرها، أضف الأقوال وما يثار من أحاسيس، بل الرواية أساسا ليست فنا لتداول المسائل النظرية ومعالجة

القضايا الفلسفية، وقد تصدر عن فلسفة في الحياة وأخلاق وتدعو إلى قيم وتمجّد مبادئ حين تلتزم، وهي تعانق الإنساني، بل لا بد لها لتسمو ولا تكون للتسلية والتصوير الواقعي والطبيعي العابر، شريطة أن يتم هذا كله بخفوت وبمنأى عن النزعة التربوية والنبرة الخطابية والمنبريات، شعارية وإيديولوجية. نعرف الروايات المنتسبة لما سُمّي تيار الواقعية الاشتراكية، وهي مذهبية أكثر منها أدبية، وأخرى متفلسفة مثل بعض أعمال جورج أورويل وسارتر وكامو، وأغلب روايات كونديرا؛ وفي المغرب محمد عزيز الحبابي، ونجيب محفوظ نفسه في (أولاد حارتنا) وعبد الرحمن منيف خاصة في(شرق المتوسط)، وأطلق على هذا النوع (رواية الأطروحة) للبرهنة على فكرة. وهذه جميعُها أمكن تسويغُها، تفاوتت قيمتُها الفنية حسب اقتدار كل كاتب وخبرته في المعالجة. ومعلوم أن هذا النموذج تساوق مع مرحلة تاريخية غربية وعربية سادت فيها إيديولوجيات وتيارات سياسية وفكرية، شيوعية، اشتراكية، فاشية، نازية، توتاليتارية، وجودية، قومية، وبهتت حتى زالت بعد انحسار هذه الموجات، قبيل نهاية القرن الماضي. هذا لا يعني أن الرواية في جميع الأقطار طلقت التفكير، بل إن روائيا برازيليا مثل باولو كويلهو كسب شهرة عالمية بقصص تستوحي عالم المثل وأفكارا فلسفية مطلقة ومثالية.

ـإن ثمة، إذن، فرق بين التفكير داخل الرواية، والتفكير من خارجها وبغير صوتها، وهو شاسع. الأول، مألوف ومتداول، وإن ليس مستساغا دائما، ويُظهرها سمجة، ومسخّرة لغير ما تكتب. أما الثاني، فهو العطب الذي يجتاح كثيراً من النصوص المحسوبة على الروايات المتأخرة، تضج بالقيل والقال، والسؤال مع التحليل، إما يلصقها الكاتب على ألسنة شخصياته لصقا بتصنع لا مزيد عليه، وتمحل مكشوف، لا يراعي شروط القصّ ولا مستوى الشخصية موقعاً وثقافة كما الشأن في الحياة وبما يقبله المنطق البسيط، وإلا هل يُعقل أن نسمع موظفا أو عاملا يتحدث ويتأمل بثقافة فيلسوف، إذ الأدهى من هذا أن يزيح الكاتب الشخصية، ومن لسانها يستطرد فيعرض آراء في كل شيء، وينجرّ إلى أفكار وجاذبية تأملات، وهي من آفة الخلط بين النجوى والمونولوغ الداخلي، يحسب هؤلاء أن الرواية جراب يمكن حشوه بالغث والسمين

على السواء، من جنسها وجاذبيتها أو نافل دخيل سيان، حتى إنك تجد مقاطع كاملة بمثابة استطرادات يمكن محوها ولا يضطرب مجرى سرد أو وصف، قد شرَدَ قلم كاتبها ثم يستدرك فيعود إلى الخيط المتروك ليُكمل ما انقطع، وربما ليس لديه ما يكمل في قصٍّ ملفق.

ـ غني عن القول أن الرواية جنس أدبي مختار، يقتطع من الحياة المناسب حكاية وناساً وموضعاً ولغة، الانتقاء من معاييرها، ونصُّها ينبغي أن يغربل، ليفرَز حبُّه من الزؤان، ما أكثره في روايتنا الأخيرة، فيها إفراطٌ من الكلام على حساب السرد، والتأمل بدل الوصف والتجسيد، وتقليص الأفعال وتمطيط الصفات والنعوت بمناسبتها أو بعيداً عنها، تكثُر فيها الانتقالات، وتتلاطم الأحداث، إن وُجدت، بالتأملات، وتتداخل الأزمنة والضمائر إمعاناً في وهْم تكسير خطِّية السرد والإيهام بتجديد طرق الحكي، وهذا مستهلك قديم، ويقضم الشعريّ النثر، واللَّغْويُ السردي، والعام خصوص المنظور، والتجريد يغلف الجدير بالتجسيد، الرواية عالم أفعال وتمثيلات حياة وحواس وأحاسيس بعين تَرى الواقعَ وأكبر منه وفوقه مدثّراً بغلالة الخيال واحتمال الممكن أي التخييل، ما أدى إلى الإسراف في الخلط إلى حد الزعم بأن اختلاط الأجناس الأدبية جنس آخر، مع غفلة عن أن العملية، المزج والتلاقح على الأصح، والتهجين، يعني فهم شكل كل جنس على حدة وآليات تشكله وليس الاصطدام به جهلا وشططا، فيفسد الكل، وليس في المحصلة ما يصنع نظاما ونسق كتابة جديدين، إذ هكذا حدث التجديد في الآداب والفنون، وإلا هل ولدت الكافكاوية والتكعيبية والرواية الجديدة لروب غريي من عدم، ولم تبلور بدورها نظاما في الفن والسرد بسنن إجرائياتها تعينت به، وكذلك طريقة للتلقي.

ـ جدير بالنظر أن النصوص الحاملة لهذه الصفات والمصاب جسدها بمثل هذه الأعطاب تفتقر إلى مكوّن أساس من مكونات الكتابة الأدبية، والسردية خاصة الموجهة لقارئ واستجابته وتفاعله من مقوماتها، إذ القصة وفي أعلى منظورات تخيّلها سرد حياة وكائناتها منها، والقارئ ينظر إليها وإلى نفسه من خلال ورق مُقوّى ينقل ملامحها وبصمات وأنفاس وألوان وجود، يراها بهذا القدر وذاك، فإذا حلقت به أعلى خاطبت خياله وأخصبت أحلامه

وسَمَت بالكيان. فكأنها لا تحسب للقارئ حسابا، وإلا رسمت له واقترحت سُننا للتلقي، ولا سُنن غير النظام، هو غير الامتثال بالضرورة للقواعد والذوق العام، هي مشمولة ويتعداها إلى ما يتجدد، وإن وجب أن نفهم بأن الذائقة الأدبية، بوصفها من محافل التلقي والتربية، هي إرثنا المشترك + تأثير النصوص في صيرورتها فتجمع جديدا إلى قديم بعلاماتٍ ومرجعياتٍ صانعة للتلقي. أما نثار شعر ونثر وسيرة ذاتية وسرد موضوعي ومحكيات متضاربة وأسطرة لما يشهد على الواقع ببساطة، وشذرات تناصات باسم اشتغال آليات التهجين والأسلبة والبوليفونية، وما هي في الغالب إلا تفكيك يعوق تبلور الشكل ويعرقل إنتاج المعنى، وأيّ فن هذا لا تصنع قطعه المفككة القطعة الكبرى للفسيفساء.

ـ وأخيراً، وليس آخراً في قائمة روايتنا العربية المعطوبة ما أسميه» رواية البوتوكس» هي لعمري أمّ الآفات. البوتوكس تقنية كيماوية جلدية تستعمل كثيرا لدى النساء للتجميل ومقاومة التجاعيد، فهي عملية مصطنعة وزائفة، نستعير اسمها لنطلقه على كم روايات منفوخة طولا وعبارة ممطّطة حكايا وأوصاف وتنهدات وآهات كأن تجد في فصل واحد نداء (حبيبي/ حبيبتي) مائة مرة، تشتغل بنثر الزخرفة همها تصيّد القراء، وحصادها من الفن غثاء السيل!

أكتفي بهذا أعطابا وإلا فهي أكثر من أن تحصى، وغرضي في النهاية ليس التنقيص من عشرات الروايات التي اخرجتها المطابع في العقدين الأخيرين، فإن فيها الجدير واللافت بجدته واجتهاده وتجريبيته الخلاقة وإغنائه بطريقته للمدونة السردية التخييلية العربية؛ غرضي حصر هذه العيوب، أو ما أراها كذلك، لتجاوزها وتمييز النصوص المفردة هي من حسن الحظ تزين أدبنا وتعطي عنه صورة تحديث ناضج ومتنوع ومشرق، ما يجدر بالدارسين العكوف عليه وهو جزء مما نعمل عليه.

رلى حلواني.. عن فلسطين والصورة وأشياء أخرى!

يوسف الشايب

مع أنها درست بادئ الأمر الرياضيات والفيزياء، إلا أن رلى حلواني، المصوّرة والفنانة الفلسطينية، باتت، مع مرور الوقت والمشاريع الفنية، واحدة من أبرز الأسماء العربية في أوروبا، وليس مبالغة إن قلنا في العالم، مع أن رحلتها بدأت مصادفة، حين تعرفت في سنتها الجامعية الرابعة على فتاة تدرس التصوير حيث كانتا تقيمان في كندا، وكان ذلك في العام ١٩٨٦.

ومنذ دورة التصوير الأولى لمس أستاذها الكندي موهبتها الكبيرة في التصوير الفوتوغرافي كفن، بعد أن كان رفض التحاقها بدوره، لعدم امتلاكها حتى المفاتيح الأساسية لهذا العالم، ومع التصوير ارتفع منسوب اهتمامها بالسياسية، بعد أن كان منخفضاً إلى درجة كبيرة حين كانت تقيم في فلسطين، التي باتت تشكل بوصلتها الأساس في جلّ مشاريعها الفنيّة لاحقاً، مع أن والدها وأشقاءها تعرضوا للسجن في زنازين الاحتلال أكثر من مرة، ولفترات متفاوتة.

مشروعها الفني الأول، عكس شغفاً لم يكن بعالم السياسة، ورغبة في نقل حقيقة ما يجري في فلسطين إلى العالم، فكان حول التهجير، بشكل أو بآخر، ولكن دون شعارات أو صراخ، فشكلت صورها المعالجة انعكاساً لحكاية أسرتها، فاستعانت بطفلتين لتجسدانها وشقيقتها، وكأنهما جزء من المأساة الفلسطينية، التي تواصلت في هذا المشروع بصور مُركبّة بطريقة فنيّة (فوتو مونتاج) حول مجزرة صبرا وشاتيلا.. كان ذلك مشروعها الفنّي الأول كطالبة تصوير، وكان ذلك في العام ١٩٨٧.

وكان مشروعها الثاني يتعلق بالنحت، فبعد أن شكلّت منحوتة لرجل يجلس على مقعد، قامت بتحطيمه وتصويره، مرحلة تتلو أخرى، ما أثار حفيظة أستاذ النحت، لكن فكرة هدم المنحوتة وتوثيق عملية الهدم استهوته، خاصة بعد أن شرحت له الدلالات المتعلقة بكون هذا الرجل يمثل فلسطين التي يجري هدمها تارة ببطء وتارة بتسارع أكثر، وأن الشجرة حيث كان يجلس بالقرب منها ترمز إلى الحروب، وقد نفذت المشروع مستعينة بضوء سيّارة، هي التي لا تزال تستخدم هذا الضوء كمصدر إنارة في عديد مشاريعها الفنيّة حتى أيامنا هذه.

حين عادت حلواني إلى فلسطين، كانت اتخذت قراراً بأن تقتحم ميدان التصوير الصحفي، ولكن بشكل مؤقت، لكونها عادت منبهرة بهالة انتفاضة الحجارة، ويهمها التعرف على الكثير من تفاصيلها، مشيرة إلى أن نقطة التحوّل كانت مع تصويرها جنازة الطفل الشهيد نضال العربوشي في نابلس، حتى إنها حين عادت إلى منزلها تملكتها نوبة من الصراخ حول جدوى الموت في سبيل الأرض، لافتة إلى أنها كانت على الدوام في حالة صراع جدلي مع والدها حول السبق في الأهمية، وأيهما أكثر جدوى لفلسطين: ناسها أم أرضها.

وانخرطت حلواني في التصوير الصحفي، وباتت تعيش حكايات الناس انطلاقاً من الميدان، حيث المواجهات، وحيث لكل وعائلته حكاية، وهو ما سعت إلى عكسه في صورها عالمياً، حتى أنها اعتقلت عدّة مرأت على يد قوات الاحتلال، وتعرّضت لإطلاق النار أكثر من مرّة، بل وأصيب برصاص مطاطي أيضاً، هي التي كانت تخطط ألا تزيد مدّة عملها في التصوير الصحفي عن أشهر عدّة، لتواصل في هذا الميدان، العمل لما يزيد عن ثماني سنوات، منذ العام ١٩٨٩ وحتى العام ١٩٩٧، وهي الفترة التي عرّفتها أكثر على فلسطين وناسها.

وتذكّرت حلواني، خلالها حديثها عن تجربتها في مقر مؤسسة عبد المحسن القطان بمدينة رام الله، مؤخراً، حكاية تلك الصورة في أبو ديس، حين وجدت نفسها وحدها في مواجهة مستوطن ترجل من سيارته، وصوب سلاحه الأوتوماتيكي جهتها، فما كان منها إلا أن وضعت كاميراتها فوق رأسها، وارتمت أرضاً معتقدة أنها النهاية، إلا أنه أخذ يضحك بصوتٍ مرتفع،

فما كان منها إلا أن هربت لتنجو من موت كان يبدو محققاً، وهي حادثة ظلّت تلقي بظلالها عليها لأيام عدّة، ولا تزال تعلق في ذاكرتها، رغم مرور قرابة ربع قرن على الحادثة.

كما شددت حلواني على تلك الصورة التي كانت قد كبّرتها ووضعتها في غرفتها، وهي للاستقبال الجماهيري الأول للرئيس الشهيد ياسر عرفات، عند عودته إلى أرض فلسطين.

وثمة حادثة دفعتها لهجر عالم التصوير الصحفي، وتحديداً حين كانت في الخليل ذات يوم في تسعينيات القرن الماضي.. «كنتُ أصوّر مواجهات في الخليل، وكان ثمّة شابٌ في السادسة عشرة، وكنت تحدثت معه أكثر من مرة بينما يلهو ورفاقه، وكان يسألني عادة عن الكاميرا والتصوير.. أصيب وهو يرمي الحجارة على جنود الاحتلال، ثم عاود وهو يعرج وواصل رمي الحجارة، حتى أصيب برصاصة ثانية، التقطت صورة له، وكان الخوف يتملكني على مصيره، لكني غادرت المنطقة بعد أن ارتفع منسوب الخطورة فيها، وما إن وصلت المكتب حتى علمت باستشهاده.. حين دققتُ في الصورة، ووجدت أنه استشهد ولا يزال يمسك الحجر بيده، شيء ما تغير في داخلي، ومن حينها تركتُ العمل بالتصوير الصحفي الميداني، وقررت العودة إلى الفن من بوابة الفوتوغرافيا».

جصلت حلواني على عدة إقامات فنيّة خارج فلسطين، وتحديداً في الولايات المتحدة وأوروبا، وخاصة فرنسا، وحصلت على درجة الماجستير، وبدأت تدريس التصوير بالتوازي مع إقامة مشاريع فنيّة بالاتكاء على التصوير، وبما يحاكي الرواية الفلسطينية بطرائق مغايرة على مستوى الشكل والمضمون، في آن.

كان من بين هذه المشاريع الفنية، ذلك الموسوم بـ»اجتياح سلبي»، وقالت عنه: بعد عشر سنوات على توقيع اتفاقية أوسلو، وكالعديد من الفلسطينيين، كنا على استعداد لنمنح السلام فرصة، لكن ما كان يحدث على الأرض يدفع يجعل القلق يتملكني، قلق من فقدان مدينتي القدس، وقلق من عدم قدرة اللاجئين على العودة إلى أراضيهم ومنازلهم.. مع مرور الأيام كانت الأمور تزداد سوءاً، كما أرى، المزيد من الأراضي كانت تتعرض للمصادرة، والمزيد من المستعمرات الإسرائيلية على الأرض الفلسطينية، كما المزيد من القتل.. في الثامن والعشرين

من آذار ٢٠٠٢، كنت في رام الله، وكان «الاجتياح الكبير"، أو ما أطلقت عليه إسرائيل «عملية السور الواقي»، فعلٌ يتواصل.. تملكتني الصدمة، كل شيء حولي يبدو مختلفاً، كل شارع وكل ساحة سبق وأن زرتها من قبل كان يسكنها الظلام كما الفراغ.. لا أحد في الشوارع إلا جنود الاحتلال ودبّاباتهم. شعرتُ بالاكتئاب والقشعريرة.. الفلسطيني الوحيد الذي قابلته في ذلك اليوم، كان مسنّاً اعتاد أن يتجول في المنطقة المحيطة بالمكان الذي التقيته فيه. لقد قتلوه بالرصاص في اليوم نفسه.. في تلك الليلة لم تغادرني صورة وجهه، لم تغادر مخيّلتي، حيث اجتاحني عديد الأسئلة بلا أجوبة.. كانت الليلة التي تم فيها اغتيال أي أمل لديّ في تحقيق السلام.

أما مشروعها الفني «غير منطقي»، وهو مشروع فنّي فوتوغرافي حول الاستيطان، والذي أشارت بأن كلماتها ستقف عاجزة أمام وصف التحول في الطبيعة الفلسطينية، بسبب المستوطنات، وهو ما ترصده الصورة ببراعة أكثر من أية كلمات، فالكثير من الجبال والتلال لم تعد فلسطينية، ولم يعد للخراف فيها مكان، ولا للرعاة من سكان البلد الأصليين، كما لا مكان لأشجار الزيتون.. «كلّ ما بتّ أراه جغرافيات بشعة، ومصطنعة، تسمى بالمستوطنات الإسرائيلية، ظهرت كما الوحوش لتقتل كل أمل داخلي، وليس على الأرض فقط.. في هذا المشروع كنت أتحدث لأرضي، لفلسطين خاصتي، مقتنعة بأنها ستزول ذات يوم».

وفي عملها «ألفة» سلطت حلواني الضوء على معاناة العابرين إلى ومن القدس عبر حاجز «قلنديا» العسكري، الذي تحوّل إلى معبر في وقت لاحق، مسلطة الضوء على وجوه العابرين، عبر هذه البوابات التي هي جزء من حواجز تعكس سياسات الاحتلال العنصرية، والمُنافية، ليس فقط للقانون الدولي، بل لأي عُرف إنساني بالأساسي، وهو ما خلق حالة من «الألفة» ما بينها وعدستها وبين هذه الوجوه «الحميمة»، فعند «الحاجز» ليس ثمة حقوق، الجميع يصطف في طابور، ومن ثم يتم فحص هويته الشخصية، وتصريح دخوله إلى المدينة التي هي فلسطينية بالأساس، كما يتم فحص كل ما يحمله رفقته، وفي بعض الحالات يجري استجوابه، بحيث تعكس الصورة تحولات الملامح في رحلة العبور الصعبة واليومية أو شبه اليومية هذه.

"بيض وخبز نيء"، كان عنوان مشروع حلواني في العام ٢٠١١، وتناولت فيه بالصور حكاية نوال نخلة في مخيم الجلزون للاجئين الفلسطينيين قرب مدينة رام الله، هي المولودة بعد نكبة العام ١٩٤٨ بعامين، حيث لا صور فوتوغرافية إلا واحدة توثق وجود أسرتها قبل التهجير، مع أن ذاكرتها تحوي الكثير من الصور التي ورثتها من حكايات عن والديها، منها كيف أن والدتها تركت البيض نيئاً قبل أن تغادر أرضها ومنزلها مضطرة لعلها تنجو وعائلتها، وهو ما كان.. «كانت نوال تقاوم السرطان، كما تداعيات التهجير والاحتلال المتواصلة، بشجاعة كبيرة، وكنتُ وعدتها أن أعرض عليها الصور عند الانتهاء منها بشكلها النهائي للعرض، وهو ما كان بعد أربعة أشهر.. كان صوتها خافتاً، وجسدها ازداد نحالة أكثر مما كان عليه، وكان الإنهاك بادياً عليها، وهي ترقد على السرير، شاهدت الصور بالفعل، وكانت تمنّى النفس أن تشارك في المعرض، لكنها رحلت بعد أيام من هذه الزيارة».

وكما في حال المعرض السابق، واصلت حلواني نهجها بالربط ما بين الحكاية الفلسطينية وناسها، ما يسهم في أنسنتها، وهذه المرة كان معرض المفتاح، عبر الستينية ثريا فرح، وكان قد تمّ تهجير أسرتها من قرية «زكريا» العام ١٩٤٨، لتعيش في مخيم «العروب» للاجئين الفلسطينيين قرب مدينة الخليل، هي التي لا تزال تحتفظ بمفتاح منزل عائلتها الذي ورثته عن والدتها، هذه التي كانت تتوقع العودة خلال أسبوع، لكن ها هي العقود دون العودة إلى المنزل، الذي لا تدري إن بقي كما المفتاح، أو دمرته آلة العنصرية الصهيونية في عام النكبة، أو آلات العنصرية الإسرائيلية المتواصلة بعده.

ولم تغادر حلواني مخيمات اللاجئين الفلسطينيين، في معرضها «شِعر»، موثقة بكاميرتها شيئاً حول محمد إبراهيم العزة المُهجّر من «تل الصافي» قرب الخليل في العام ١٩٤٨، واشتهر بكتابة القصائد منذ كان طالباً في مدارسها، قبل النكبة بأعوام، وبقي على قيد الكتابة لعقود طويلة من حيث يعيش في مخيم الدهيشة للاجئين في بيت لحم، علاوة على صور أرشيفية له عالجتها بطريقتها، كان من بينها صورة له في يافا وهو على دراجته الهوائية، ما يُظهر أن الحواضر الفلسطينية المحتلة في العام ١٩٤٨، وما حولها، كانت عواصم ثقافية بامتياز.

وفي العام ٢٠١٣، خرجت حلواني بمشروعها «بوابات الجنّة»، مسلطة الضوء على بوابات القدس الثماني، والتي كانت من بين الأماكن المفضلة لزوار القدس من فلسطين وداخلها، وكيف باتت معزولة بعد إقامة جدار الفصل العنصري، بل ومغلقة، محيلة عبر هذا المشروع الفني، الذي تجوّل كغيره في عديد عواصم العالم، المشاهد إلى الآثار السلبية متعددة الأوجه لهذا الجدار الإسمنتي البشع.

أما مشروعها «إلى أبي» (٢٠١٥)، فكان إهداء إلى والدها.. «جاءتني الفكرة على إثر زيارة رفقة أشقائي وأبنائهم إلى منطقة على مقربة من قرية الطنطورة المهجرة، وخاصة عند النقاش عن الأماكن التي زرناها أطفالاً رفقة والدنا في تلك الجغرافيا، فقررت العودة إلى كافة المناطق التي كان يأخذنا إليها والدي، بينما كنّا أطفالاً، وأعيد تصويرها، وهو مشروع تجريبي، وعملت عليه طويلاً.. الصور لم تظهر فقط التحولات على مستوى الجغرافيا، بل على مستوى البشر، ففي بعض الأماكن التي كانت تعتبر سياحية، كنا نصادف في طفولتنا، العديد من العائلات القادمة من قطاع غزة ومن مدن الضفة الغربية المختلفة، وهو ما بات مستحيلاً، بحيث كان غالبية المتواجدين حديثاً، حين التقطتُ الصور، بل الغالبية العظمى من الإسرائيليين.. التقطتُ صوراً في أماكن عدّة من بينها قرية «كوكب الهوا»، وهي مهجرة، ومن أجمل الجغرافيات الفلسطينية، علاوى على يافا، والجولان، وطبريا، والبحر الميت، الذي تتضاءل مساحته، ولفتا التي لي فيها الكثير من الذكريات، ومنها حكايات والدي عنها، وكيف كان يذهب إليها قبل العام ١٩٤٨ بدراجته الهوائية.

وفي «القدس تنادي»، لم تتجه حلواني نحو الأرشيف، بل كانت مصادفة قادتها إليه، وتحديداً «الإذاعة الفلسطينية» التي أسستها سلطات الانتداب البريطاني، وذلك «بهدف إبعاد الفلسطينيين عن السياسة، وإشغالهم بالإنتاجات الموسيقية والفنيّة»، مع أن العديد من الأدوار الوطنية للقائمين عليها برزت في محطات عدّة، ما دفع العصابات الصهيونية إلى تدمير موقعها في القدس، وتحديداً في «عقبة درويش»، لينتقل موقعها إلى منطقة «الإرسال» في رام الله.. «ما فعلته في هذا المشروع، هو أنني وجهت دعوة لأبرز موسيقيي وفناني الإذاعة

الفلسطينية، ليقدموا عرضاً من نوع آخر في القدس، وكان ذلك عبر الصورة، حيث حضرت صورهم على جدران أزقة البلدة القديمة في القدس، وبوابات محالها التجارية المغلقة، بحيث رافقت الصور مقطوعات من الموسيقى الأصلية التي أنتجها مبدعون فلسطينيون وعرب من ذوي الشهرة الواسعة، حينذاك، وبعضهم إلى يومنا هذا رغم مرور عقود على رحيلهم، وعلى احتلال القدس وفلسطين».

وتكوّن مشروع حلواني «العروس جميلة لكنها تزوجت من آخر»، في إشارة إلى فلسطين، من أجزاء عدّة، بحيث جاءت الفكرة من حكاية متضامنة أميركية حامل كانت تنوي التوجه إلى قطاع غزة، فحذرها طبيبها من ماكينات الأشعة في المعابر الإسرائيلية، لخطورتها على الأجنة، ومن حكاية سيّدة غزيّة تدهورت حالتها الصحية بعد أن عبرت في هذه الماكينات لحدوث خلل في جهاز تنظيم ضربات القلب المزروع داخلها، ولإنجازه توجهت إلى حاجزي قلنديا وبيت لحم، ومن هناك توسّعت الفكرة لتظهر كيف تقسّم هذه الحواجز فلسطين إلى كانتونات، ومن ثم قامت بمعالجة الصور ليتحولوا إلى ما يحاكي تلك الصور الصادرة عن ماكينات الفحص بالأشعة (إكس راي)، كما كنتُ أقابل الخارجين من هذه الحواجز أو المعابر، وألتقط لهم صوراً شخصية، بعد أن أتعرف على مشاعرهم إزاء ما يتعرضون له من انتهاكات هناك، لأظهر أن ثمة بشر يعيشون في هذا السجن الكبير (فلسطين)، وهم يمثلون كافة فئات المجتمع الفلسطيني، ليتبعها جزء يتعلق بالحياة في فلسطين قبل العام ١٩٤٨، وكانت على شكل تلفاز قديم، وكأننا نشاهدهم عبر الشاشة في برنامج وثائقي أو ما شابه، فلم تكن فلسطين أرض بلا شعب، بل كان ثمة حياة متقدمة قياساً بالدول المجاورة، وكان العرض على ثلاثة أجزاء في ثلاث غرف منفصلة، حيثما حلّ.

ومؤخراً، انتهت حلواني من الجزء الأول، وتعدّ للجزء الثاني من مشروعها الفني «إلى أمّي»، والذي جاء بطلب منها بعد أن شاهدت مشروع ابنتها «إلى أبي»، لتصّر الابنة على إنجاز ما يمكن إنجازه منها في حياة أمها، مستوحية من كلماتها ما قالته الأم ذات يوم «حتى لو طردونا، حتى لو رمونا خارج بلدنا، ستعود أرواحنا وتبقى في سماء فلسطين، ولن تغادرها.

وحلواني من مواليد القدس العام ١٩٦٤، وهي عضو الهيئة الأكاديمية في كلية الفنون والموسيقى والتصميم بجامعة بيرزيت، اليوم، وحصدت عديد الجوائز في مشوارها الفنّي المتواصل، كان آخرها في نهاية آذار الماضي، بحصولها على جائزة الشيخ سعود آل ثاني للمشاريع الفوتوغرافية للعام ٢٠٢١، لدورها في توثيق التراث والتاريخ والمعاناة اليومية للفلسطينيين .

لأنني لستُ سليمان!

أثير الصفا

حين كنت في الثامنة كان عند جارنا «أبو مسعود» مزرعة إوز.١٢ كان يمسك الواحدة منها، يهبشها هبشًا، يُجلسها في حجره ويطبق عليها بفخذيه، يفتح منقارها، ويقحم في حلقها أنبوبًا بلاستيكيًا يصل إلى معدتها، ثم يصبّ فيه الحبوب صبًا، والإوزة تتفلت من بين يديه، وروحها تكاد تطلع، وروحي – لسببٍ أجهله - معها تطلع.

في البداية ظننته «مُخلص صديق الحيوان»،١٣ رجلًا مثاليًا في إنسانيته، يدلّل إوزاته لدرجة احتضانها وتلقيمها العلف، بالذات لأن أبو مسعود من فرط سمنته يمتلك أثداء متهدلة تهتز مع اهتزاز الإوزة في حرجه. وهكذا ربطتُ وقتها بين عملية إطعام الإوز والرضاعة. ترسّخت في ذهني صورة هذا الرجل كمُرضع مُذكّر من فرط حنيته وليّته. كان صدره واسعًا، حرفيًا!

حين كانت الست رشيدة تحكي لنا في حصة الدين عن العشرة المبشّرين بالجنة، كنت أتخيل أبو مسعود يدخل بينهم ممتطيًا إوزة ضخمة، مُشتتًا شملهم، فيفسحون له لكرم أخلاقهم واستحقاقه. كنت طفلاً غريبًا حتى في خيالاتي. ولكن، لم أفهم تمامًا السبب في معاناة الإوز أثناء تجرعه لوجبة الحنان من أبو مسعود! وبقيت لفترة أظن الإوز جاحدًا كالأطفال المدللين المحتجين جهلاً على النِعَم، لا يدرك فرادة فرصة العيش بكرامة، ولا صفاء نيّة أبو مسعود أو ارتجاج ليّته.

تلك الغصة التي أستشعرها في حلقي كلما رأيت الحلوق الدرنيّة حيّرتني، والفرق بين تصوّري حول

السلوك الرحيم لأبو مسعود، وبين ما تشهده عيناي من ألم الإوز، خلق فجوة في ذهني بين ما أراه وما يتراءى لي. لم أتوجّه إلى أبو مسعود، أتعس الله باله، بسؤال مباشر، ولكني اعترضت عليه مرة أثناء حشوه للعلف في حلاقيمها: «خلص عمو بيكفي، يمكن شبعت ومش جعانة، دشرها هي بتاكل لما تجوع!» فردّ عليّ، مسبحةً وانفرطت، أنه يرغمها على الأكل بالغصب كي تسمن ويُدهن كبدها، فكلما زاد وزنها زاد دهنها وتضخم كبدها وابيضّ حتى إن صار كالطحينة زاد سعره، وأن كبد الإوز أكلة ملوكية اسمها الفواجرا، يأكلها الناس الهاي هاي لأنها تحوّل الرجال فيهم إلى أحصنة تصهل ليلاً والنساء إلى أرانب ... وأني حين أكبر سأفهم! ولذلك يدفع الهاي هاييون فيها مئات الدولارات التي راهن أني لن أشمها في حياتي، وأني وأبي ليس لنا في الطبخة كلها، وأن سقفنا قوانص الدجاج.

أخنف وقاصف جبهات! لم أهتم للإهانة المبطنة أو الصارخة لا أدري، بقدر ما صدمتني فكرة المحلسة للإوز بهدف ذبحه، وفكرة حيوانية الرجل والمرأة والعلاقة المهجنة بينهما، والمفعول السحري لكبد الإوز في تحويله الرجال إلى حيوانات بريّة والنساء إلى أليفة. لم أفهم في ذلك السن سوريالية كلام أبو مسعود، ولا فهمت استقراءه السوداوي لمستقبلي، ولا فهمت العلاقة بين جودة ما آكله وجودة ما أشمه، فهل سيؤثر أكلي للقوانص على شمي للدولارات من عدمه! وهل إذا حصلت على الكثير الكثير من الدولارات عليّ أن أِشمّها أصلاً؟ وهل للدولارات رائحة جميلة مستحيلة إلى هذا الحد؟!

تحسست أنفي يومها لأتأكد من وجوده بعد تشكيك أبو مسعود بقدرتي على الشمشمة. واهتممت بالبحث عن كتب تتعلق بالحواس واكتشفت أن الدلافين هي الكائنات الوحيدة التي لا تشم، ولذلك تنام نومًا نصفيًا؛ نصفها نائم والثاني يقظ، استعاضةً عن حاسةٍ كان بإمكانها أن تُجنّبها الخطر. ووجدت وجه الشبه، أنا كذلك أعاني الأرق! على ما يبدو أن حاسة الشم عندي مضروبة، ولذلك شكك أبو مسعود بقدرتي على شم الدولارات. لم أكن أفهم المجاز في تلك المرحلة من الوعي، والنتيجة أنني اليوم مهووس بالعطور وجمع الدولارات والسباحة مع الدلافين المدربة. بعض الأشخاص الأغبياء يؤثرون على حياتنا أكثر مما نظن، ولكنني ممتن لله على إبداعي في ترجمة إهانته.

الشيء الوحيد الذي رفضته وأرفضه حتى اليوم هو فكرة أكل الكبد، فقد رأيت كيف أكلت هند بنت عتبة كبد حمزة، الذي سماني أبي على اسمه؛ حمزة الهيبة والوقار والفروسية والرجولة وتلك الدخلة الفاتنة بصدر عريض، مع الريشة البيضاء، وعظمات وجهه البارزة، ورُدها عليّ إن استطعت. صحيح أنني لم أصطد حتى اليوم أسدًا إلا أنّ داخلي حمزة، وفقط لم تتسنَّ لي غابة لإخراجه. ولن أنسى لك هذا يا هند ولو أسلمتِ ألف مرة. بيني وبين الكبد حساسية تاريخية عميقة، دفعتني مرة أن أتسلل ليلاً وأفتح باب المزرعة، ثم أعيث بين الإوز الجلبة كي يصحو، وألاحقه حتى الباب لينطلق ويتحرر من الطامعين بكبده، علّ عينك تقرّ يا سيدي حمزة.

في الصباح كان الإوز يملأ شوارع البلد وأزقتها، يتبختر فيها سيدًا للموقف وموقف السيارات. لم أرَ الإوز يومًا بهذا العنفوان. ثم حصل تصعيد صغير حين حانت الساعة التي يذهب فيها الأولاد إلى المدرسة؛ كل إوزة تكفّلت بنفر، والأولاد يركضون على مدّ بطونهم، ويبكون للأمانة. في ذلك اليوم لم يقد أحد سيارته خشية دهس كل هذه الأفواج البيضاء التي تُعرّض على الشارع، وترجّل الكثير من العمال والموظفين من سياراتهم، ثم بدأوا هم الآخرون بالهرولة، والإوز خلفهم منطلق بلا رادع. ويا وز إن فلتّ مين يلمك!

ولأن أبو مسعود أدرك أنه ما للإوز مِن مَلَم، ولأن خراب البيت يريد موافقة، همّ إلى الجامع في البلد وطلب من المؤذن الإعلان عن مكافئة للقابض على الإوز: كل وزة بشيكل. وافق المؤذن على هذه الفكرة الشاذة، لأنه أحيل إلى التقاعد وسيحل محله مؤذن جديد، على حد ذمة أبي، كانت نوعًا من الضرب بعرض الحائط. وهكذا تمّ الإبلاغ عن حالة الطوارئ وترك جميع الشباب أشغالهم وأعمالهم وانطلقوا في حملة جمع الإوز. يومها، حتى وقت متأخر، لم تفتح المحلات ولا المؤسسات ولا البنوك ولا المدارس، وانشغل أهل البلد بالقبض على ما يزيد عن ثلاثة آلاف إوزة. كان قلبي يقفز في صدري وأنا أراقب هذا المشهد، شعرت بأقصى درجات العزّة حتى لحقتني إوزة جاهلة يبدو أنها لم تتذكرشكلي ولم تميّز أنني أنا قائد ثورتها، فهربتُ كبقية اللا-قائدين إلى البيت.

الشيء الوحيد الذي كان مفتوحًا هو المستشفى، الذي كان كل وافديه من المنقورين؛ ضحايا الإوز.

وهكذا خسر أبو مسعود في هذه العملية التحريرية ٢٩٨٩ شيكل وزّعها محمومًا وموشكًا على جلطة (وهو كود سيارتي بعد هذا العمر). حين أتم لم شمل ما استطاع الناس من الإوز، جاء خاسفًا بابنا ... ها قد جاءك الموت يا تارك الصلاة، لا بدّ من وشاة! أو أنه أصلاً لا يحتاج نبوغًا كي يدرك أنني الفاعل، يكفيه ذكاؤه المحدود للاستنتاج، فلطالما رافقتُه في ولائم إقحام الطعام، ولطالما أطلعته على مكنون أفكاري حين أفصحت له مثلاً بأن الإوز يخاطبني ليلاً ويبعث لي برسائل مشفّرة! نعم، على الجاني تدور الدوائر وتتربع المربعات وتتثلث المثلثات وكل الأشكال الهندسيّة.

كان جدي عبد الرحمن قد قصّ عليّ قصةً بنيت عليها أيديولوجيتي الثورية، مفادها أن هناك كتابًا اسمه «منطق الطير» لعارفٍ يُدعى فريد الدين العطار، فيه تجتمع الطيور للبحث عن السيمرغ وهو طائر جبل قاف، والوصول إليه يعني بلوغ الجمال المطلق والحقيقة التي لا زيف فيها. وفي سبيل ذلك على الطيور أن تسلك الأودية السبعة وأن تتعب وتتقصف أجنحتها ويسيل منها الدم. كان ينشد لي ماذا قال الصقر والطاووس والبلبل وماذا قالت البومة والبطة والبجعة. هذا يعني أن للطير لغة، وليست لغة عادية، إنه يقول الشعر. ولما كان جدي صوفيًا خلص إلى أن الشعر هو اللغة التي يصل فيها المريد إلى الله، كما سعت الطيور بها إلى الطائر الملك، ولهذا السبب كان يردده في أوراده كما يرددها الطير في منقاره، حتى حين يطلب مني أن أجلب له سجادة الصلاة أو إبريق الوضوء كان ينغّم صوته في الطلب ليبدو أنه طلب إنشادًا، فأستجيب له مأخوذًا بلا ذرة مذرورة من عناد. رحمك الله يا جدي، كل الأصوات من بعدك مُبدّدة.

ولهذا كنت موقنًا بأن الإوز ينظم الشعر ليلاً مناجاةً لإلهه في جبل قاف، وأن بعقاته ليست إلا استصراخًا للسيمرغ ونداء استغاثة، وأنّ بواق بواق هي تأمين جماعي على الدعاء، وأنه كان لزامًا عليّ أن أتيح له فقط فرصة سلك الأودية السبعة، ولينشد بعدها – كيفما شاء- ربه. كان وازعي في تحريرها وجوديًّا، والثورة على الظلم فطرة.

فتح أخي أحمد الباب، كان الدمع لا يزال يترقرق في عينيه، فقد رجع لتوّه من طريق الروضة باكيًا بسبب إوزة ظلت وراءه حتى انقطع خلفه. اقتحم أبو مسعود البيت عنوةً هائجًا مائجًا لا مردّ لقضائه في القضاء عليّ. وقف أبي مذهولاً ثم تحرك لاعتراضه، فدفعه أبو

مسعود كما أخبرني أحمد لاحقًا، وأخذ نظرة بانورامية لغرف بيتنا ولم يجدني، فأيقن أنني في الحمام. فتحه عليّ حين كنت جالسًا على مقعد الحمام بأمان واسترخاء وضمير جد مرتاح. رفعني من ياقة قميص المدرسة: «تعال يا شلُق، يا عرص يا ابن العرص، بدك تخرّبلي بيتي!» وأنا مرفوع، سحبت بنطلوني للأعلى واستنجدت في سري بالله ودعوته أن يبعث لي بالسيمرغ فيلتقطني ويأخذني من هذه القرية الظالم أهلها. ثم توجه بكلامه إلى أبي الذي لحق به ليرد له اللكمة: «ابنك اللي فلت الوز يا عز!»، هنا تغيرت سحنة أبي الدفاعية، وحدجني بنظرات أحادية المعنى: سأسخطك. أخذ نفسًا عميقًا وقال: «كان قلبي حاسسني.. إنت اللي طبلت البلد بالوز يا حريق الوالدين»! لم ينتظر اعترافي بالتورّط حتى يعاون أبو مسعود عليّ، وكأنّ ردي تحصيل حاصل، والتهمة كانت قد لبستني لبستني فلم أجتهد في اختراع كذبة. فعلى رأيه وُلدتُ، أنا حمزة، بقلبٍ آثم ومؤخرةٍ فيها دودة.

جرّني أبو مسعود وأبي إلى المزرعة، وأمي أسمعها تبكي وتدعو على اليهود! ما علاقة اليهود بالإوز الفالت أو الكرة التي صوبتها بالخطأ على رأس أخي قبل أسابيع، أو بنطلوني الذي ألبسه بالمقلوب؟ لم أفهم لعنها لهم بالمطلق حين أرتكب أنا حماقة، ولكني أيضًا لم أستطع في وضعي هذا أن أُوضح لها بأن الإيمان بالحرية هو الذي حركني، لا الصهيونية حرضتني. كانت ثورتي نبيلة، وكان القابضان على عنقي قد أمسكا بي من ربلتي، ثم قلباني، ثم ضمّا ساقيّ إلى بعضهما، ثم أتيا بحبل وأخذا يعقدان عقدة حول عقبيّ، ووصلا طرف الحبل بسلك حديدي بارز في السقف الإسبست، زجرني أبي: «حتى تتربى يا ناقص الربابة!»، وهكذا عُلقت مقلوبًا وسط المزرعة كالذبيحة.

الإوز الفضولي من تحتي يفصلني عنه حوالي نصف متر، يمد عنقه ويشدني أحيانًا بمنقاره من شعري، ثم ينقر فروة رأسي بضع نقرات ويسلّم الدور لغيره. وهكذا ليلّت الدنيا وأنا – مُحدث الانقلاب - معلق بالمقلوب في مزرعة أبو مسعود.

أنا محرر الإوز من العبودية، مطلقه من غياهب السجن والزبل، رافض القَمع والحصار والأكل بالإجبار، المحرّض على التمرّد، أنا قائد ثورة الإوز، فاتح مزرعته، المنتصر لإوزيّته، رمز حريته وتحليقه وطيرانه، بطله الخارق، أنا السوبر هيرو الجيسي، وأسطورته التي سيتغنى

بها خلفًا عن سلف، فرخًا عن إوز، أنا المُخلّص، ها أنا معلق فوقه وهو يغط عميقًا في نومه أخيرًا بغير اكتراث. أيتها الإوزات المتواطئة لماذا لم تطيري؟! لماذا يا غبية لم تطيري؟من بعد هذا اليوم لك دينك ولي ديني، ولتذهبي إلى كروش الهاي هايين بغير رجعة.

منذ تلك الحادثة وأنا أتساءل: لماذا لم يطر الإوز حين سنحت له الفرصة؟ وفقط حين بلغت الثلاثين أدركت أن إوز أبو مسعود كان أثقل من أن يطير، وأسمن من أن يحلّق، فمن كثرة ما علفه أصابته تخمة حتى فقدت أجنحته وظائفيتها، ولم تعد خاصيته الطبيعية متاحةً. متأخرًا أدركت أن الإوز يرتبط بالأرض أكثر من ارتباطه بالسماء، متوطّن ومدجّن ومُمزرع، والحرية تحليق والإوزة ليست بجعة. وعتبت أيضًا على السيمرغ، فلعلّه هو الآخر قضى نحبه مشويًا في أحد الأفران. أكان عليّ أن أوُزّ الإوز على ما يفوق إوزيته؟ مخطئ يا حمزة من رأسك المقلوب إلى ساسك المربوط، مخطئ أيها المدحور المنقور، ها قد أحبط الرأسماليون الثورة التي أفنيت فيها مشاعرك الإنسانية تجاه طير نسي كيف يطير.

منذ تلك الحادثة والناس تناديني بحمزة الوزة، والأنكى أن اسم والدي كان عز الدين مما سهّل على الساخرين أن يضمّوا السيد الوالد إلى الموضوع، فأطلق بعضهم عليّ أيضًا لقب حمزة وز الدين، وهنا تورّط والدي بثورتي التحريرية ولم يسلم من اللعنة الجماعية كأهالي المناضلين على امتداد التاريخ. لم تكن عندي مشكلة مع التسمية الجديدة التي صرت معروفًا بها، فذكرى الثورة تقطر على قلبي مثل العسل، ولكن المشكلة كانت حين يصطحبني أبي إلى الحلاق، المشوار الوحيد الذي تشاركناه، فكلما تندّر عليه أحدهم في الشارع قائلاً كيفك يا وز الدين، أو تفضل يا وز الدين سلخني كفًا على رقبتي، وهكذا كان يقضيها سلخًا في الذهاب والإياب، وأنا أرجع إلى البيت برأس محلوق ورقبة محمرّة.

الهوامش

١. سيظل اسمه أبو مسعود على امتداد القصة، بغض النظر عن الاعتبارات النحوية، هكذا كان اسمه وهكذا سيظل.

٢. مسلسل كرتوني إنساني يعرفه مواليد الثمانينات والتسعينات حصرًا.

حيفا في سواد العيون

عباس شبلاق

غادرت حيفا طفلا ولم تغادرني. ابتلعتني الصحراء قبل أن أعود اليها بعد أربعة عقود. كان الجو حينها مفعماً بالامل بعد أن وقّع الفلسطينيون والاسرائيليون اتفاق سلام . اطفال اريحا يقدمون باقات الزهر للجنود الاسرائيليين. الصديق الروائي إميل حبيبي صاحب «المتشائل» غدا متفائلا هو الآخر. إتصل بي يحَضّني على الحضور. وتواعدنا على اللقاء في حيفا. كان حبيبي دليلي في زيارتي للمدينة ، واسال نفسي الآن وهل كنت ساتشرف بافضل منه ؟ هو الذي كتب على شاهدة قبره «باق في حيفا» مستلهما العبارة من الفصل الثاني المعنون»باقية» من رائعته «الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد ابي النحس المتشائل « هو ابن حيفا والذي جعل من المدينة واهلها وحواريها فضاء لمجمل اعماله الادبية وارضا لنضالاته السياسية ايضا .

كلانا عاشق للمدينة وكلانا يحب البحر. كان هو يحب صيد السمك أما انا فأهوى الملاحة الشراعية البحرية. الاستدلال على مكتب حبيبي استغرق بعض الوقت حيث أن البلدية عمدت الى تغيير اسم الشارع من شارع الأمم الى شارع الصهيونية. كان ذلك بعد اتخاذ المنظمة الدولية قرارا بأن الصهيونية حركة عنصرية. فات إميل أن يذكر لي ذلك على الهاتف. ربما لانه لم يعترف بالاسم الجديد على ما يبدو.

حيفا بلدة ساحرة التضاريس والمناخ. ذكرتني بمدن أخرى أتيح لي زيارتها مثل سان

فرانسيسكو وكيب تاون. ولكن على نحو أصغروأكثر الفة وبساطة. هذه المدن جمعت البحر والجبل ورائحة شجر السرو والصنوبر وقدرا نسبيا أعلى من التسامح مع محيطها. كانت الصور التي علقت في ذاكرتي عن حيفا ضبابية لصغر سني، اختلط فيها واقع المشاهدة العينية لطفل وصور متخيلة استندت على حديث الأهل لاحقا. لقد انطبعت بذهني مع ذلك صورة مغادرتنا لحيفا . أذكر اني حشرت يومها مع والدي واشقائي الثلاثة في سيارة سوداء فورد صغيرة. حملنا معنا امتعة قليلة ولكنها كانت كافية لملئ كل حيز متاح في السيارة. كان بين الاشياء ماكنة خياطة من نوع سنجر ظلت أمي تستعملها لسنوات، وآلة عود كان والداي مغرمين بها وظلت أمي تردد أغنية شائعة في تلك الاثناء « مرمر زماني ..ما سقاني مرمر» تحكي عن تبدل الايام في حلوها ومرها. كان بين هذه الاشياء أيضا صندوق خشب- أخال أنه كان للحلوى أصلا-أدركت أهميته لاحقا اذ كان بمثابة صندوق لحفظ الأمانات أودع فيه أشياء ثمينة وهامة بينها مفاتيح وأوراق الطابو للبيت ووثائق أخرى بينها شهادات ميلاد وصور العائلة. لقد فقد هذا الصندوق، مع الأسف، عندما احترق البيت وما فيه في بيروت خلال الحرب الأهلية في لبنان. كان ذلك بمثابة فاجعة عظيمة لنا وعلى الأخص للوالدة وأخي الأكبر.

صور عديدة للمدينة وبيت العائلة في منطقة الهدار /الكرمل لا زالت عالقة في الذهن. غمرني شعور بالتحفز واللهفة استعدادا للزيارة. استحضرت حديث الأهل وصور العائلة وما سمعت وقرأت عن المدينة من أعمال ادبية واكاديمية ومذكرات لبعض ابنائها في المنافي العديدة بعد الهجرة بينهم الشعراء حسن البحيري، عبد الكريم الكرمي (ابو سلمى)، محمود درويش، أحمد دحبور، والروائي غسان كنفاني ، والباحثين الياس صنبر ومي صيقلي وآخرين بقوا في الوطن بينهم الروائيين اميل حبيبي وسليمان ناطور والشاعر سميح القاسم وعدد آخر من الباحثيين ، أميل توما، بولس فرح، محمود يزبك، جوني منصور ، مصطفى كبها ،والرسام عبد عابدي، ونشطاء من أمثال : داود تركي، والناشط الاجتماعي حسين اغبارية التقيته في الكبابير وآخرين.

في روايته «عائد الى حيفا» اختار كنفاني حيفا مسرحا لتراجيديا انسانية رفيعة تمحورت حول مصيرطفل فلسطيني تبنته عائلة يهودية بعد أن شردت عائلته في عام ١٩٤٨. لا غرابة في ذلك فرغم أن كنفاني لم يعش في حيفا الا أنها مكان الاشتباك والتفاعل الانساني الابرز بين الطوائف والملل على اختلافها. فحيفا مدينة فتية لم تعد قرية محاطة بالأسوار على الصورة التي شيدها الزعيم المحلي الظاهر عمرفي القرن الثامن عشر. حيفا خلعت أسوارها وانفتحت على العالم. أحتضنت العديد من الوافدين اليها واختلطت فيها الاجناس والملل في تناغم انساني فريد. حمل هؤلاء أحلامهم وأوجاعهم كما جاءوا بثقافاتهم واساطيرهم. ساهم ذلك في مزيج من العادات وأساليب الحياة، كما أوجد روحا عالية من التسامح والابداع بين هذه الجماعات والطوائف الكثيرة. وبسبب هذا الانفتاح والانتعاش الاقتصادي والثقافي منذ نهاية القرن التاسع عشر شهدت المدينة تغيرا اجتماعيا سريعا. لم تعد حيفا قرية بل كما وصفتها صيقلي مدينة كوزموبوليتانية بحق.

لم أكن ادرك تماما مغزى كلام والدتي أثناء تنقلها في مدن الشواطئ العربية كبيروت وتونس والاسكندرية بعد هجرتها من حيفا. كانت دائمة الترديد « لا شيء كبحر حيفا». تقول ذلك وهي محدقة في الأفق البعيد. المدينة ذات موقع أخّاذ يطل على زرقة المتوسط المفتوح على اللامتناهي أمام ذاك الجبل المهيب جبل الكرمل الذي يحتضن المدينة كحمامة بيضاء. بالطبع ليست جغرافية المكان فقط هي التي تدعو الوالدة الى ترديد تلك العبارة. بل هي ألفة الأهل والمكان ايضا وتواصلها مع الروح. وهو المعنى الذي عبر عنه حسن البحيري في شعره الذي لم تغب عنه حيفا أبدا. ومنه استعير عن ديوانه «حيفا في سواد العيون» عنوان هذه المقالة. والتقيت مرتين في بيته الارضي القريب من ميدان البحيرة، وظل البحيري يتذكر طبيعة المدينة الجميلة وبحرها وملاعب الطفولة فيها فيتقطر حنينا وحرقة لمدينته حيث عاش فيها في وادي النسناس التي غاب عنها منح الشاعر «وسام القدس للثقافة والفنون» ١٩٩٠ ، الى أن توفي في دمشق ١٩٩٨ مؤخرا. حيث يقول:

وخضرُ رحابٍ كان فيهن للصّبا

ملاعبُ أحلامٍ وللحب أربعُ

قضيت بها شرخ الشباب حلاوةً

تولّت ولكن هل لها العمر مرجِع

فمنذ الفراق المر ما هجع الضَّنَى

ولا كان جرح السهد في الجفن يهجعُ

أما الشاعر محمود درويش الذي احتضنته حيفا في سنوات ابداعه الاولى فقد ظل في سنوات اغترابه اللاحق في استحضار دائم للمدينة في لحظات اللهفة والحنين الممزوجة بالم البعاد والانكسار. فهي «المرأة» وهي»الوطن» وهي الملهاة والمأساة في آن واحد. فيكتب في قصيدته النزول من الكرمل:

ليوم يحددني موعدا، قلت للكرمل: الآن أمضي

وينتشر البحر بين السماء ومدخل جرحي /

هذه الارض تشبهنا حين نأتي اليها.وتشبهنا حين نذهب عنها.

تركت ورائي ملامحها، واسمها كان يمشي أمامي

يسمي ملامحها وانفجاري. تركت سرير الولادة

تركت ضريحا معدا لأي كلام

... الى أن يقول

تركت الحبيبة عند سفح الجبل تعير العصافير ألوانها

وكانت يداها ينابيع من كل لون وما اشتق منه

ولكنني كنت أشعر أن الينابيع كانت معرضة للجفاف

وأن فمي ينتقل

الى لغة ثانية

درويش الذي عاد الى بلده بعد توقيع اتفاق اوسلو للسلام كان عليه البقاء مع العائدين من الفلسطينيين في رام الله التي قال أنه «غريب» فيها. ولم يعتبر اقامته في رام الله بمثابة عودة الى الوطن. ربما أصبحت حيفا اقرب بالنسبة اليه ولكنه ما زال بعيدا عنها. كان عليه الحصول على اذن خاص للوصول الى حيفا. وهو يذكر الجميع أن وطنه هو في حيفا وليس في غيرها اذ يقول:

أحب البحار التي ساحب
أحب الحقول التي سأحب
ولكن قطرة ماء على ريش قبّرة في حجارة حيفا
تعادل كل البحار وتغسلني من ذنوبي التي سوف أرتكب

أدخلوني الى الجنة الضائعة
ساطلق صرخة ناظم حكمت
آه يا وطني

ثم ان حيفا وكرملها بقيا الاطار المكاني لعمق معرفة درويش الزمانية، فأطلق اسم «الكرمل» على مجلته الادبية المتميزة التي اسسها ورأس تحريرها حتى وفاته.

على مداخل المدينة تدفقت صور الماضي في خاطري ورائي وأمامي بالفعل. اميل حبيبي، الذي رافقني طيلة الزيارة، يشير الى احياء المدينة ومعالمها وأنا استبقه في ذكر اسمائها ومواقعها.. جسر روشميا، الحليصة وحسبة الخضار، ساحة الجرينة أو الحناطير التي تحولت لاحقا الى محطة حافلات كهربائية تحت الارض بناها الفرنسيون. في القرب منها كانت فرقة حيفا

المسرحية اتخذت مقرا لها في آخر البيوت العربية القديمة. كانت الفرقة تضم فنانيين عربا ويهودا وتقدم عروضا انتقادية وجريئة. الالمانية حيث كانت كروم التين والعنب قبل أن يقوم «اتحاد الهيكليين» الالمان (Templers) ببناء مستعمرتهم عليها. وادي النسناس قلب الاحياء العربية حيث سكن معظم الأهل، الهدار الحي المختلط حيث بيت العائلة، وحي عباس اسوة بالبهائي عباس الذي التجأ وجماعته الى حيفا وشيد مقرا فيها أصبح معلما غاية في دقة التصميم والجمال. لاحظت أن حديقة المقر أصبحت مهوى العشاق والمتزوجين حديثا الذين يلتقطون فيه الصورلتخليد ألاعراس. أما "الخضر" الذي تحتفي فيه طوائف عديدة، كل على طريقته الخاصة، فكان مناسبة للفرح ولقاء العائلات من كل الملل والاطياف فلا زالت طقوسه مستمرة لليوم.

أما الكبابير تلك القرية الوادعة على الطرف الجنوبي لجبل الكرمل وغدت متصلة بحيفا، فلا زال فيها بعض الاهل نعرف عنهم ويعرفون عنا، لكن فرقتنا الحدود حتى تلك اللحظة. ذهبت وإميل حبيبي برفقة جمعت بعض كبارالسن وشبابها، وقال لي اميل أن عائلة عودة هي الكتلة الاكبر في الانتخابات. سميحة القزق تزوجت من دار عودة وكان لقاء سميحة قريبة وصديقة الطفولة مع والدتي زهية القزق. تزوجت سميحة من عائلة عودة ممن ارتحلوا منذ عقود من قرية نعلين في الضفة الغربية واستقروا في الكبابير في الكرمل. كانت سميحة السيدة الأكبر سنا ممن بقوا من العائلة في حيفا وكانت تحكي للاطفال حكايات مشوقة لها . لا أدري لماذا علقت بذهني احداها أكثر من غيرها هي «حكاية الطائر الأخضر» التي كثيرا ما رددتها وأطلقت عنان خيالي كطفل. الطائر الأخضر هو روح انسان قتل غيلة أو غدرا. لا يستقر على أرض أو شجر. هو يحوم حول شبابيك البيت دائم الطيران لا يهدأ ولا يحط في مكان بحثا عن قاتله. كان من الباقين من القزق رجل مسن فريد اسمه حسن يحمل دائما مفاتيح بيوت عائلة القزق المفرغة بعد خروجهم الى سوريا ولبنان مع امل العودة. أما ابراهيم القزق فقد تزوج من سيدة سورية من دمشق سافرت مع طفلها الصغيرعلي الى اهلها في دمشق بانتظارعودتها الى الكبابير. أما الطفل علي فقد احتضنه عمه خضر مع

أطفاله واستقرعلي في استراليا نقيبا عماليا واصبح سفيرا لمظمة التحرير الفلسطينية. وقال إميل دعنا نتنقل في الكرمل قبل الذهاب لزيارتهم. وظل أميل يردد: «هذا الجبل يمنحني الامل والاستشراف. أصعده كلما احتجت لذلك». وقد يكون هذا سبب اطلاقه اسم « مشارف « على المجلة التي اسسها وراس تحريرها.

حيفا ككل المدن البحرية لها رائحتها الخاصة. إنها الرائحة ذاتها التي لامستها في مدن أوسطية أخرى زرتها مثل تونس،الجزائر، مرسيليا، باليرمو، أو فاليتا. ذهبت وإميل حبيبي برفقة بعض كبارالسن نبحث عن بيت العائلة في الهدار في راس وادي الصليب. والدتي وشقيقتي يعشن في اوكسفورد، وآثرن عدم مرافقتي حبذن البقاء لعدم السفر وقالت الوالدة : «المصاب كبيرلا أريد أن أموت من الصدمة وصحتي لا تحتمل. سلّم لي على «الحمراء» واحضر لي بعض الصور»، هي سيدة يهودية من رومانيا منحتها الوالدة اسمها الحقيقي سارة. سارة كانت المستأجرة الوحيدة التي ما زالت تعيش في الشقة الارضية من البيت. الواقع على راس أحد ادراج وادي الصليب الصاعدة من وسط البلد الى الكرمل. طرق اميل الباب تعرفت سارة علي بسرعة وقالت «آه بالطبع أذكرك جيدا أنت الولد ا المشاغب كنت تلاحقني للعب الأحذية على الدرج، وكانت سارة تغلق الكهرباء والتلفون وتعطي الحلويات للاطفال «. سارة دعتنا للدخول وأصرت على أداء واجبات الضيافة تماما كما تتصرف والدتي أو أي امرأة شرقية. تحدثت عن أيام جميلة قضتها مع أهلي وعن» شيطنات» كنا نقوم بها وطفلاها ميلو وشقيقته اوليف. لم تكف عن الحديث وأنا متلهف لسماع المزيد. قالت سارة: انا احضرت الأثاث من شقتكم في الطبقة العليا لاحافظ عليه». «جاء غرباء الى البناية بعد رحيلكم لم أرتح لهم». هل لاحظت ان بعض الشبابيك مقفل بالطوب واسقاط البلكونات /البرندات المواجه للبحر. ان البلدية تترك هذه البنايات للاهمال لحين تسقط أو تنهار. لا أدري من يسقط أولا، أنا أم البيت، لكني قضيت حياتي بعد الزواج وربيت الاولاد في هذا البيت ولن أتركه.

التقطت بعض ألصُور لسارة والبيت لاحظت أن هناك صور لرجل وامرأة بالبزة العسكرية.

«أه هذا ميلو وأوليف» قالت سارة. .كان هذا خلال خدمتهما العسكرية. هما متزوجان الآن ولكل منهما عائلته. يعيشان خارج المدينة. سأتصل بهما الليلة وانقل تحياتك. سيسعدان بسماع أخبارك واللقاء بك . اتفقت وسارة أن أعاود زيارتها في اليوم التالي ألاحد مع صديق لديه كاميرا فيديو كي أسجل لها حديثا معها لآخذه للوالدة. رحبت بذلك في المساء اتصلت سارة بي تلفونيا. قالت تستطيع الحضور لوحدك لشرب فنجان قهوة لكن دون آخرين ودون تسجيل حديث. سارة لم تذكر شيئا عن ابنائها.

داومت على الخروج مع إميل حبيبي الى البحر. كان البحر بالنسبة له متنفسا للتأمل رغم أنه كان صيادا فاشلا . كان دائماً يردد: « أنهم قتلوا البحر وقتلوا السمك أيضا»، ويواصل «لا بأس سنشتري السمك من السوق ولكن لا تفصح بذلك لزوجتي». كنا نطل على حيفا من البحر ويقطع حبيبي تأملنا بالقول:

الا ترى حيفا انها على البعد أروع.

هل غيرت رأيك وتريد مغادرتها اذن؟ لا بالطبع لا ولكن حيفا تغيرت. لم تعد كما تعرفها ثمة اشياء كثيرة تجري هناك على البر. ربما كان اميل يدري نفسه كالمغدور الذي تحول الى الطائر الأخضر. اميل لا يرى التسامح تماما الذي اتّسمت به حيفا الان. وعندما كان إيميل يتحدث في زيارته في لندن عن مشروع أدباء كبار بحضور محمود درويش. طلبت في حينه بترتيب لقاء مع الكاتب المسرحي البريطاني الكبير هارولد بنتر Harold Pinter الحائز على جائزة نوبل وبحضور حبيبي ودرويش في فندق قريب من هولاند بارك. كان الحديث في جلسة قيّمة ربما يتلقفها مبدعون لآخرين بديل تراجيديا اقصاء الآخر، الكراهية، ومسلسل الموت.

ربما يتلقف فيها بذور قيَم التسامح كقيمة انسانية عليا، ورؤية الاخر والتعايش معه .

مراجعات وتقارير

"إمّا نحن وإمّا هم".. حين وثق داني روبنشتاين سيرة الشهيد عبد القادر الحسيني من مصادر عربية!

يوسف الشايب

في استعراضي لكتاب «إمّا نحن وإمّا هم» للكاتب والصحافي الإسرائيلي المتخصص بالشأن الفلسطيني داني روبنشتاين، والصادر بالعربية، حديثاً، عن المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية (مدار) في رام الله، ويتناول تفاصيل الساعات الأربع والعشرين الحاسمة من معركة القسطل، الذهاب إلى شيء ممّا كتبه أنطوان شلحت في تقديمه للكتاب الذي ترجمه سليم سلامة، وخاصة حين كتب: سأسمح لنفسي بأن أقفز عامداً عن الوقائع التي يوردها داني روبنشتاين في هذا الكتاب، لا من باب تبخيس أهميتها، ولا من باب التنائي عن مساجلتها، لاسيما وأن فيها مجموعة من المغالطات أحياناً، كما أكّد لنا أفراد من عائلة الحسيني، الذي يتناول الكتاب سيرة واحد من أعمالها ومن رموز قضية فلسطين، وهو القائد الشهيد عبد القادر الحسيني، وإنما كي انتقل مباشرة للإشارة إلى عدّة نقاط قوة تكمن فيه، وهي ما رجحت إنجاز ترجمته إلى اللغة العربية، مع التأكيد أنها ليست نقاط قوته الوحيدة.

أولى هذه النقاط أن المؤلف يعيد التذكير بأن العام ١٩٤٨ هو عام مصيري للغاية في تاريخ قضية فلسطين، كونه العام الذي «استطاع فيه اليشوف اليهودي تأسيس دولة مستقلة ومزدهرة، بينما حل بالفلسطينيين، في المقابل، دمار وطني شامل، وشخصي أيضاً في كثير من الحالات». وهو يفعل ذلك بالأساس بواسطة التركيز على القدس ومعركة القسطل، من خلال

أحد رموزهما في تاريخ النكبة الفلسطينية، القائد والمناضل عبد القادر الحسيني، معتبراً أنه بنظرة إلى الوراء يمكن الجزم بأن اليوم الحاسم في معركة القسطل ومقتل الحسيني هما عصارة قصة سقوط القدس العربية، وربما قصّة النكبة الفلسطينية كلها.

فضلاً عن هذا، والحديث لشلحت، من المهم الإشارة إلى نقطة قوة ثانية هي تنويه المؤلف بأنه كُتبت بشأن معارك القدس بشكل عام، وبشأن معركة القسطل بوجه خاص، عشرات بل مئات الكتب والمقالات والأبحاث، التي استخدمت، في غالبيتها الساحقة، مصادر إسرائيلية وأجنبية، بينما القليل منها فقط استند إلى مصادر عربية، ليؤكد سعيه للاستئناس أولاً وقبل أي شيء بالمصادر العربية، بما في ذلك مصادر عائلية بقيت خارج دائرة الاستخدام، تماماً تقريباً، طوال أعوام عديدة.

أما روبنشتاين نفسه فيرى أن جميع من كتبوا عن العام ١٩٤٨ ومعركة القسطل، اعتبروها «نقطة تحوّل رمزية ودراماتيكية في المعارك التي اندلعت في البلاد عشيّة انتهاء الانتداب البريطاني في ١٥ أيار»، لافتاً إلى أنه «في ذلك اليوم الذي جرت فيه معركة القسطل، وقع حدثان آخران: مذبحة دير ياسين ومعركة مشمار هعيمق، بحيث حسم هذان الحدثان مصير الحرب، حتى قبل أن تدخل الجيوش العربية ساحة القتال، بعد ذلك بوقت قصير.

في سنوات لاحقة، وفق روبنشتاين، طالبت شخصيات فلسطينية، في سنوات لاحقة، بتحديد ذكرى «يوم النكبة»، أي ذكرى فقدان الوطن الفلسطيني، ليس في يوم ١٥ أيار، الذي أقيمت فيه دولة إسرائيل، بل قبل ذلك بخمسة أسابيع، أي في يوم ٩ نيسان، اليوم الذي جرى فيه دفن عبد القادر الحسيني، القائد الفلسطيني المحبوب، الذي قتل خلال معركة دارت في الليلة السابقة، قبل بزوغ فجر يوم الخميس، الثامن من نيسان ١٩٤٨.

ولفت روبنشتاين، قبل الغوص في تفاصيل المعركة وما يحيط بها من جدل، إلى أنه من بين الكتابات العربية الكثيرة عن القسطل، ثمة بيت شعر من قصيدة للشاعر محمود درويش، ويعني قصيدة «أبد الصبّار»، بحيث يروي عن الأب الذي يأمر ابنه: يا ابني تذكّر غداً وتذكّر قلاعاً صليبيّة قضمتها حشائش نيسان، لافتاً إلى أنه من بين «القلاع الصليبية التي قضمتها

حشائش نيسان»، يبدو أن القسطل هي الأكثر أهمية، باعتبارها قلعة شاهقة في الطريق الصاعد من منطقة وادي الخليل إلى القدس. خلال العصر الروماني، بحيث أقيمت على هذه القمة قلعة ثم على أسسها أقيمت، في الحقبة الصليبية، «قلعة كوكب الهوا»، ثم على أنقاض القلعة، نشأت لاحقاً قرية عربية صغيرة نسبياً، مثلما حصل في أماكن أخرى «في البلاد».

ويسرد روبنشتاين: بدأ اهتمامي بمعركة القسطل في الفترة التي عملت فيها صحافياً، عقب حرب العام ١٩٦٧، التقيت، آنذاك، بفيصل الحسيني، الابن الأوسط لعبد القادر الحسيني. أصبحتُ خلال سنوات عديدة من العمل الصحافي في القدس الشرقية وفي المناطق الفلسطينية، على علاقة ثابتة ودائمة، شبه يومية، مع ممثلين سرّيين، في البداية، ثم رسميّين لاحقاً للحركة الوطنية الفلسطينية بقيادة منظمة التحرير الفلسطينية. كان فيصل الحسيني يترأس ممثلية القيادة في القدس الشرقية، على حد وصف الكاتب الإسرائيلي، الذي أضاف «التقيت به خلال فترات متقاربة، في مكتبه في بيت الشرق (أورينت هاوس)، إحدى البنايات الأكثر فخامة وبقيت قائمة من حي الحسيني الذي أنشئ في أواخر العصر العثماني، على المساحة الممتدة ما بين الشيخ جرّاح ووادي الجوز.

وأشار روبنشتاين إلى أن فيصل الحسيني، كان في الثامنة حين «قتل والده في معركة القسطل»، وكان يعيش مع والدته وشقيقته وشقيقيه في القاهرة، وأن والده عبد القادر «أبعد العمل الوطني عن بيته وعائلته لفترات متواصلة»، إلا أن فيصل «جمع شهادات عديدة عن والده، حفظها في مكتبه، في الأرشيف، وفي مكتبة صغيرة ملاصقة لمكتبه.. من بين من التقاهم فيصل الحسيني كان يعقوب سلمان قائد الثكنة التي كانت على قمة القسطل، والتي منها أطلق مرؤوسه، مئير كرميول، صلية الرصاصات التي أصابت عبد القادر. قُتل كرميول بعد ذلك ببضع ساعات، والشهادة التي أدلى بها قائده، سلمان، هي الوحيدة التي كشفت بعض التفاصيل عن ملابسات موت القائد الفلسطيني، لافتاً إلى أن إغلاق «بيت الشرق»، وحظر الدخول إليه من قبل الحكومة الإسرائيلية، حال دون وصوله إلى بعض الكتب والوثائق التي كانت بحوزة فيصل، إلا أن الوثائق التي أتاحت تأليف هذا الكتاب، وفق الكاتب والصحافي

الإسرائيلي، هي التي تولى نجله عبد القادر، ويحمل اسم جدّه، مهمة تجميعها وتركيزها، في المعهد الثقافي الصغير الذي أقامه وشقيقته فدوى في «الرام»، بجوار استاد «فيصل الحسيني» لكرة القدم.

أشار روبنشتاين إلى مصادره الأساسية، وهي مقابلات مع أفراد العائلة، ومع باحثين فلسطينيين على فترات امتدت لعقود كعارف العارف ود. شريف كناعنة وغيرهما، علاوة على الصحف اليومية الفلسطينية، وفي مقدمتها صحيفتا فلسطين والدفاع اللتان ظلتا تصدران في يافا حتى احتلالها في العام ١٩٤٨.

في العام ١٩٣٦

ومما جاء في الكتاب، وتحديداً في الفصل الموسوم بـ»ثورة»، أنه «في الأسبوع الأول من أيلول ١٩٣٦، حين كان الإضراب العام الذي بدأ في نيسان لا يزال في أوجه، عبر الحدود الشمالية قادماً إلى البلاد، القائد العسكري سعيد العاص، المولود في مدينة حماة السورية والضابط السابق في الجيش العثماني، وأُعتبر أحد أبطال الثورة السورية في العام ١٩٢٥ ضد حكم الفرنسيين.. انضم العاص إلى من كان ضابطاً عثمانياً أكثر شهرة، فوزي القاوقجي، المولود في مدينة طرابلس اللبنانية، وقدم إلى البلاد في صيف ١٩٣٦، على رأس عدد من مجموعات المتطوعين العرب الذين جاءوا لمساندة الثوار العرب في فلسطين».

وصل العاص، والحديث لروبنشتاين، البطل العربي الذي وصفته وثائق الهاغناه بأنه «مغامر سوري» في منطقة القدس، بغية تنظيم وقيادة مجموعات الشبان، وغالبيتهم من محافظات القدس وبيت لحم والخليل، وهم من نفذوا جملة من هجمات إطلاق النار على قوافل وجنود وموظفين ومنشآت تابعة للجيش والحكم البريطانيين، حسب ادعائه، وكان بين أولئك الشبان العرب «مقدسيّ يبلغ من العمر ٢٦ عاماً، كان مميزاً بين الثوّار، ذا ثقافة أكاديمية، وابناً للعائلة العربية الأكثر عراقة ومقاماً في القدس وفي فلسطين عموماً، في ذلك الوقت، عبد القادر الحسيني.

قبل ذلك، حسب ما كتب روبنشتاين، «كان عبد القادر الشاب قد تأثّر عميقاً بنشاط الداعية الإسلامي الشيخ عز الدين القسّام، الذي جاء من سورية إلى حيفا، وكان ينوي تنظيم حراك تمردي ضد الإنكليز واليهود في الوقت ذاته. تولى تنظيمه (اليد السوداء)، تنفيذ سلسلة من الهجمات ضد اليهود والإنكليز في منطقة حيفا وفي شمال البلاد. في تشرين الثاني ١٩٣٥، هاجم رجاله وحدة للشرطة بالقرب من عين حارود في مرج ابن عامر، بعد ذلك بشهر واحد، قُتل الشيخ القسّام خلال معركة مع البريطانيين قرب بلدة يعبد في محافظة جنين، دُفن في قرية بلد الشيخ (هي، اليوم، تل حنان، عند مشارف حيفا من الشرق).. شاركت جموع غفيرة في تشييع جثمانه، وأصبح الشهيد الأول في النضال الوطني الفلسطيني، أطلق اسمه على الذراع العسكرية لحركة حماس (كتائب القسام)، وعلى قذائف القسام المعروفة.. يقوم شبان يهود بتحطيم الشاهدة على قبره من حين إلى آخر، فيعيد شبان عرب بناءها من جديد، حيث تحظى شخصيته بالاحترام والإعجاب لدرجة أن فلسطينيين كثيرين درجوا، في السنوات الأخيرة خصوصاً، على إطلاق اسم قسّام على مواليدهم الذكور، مثلاً مروان البرغوثي، أحد قادة حركة فتح المسجون في إسرائيل".

وفي ذات الإطار، تابع روبنشتاين: متأثراً بأعمال الشيخ القسام، نظم عبد القادر الشاب مجموعة في القدس من الفتيان من حركة الكشافة العربية، وأطلق عليها اسم «اليد الخضراء» (ثمّة مجموعة عربية أخرى حملت الاسم ذاته كانت تنشط في الجليل قبل ذلك، في العام ١٩٢٩).. في لقاءاتهم، كان هؤلاء الفتية يتحدثون عن عمليات ينبغي تنفيذها، غير أن العمليات الحقيقية التي تم تنفيذها فعلياً كانت قليلة، وتلخصت غالبيتها في توزيع منشورات، ورمي حجارة، وتخريب خطوط هواتف، إلا أن التنظيم انتقل إلى مسار أكثر جدّية، إثر اللقاء الذي بادر إليه عبد القادر خلال الأسابيع الأولى من صيف ١٩٣٦ في مكاتب الحزب العربي الفلسطيني، حزب آل الحسيني.. كان مقر الحزب في منزل عائلة دزدار في حي مصرارة (...) كانت تلك كما يبدو، المرة الأولى التي يجري فيها نقاش حول تنظيم وحدة عسكرية سيطلق عليها لاحقاً اسم «الجهاد المقدس»، بل نظم المشاركون في اللقاء، أيضاً،

مراسم تأدية القَسَم، على غرار الطقوس التي كان من المعتاد تنظيمها في مدرسة روضة المعارف، معقل آل الحسيني.. وكان نصّ القسم «الحياة حقي، الاستقلال غايتي، العروبة مبدأي، فلسطين أرضي ولا مكان فيها لغير العرب. هذا ما أؤمن به، والله على ما أقول شهيد» (...) تزوّدت مجموعات الشبّان بالسلاح، وانطلقت لتنفيذ عمليات خلال الأيام الأولى من إعلان الإضراب واندلاع الاضطرابات. لكن عبد القادر لم ينضم إلى تلك المجموعات.. قبل ذلك بسنة واحدة، في أيار ١٩٣٥، كان قد تزوج من ابنة عائلته، وجيهة الحسيني، ابنة أحد أثرياء العائلة، موسى رضا الحسيني، ومع بدء الاضطرابات، وُلدت ابنتهما البكر هيفاء.

وواصل: لم يخرج الوالد الشاب إلى الجبال سوى في نهاية الصيف، في أيلول، وحظي على الفور بمكانة مميزة بين الثوار، لكونه من عائلة عريقة، مثقفاً، بالغاً، ومتزوجاً.. كانوا يجلّونه بسبب شجاعته وطبعه المقدام (...) كان واضحاً في مطلع أيلول ١٩٣٦، حين جاء من سورية سعيد العاص العسكريّ المحترف المكلل بهالة بطل المعارك، أنه من بين أعضاء مجموعة الثوار في جبال القدس والخليل، عبد القادر وحده هو المرشح الطبيعي ليكون نائبه. لم يعرف اسمه كثيرون، آنذاك، كما لم يعرفوا في تلك الأيام أيضاً أسماء الثوار الآخرين الذين كانوا نشطاء في العمل السريّ، وكانوا مطلوبين للسلطات البريطانية.

معركة الخضر

ويروي روبنشتاين في كتابه، نقلاً عن الباحث الفلسطيني عيسى خليل محسن، وصفاً مثيراً للجدل لمعركة الخضر، قرب بيت لحم، حيث استشهد سعيد العاص، حيث «قاتل المجاهدون بكل ما أوتوا من قوة وعزم إلى أن نفذت ذخائرهم، فاستلوا عندئذ سيوفهم وخناجرهم وحاربوا وجهاً لوجه. وصل الجنود البريطانيون حتى سعيد العاص وعبد القادر، اللذين كانا يختبئان وراء صخرة، ويطلقان النار على الجنود، فأصيب بعضاً منهم بجراج.. في النهاية نفذت الرصاصات من مسدس العاص فأصيب بطلقات نارية وسقط بالطريقة التي أراد أن يموت فيها.. طعن عبد القادر في مؤخرته من قبل أحد الجنود، وكان مُلقى على الأرض،

فيما انهال عليه الجنود بالضرب بأعقاب بنادقهم وهم يطالبون بقتله، بيد أن أحد الجنود أوقفهم عن ذلك، وقال: هل تقتلونه بعدما رأيتم شجاعته وبطولته؟ (...) في تلك اللحظة، وصل القائد البريطاني، فتوجه إليه عبد القادر باللغة الإنكليزية، وقال: هل هكذا تعاملون الأسرى؟».

طبقاً لشهادة أخرى قدّمها أحد المقاتلين العرب، كما وصفه روبنشتاين، «طلب عبد القادر، المُصاب جراء الطعنة في مؤخرته، التحدث مع القائد البريطاني. وافق الجنود، وحين وصل القائد، قال له عبد القادر: هل تعلم جنودك أصول القتال، أم جاءوا من خلف الدواب والبقر؟، ثم أضاف: أنتم جئتم لتسلبوا حقوقنا، وجئتم بجنود متوحشين أسوأ من البهائم والكلاب».. وفقاً لهذه الرواية، والحديث للكاتب والصحافي الإسرائيلي، سمع الجنود وقائدهم هذه الإهانات، لكن ما فاجأهم أكثر هو حقيقية أن الشاب العربي كان يتكلم الإنكليزية بطلاقة.. أرادوا أن يعرفوا من هو ومن يكون، كتب محسن، لأنهم كانوا يعتقدون بأن المقاتلين العرب متخلفون ولا يقاتلون من أجل الحقيقة والحرية والحقوق، بل لأنهم يحبون سفك الدماء أو لأنهم مرتزقة.

"أنزل الجنود البريطانيون عبد القادر المصاب، ودمه ينزف إلى الشارع، حيث كانت تقف وحدة من رجال الشرطة الفلسطينيين الذين كانوا يخدمون في حكومة الانتداب، على رأسهم سعيد العزايزة، وكان يعرف عبد القادر شخصياً. قدموا له إسعافاً أولياً واقتادوه، أسيراً، إلى المستشفى العسكري الحكومي في القدس، وقال عزايزة: لو لم نكن هناك لمات عبد القادر".

يصف روبنشتاين الرواية المنقولة على ألسن المقاتلين بالمبالغ فيها، مع أنه، ورغم مرور سنوات طويلة، كانت هذه الحكايات لا تزال معروفة لدى مسنيّ «الخضر»، مع أنه من التقاهم الكاتب والصحافي الإسرائيلي كانوا «يتذكرون أموراً أقل بطولة من تلك»، بحيث نقل عن محمد حسن، من سكان البلدة، وعايش تلك الحقبة، أن الرجلين وصلا عنده هاربين من الجنود البريطانيين، واقترح عليهما خلع لباسهما العسكري وارتداء ملابس فلاحين والاختباء في أحد المباني الحجرية التقليدية التي كانت قائمة في قطعة الأرض، كخدعة معروفة للتمويه

والهرب في تلك الأيام، وبينما كانوا يواصلون الكلام، وصل الجنود الإنكليز، حيث أطلقوا النار على سعيد العاص فوراً، وأردوه قتيلاً، وبعدها دفن هناك، فيما انهالوا على عبد القادر بالضرب، وقام أحد الجنود بطعنه في مؤخرته، ثم نقلوه إلى مستشفى في القدس فوراً.

وضع عبد القادر في المستشفى الحكومي العسكري بالقدس، وحسب روبنشتاين، تروي الشهادات العربية أن حشوداً انطلقت من باب الخليل وباب العمود للتظاهر أمام بوابات المستشفى، من يوم إدخاله (...) كما كتب عيسى خليل محسن، كان أحد أسباب الانفعال وتأجج المشاعر في المدينة، النبأ الذي شاع عن وفاة سعيد العاص، لكن ما أثار الانفعال أكثر من ذلك هو النبأ عن إصابة عبد القادر الحسيني.. ليس الانتساب إلى عائلة الحسيني المعروفة والعريقة هو الذي ألهب مشاعر الناس، بل بالأساس، كون عبد القادر هو ابن موسى كاظم الحسيني، القائد الفلسطيني الأبرز الذي توفي قبل ذلك بعامين، إضافة، بالطبع، إلى قرابته لقائد آخر، ابن العائلة الذي سيغدو لاحقاً شخصية واسعة الشهرة، المفتي الحاج أمين.

نقل روبنشتاين عن قاسم الريماوي (تولى منصب رئيس الحكومة الأردنية لفترة قصيرة)، وكما روى في مذكراته أن حراسة خاصة كانت وضعتها السلطات البريطانية على غرفة عبد القادر، وكانت تنتظر شفاءه كي تستطيع تقديمه إلى المحاكمة، لكن الكاتب الإسرائيلي يشير إلى أنه، وبعد تعافي عبد القادر من إصابته بوقت قصير، وفي خطوة مفاجئة، تم إطلاق سراحه بكفالة مالية، شرط أن يمثل في الموعد المحدد لمحاكمته، بعد ثلاثة أسابيع من ذلك اليوم. كان مبلغ الكفالة ٢٥٠ جنيهاً وهو مبلغ كبير جداً في تلك الأيام، دفعه ابن العائلة، محيي الدين، كما أوكلت العائلة محامياً بالمرافعة عن عبد القادر، كان الأفضل والأكثر شهرة والأعلى تكلفة في المدينة، ذلك الوقت، هنري أفندي قطّان.

لم يحضر عبد القادر المحكمة، وغادر البلاد إلى دمشق وبيروت وبغداد، وسط تأويلات متضاربة، بعد أن وضعت المحكمة البريطانية يدها على المبلغ، وأمرت الشرطة بإحضاره، فهناك من قال إن عائلة الحسيني استفادت من إعلان وقف إطلاق النار في ١٢ تشرين الأول ١٩٣٦ بوساطة عربية، وهناك من قال إن العائلة دفعت رشوة لضباط الشرطة البريطانية

مقابل إخلاء سبيل عبد القادر بكفالة، وهناك روايات أخرى، شكك فيها صاحب كتاب «إمّا نحن وإمّا هم»، تفيد بأن عبد القادر المصاب نجح في الهروب من سجنه إلى المستشفى، ومن ثم من الأسر البريطاني.

ألمانيا ومن ثمّ العودة

ومما جاء في الكتاب المثير للجدل، أن عبد القادر انتقل، بعد أن غادر فلسطين، إلى شرق الأردن ثم إلى بيروت عبر دمشق، قبل أن ينتقل إلى العراق، ومنها، بعد أيام إلى ألمانيا، التي «تعزز فيها قوة النظام النازي، آنذاك»، ومكث فيها عدّة أشهر لغرض الاشتراك في دورات عسكرية، رابطاً ما بين سلوك عبد القادر هذا، وسلوك مفتي القدس الحاج أمين الحسيني وأقراد حاشيته أيام الحرب العالمية الثانية، حيث أمضى معظم وقته في إيطاليا.

وحسب ما جاء في الكتاب، فإن عبد القادر وصل إلى دمشق بعد سنة ونصف قضاها في ألمانيا، وتحديداً في نهاية حزيران ١٩٣٧، وكان يتنقل لأربعة أشهر، ذهاباً وإياباً ما بين دمشق وبيروت، حيث التقى النشطاء الفلسطينيين الذين غادروا البلاد، وتابع التطورات الدراماتيكية التي حصلت في ذلك الصيف: نشر تقرير لجنة بيل، واغتيال أندروس الحاكم البريطاني الفعلي للجليل، وحل المؤسسات القيادية، وتدهور الأوضاع الأمنية بين عرب البلاد، مشيراً إلى أنه التقى بالمفتي الحاج أمين وزملائه من الهاربين في دمشق، وعمل معهم على إشعال الثورة من جديد، بل وعكف على شراء الأسلحة والتجهيزات العسكرية، وتدريب الشبان وتنظيمهم، قبل أن يتسلل في النصف الثاني من تشرين الأول ١٩٣٧ إلى البلاد، حيث أمضى بعض الوقت في أبو ديس، متحدثاً عن لقاء قصير وسري جمعه بكامل عريقات، ابن إحدى العائلات المرموقة في البلدة، وكان خدم في الشرطة البريطانية، وأصبح في العام ١٩٤٨، نائباً له في «الجهاد المقدس».

وتحدث روبنشتاين عن أن عبد القادر بدأ بتنظيم الفريق الأول من المقاتلين من أبناء عشيرتي التعامرة والعبيدية البدويتين، إلى الشرق من بيت لحم، وإلى أن العملية العسكرية

الأكبر التي نفذها ورجاله خريف ١٩٣٧، كانت هجوماً على قافلة بريطانية قرب «عطوف»، حيث استطاعوا قتل جنود بريطانيين والاستيلاء على سلاحهم، وانه مع ربيع وصيف ١٩٣٨ بلغت ثورة عبد القادر ورجاله أوجها حيث نفذوا سلسلة طويلة من الهجمات ضد مقرات الشرطة البريطانية، وضد بلدات وأحياء يهودية في المنطقة المحيطة بالقدس، وإلى أنه أفلت أكثر من مرة من الاعتقال أو القتل، ومنها كيف أن القنصل العراقي ساعد في تهريبه إلى بغداد، وبعدها بيومين منح الجنسية العراقية، وحمل جواز سفر باسم «يوسف الصايغ»، وكيف قاتل إلى جانب الثوار العراقيين ضد البريطانيين، قبل أن يفر وآخرين إلى تركيا ومنها إلى إيران، حيث سمح حرس الحدود الإيراني بدخوله دون رجاله، لكنه رفض، وعاد بعد مسير طويل رفقتهم إلى بغداد، بمساعدة العديد من رجال القبائل العراقية، وكيف اعتقل عبد القادر لسنة في العراق، تحول فيها إلى زعيم للسجناء، قبل أن يغادر، برغبة من الشرطة البريطانية إلى مكة التي استقبله فيها الملك عبد العزيز بن سعود بحفاوة كبيرة، وفق ما جاء في الكتاب، لكونه نجل «شيخ القضية الفلسطينية» موسى كاظم باشا، الذي كان صديقاً حميماً للملك، وفي السعودية خضع لسلسلة من العلاجات الطبية لضمان شفائه التام من الجراح التي أصيب بها خلال الثورة، وقضى فيها قرابة السنتين منذ مطلع العام ١٩٤٤.

عبد القادر وعرفات في القاهرة

كان عبد القادر الحسيني في مساء يوم ٢٩ تشرين الثاني ١٩٤٧ في القاهرة، بعد أن كان طرد منها حين كان طالباً جامعياً متمرداً في العام ١٩٣٢ (...) استقبل عبد القادر، الذي استأجر له شقة في حي شبرا الشعبي، الحاج أمين بإعلان ولاء (...) كان بين المجتمعين حول المفتي وعبد القادر، أيضاً، شاب يدعى عبد الرحمن عبد الرؤوف عرفات القدوة الحسيني، الذي كان قد أصبح معروفاً باسمه المختصر ياسر عرفات.. ووفق روبنشتاين، فإن خاله الشيخ المقدسي حسن أبو السعود، الذي كان إلى جانب المفتي في القاهرة، هو الذي أحضر عرفات إلى الساحة الفلسطينية في العاصمة المصرية (...) «كان عبد القادر الحسيني أكثر من جذب

ياسر عرفات من بين المهجرين الفلسطينيين جميعاً. وكان عرفات يتردد إليه في منزله كثيراً، وحسب ما روي، فقد كان يلعب مع ابنه فيصل، ابن السنوات الست، ويقرأ معه آيات من القرآن الكريم، وروى عرفات لاحقاً، أنه انخرط في تلك الفترة في فعاليات مجموعة عبد القادر من المقاتلين القدامى في القاهرة».

في فلسطين أخيراً

"دخل عبد القادر إلى فلسطين بعد صدور قرار التقسيم بثلاثة أسابيع، في ٢٢ كانون الأول ١٩٤٧ تحديداً، ووصل إلى جبال الخليل بداية، إلى منزل إبراهيم أبو دية، وعلى الرغم من أنه كان لا يزال بمثابة مطلوب للسلطات البريطانية، إلا أنها لم تحاول اعتقاله، حيث قطعت سيارته حدود سيناء، وصعدت في اتجاه بلدة بيت جبرين، ومن هناك إلى الخليل، وعبر طريق ترابي مهترئ وصل إلى قرية صوريف الصغيرة حيث استقبل بحفاوة كبيرة، وحيث احتشد جمهور غفير من الناس لرؤيته بعد غياب لقرابة الثماني سنوات عن فلسطين (...) على خلفية ما لاحظه من تغييرات حيث أقيمت البلدات اليهودية على الشارع الرئيسي الواصل ما بين بيت لحم والخليل»، أي المستوطنات أو المستعمرات، «قرر عبد القادر مهاجمة غوش عتصيون»، خاصة أنه و»بعد وصوله إلى صوريف بنحو ثلاثة أسابيع، نفذ رجاله حملتهم الأولى الكبيرة، بالهجوم على كفار عتصيون»، بعد أن كانت في «٢٥ كانون الأول، تنظمت في قرية صوريف وحدة المقاتلين النظامية الأولى في (الجهاد المقدس)»، ثم تنظمت أيضاً وحدات مماثلة تحت الاسم نفسه في مناطق عربية أخرى».

وواصل روبنشتاين في الفصول الأخيرة من الكتاب حديثه بالقول «نظم عبد القادر خلال وقت قصير جميع الهجمات ضد التجمعات اليهودية في حي سنهدريا في شمال القدس، وقرب قرية بيت صفافا في جنوب المدينة، كما وقعت حوادث إطلاق نار عديدة في داخل البلدة القديمة، أصيب في إحداها صبحي أبو غربية برصاصة في رأسه، وهو أحد المقاتلين المخضرمين وأكثرهم شجاعة، وأحد الموالين لعبد القادر ومرافقيه منذ الثورة (...) بعد أسبوعين من

عودة عبد القادر إلى البلاد، تنفذ وحدة الهاغناه في القدس تفجيراً لفندق سميراميس"، لافتاً إلى أن "عبد القادر عقد في الفندق فعلاً، لقاء مع مجموعة من الأشخاص، وغادره قبل وقت قصير من تفجيره".

وعلى مدار الفصول التالية يروي روبنشتاين حكايات كثيرة حول ما فعله عبد القادر الحسيني، وصولاً إلى القسطل، التي أفرد لها مساحة كبيرة، مع كثير من التفاصيل التي بحاجة إلى تدقيق، منها الحديث عن خلافات شقت الصف الفلسطيني، ما بين الحسيني ورفاقه، وما بين أفراد عائلة أخرى كانت موالية لليهود، وغيرها الكثير من تفاصيل المعركة نفسها، وكيف استشهد أو «قتل»، على حد تعبيره، عبد القادر، وسط روايات عدّة، منها أنه تم العثور على جثمانه في وضعية الركوع.

استعراض كتاب كهذا، وتمحيصه، بحاجة إلى كتاب موازٍ، خاصة أنه اتكأ إلى مصادر عربية، ما يثير تساؤلات حول دور الباحثين الفلسطينيين خاصة، والناطقين بالعربية عامة، على توثيق مثل هذه الحكايات، أو الخروج، بعد كتاب روبنشتاين بكتب موازية، تدقق وتمحص فيما ورد فيه على امتداد أربعمئة صفحة إلا قليلاً.

وأختم بما نقله روبنشتاين عن الشهيد عبد القادر الحسيني.. «كان من المحظور، في نظر عبد القادر، التشكيك في موقف الحاج أمين ومعسكر آل الحسيني الحازم. هذا الموقف الذي أكده بالقول: لا يمكن أن تكون فلسطين للعرب والصهاينة معاً، إمّا نحن وإمّا هم (...* إنها حرب حياة أو موت، إمّا أن نخرج من الحرب منتصرين وإمّا أن نموت جميعاً».

ستي الفلسطينية لهدى الشوا
حين تلخّص الوارثة فريدة أهلها والعالم

تحسين يقين

هل تبدو احلامنا مستحيلة؟

يكمن الجواب بأسلوب غير مباشر في الرواية، مانحة الأمل بما يتجاوز المكان هنا، باتجاه خلاصات أخرى في العالم-الكون؛ فبالرغم من قسوة «هذا الماضي الذي يجمع جدتي وجدة مازن في صباهما في فلسطين ولا تلتقيان في حلب؟! فإن الرواية في الفقرة نفسها، وفي ذلك المونولوج الذي يدور في ذهن الحفيدة فريدة، فهي رغم عجبها من هذه القسوة، فإنها تسير بثقة نحو الغد: «ما أقسى الحاضر أيضا لكن ماذا عن المستقبل؟» صفحة ٩٧.

لذلك، فإن الرواية، وهي تصف مأساة «نهاية حلم الخط الحديدي والحافلات الذي وصل حيفا بدمشق وبيروت والقاهرة، نهاية حلم حيفا كمدينة ساحلية عصرية منفتحة..» ٩٦؛ فهي تخطط فعلا من أجل العودة، غير مكتفية بالحنين والحلم.

نحن إزاء نص أدبي إبداعيّ مميز، يتطلب نقدا إبداعيا؛ حيث نثرت الكاتبة في سرديتها من البذور، ما يحتاج الكاتب لتفكير، بحيث يلامس رسالة النص من جهة، ويعزف على أوتار عناصر البناء، لتشكيل لحن منسجم.

ككاتبة تهتم بالإطار العام والتفاصيل، كلمات وصور، فإن ما يلامس أعيننا من لوحة الغلاف على الوجهين، يقودنا للتنبؤ، بأن اللوحة تحاكي الاسم-العنوان، وهي لوحة

إبداعية، حيث أن فتاة بزي فلسطيني تطل من النافذة، مطوقة عنق فتاة أخرى بزي معاصر بعقد فضيّ، في حين تقف سيدة كأنها تنظر من نافذة أخرى نحو بحر وتلال رمادية تظهر من الأفق عينان تنظران بتركيز وعبوس كأنهما في صدمة. هما إذن لوحتان تتبعهما لوحة أخرى تظهر أشجار في الجزء الظاهر منها، كإننا إزاء نوافذ في البيت، أو لعلها لوحات ثلاث في جاليري.

عماد الرسالة إرث ثقيل، تمنحه الفتاة التي تصير جدة، للحفيدة، (ليست الجدة البيولوجية بالطبع)، بل جدة الحكاية، حيث تطل منها، من الماضي، من خلال رسمة، تطوقها بعقد «السبع أرواح»؛ الذي لم يسعفها الوقت عام ١٩٤٧، لترتديه لتكتمل الرسمة، حيث خاطبت الراهبة المشرفة مس جويل، ليلى الطالبة، في رحلة من حيفا إلى القدس، حين وجدتها وقد وقفت ليرسمها فنان: «أرى أنك وجدت قلادة من مهر العروس في فلسطين، اسمها قلادة السبع أرواح..» صفحة ٥١. أكانت الراهبة هنا، ساخرة، أو تمنح معلومة، أو تتنبأ بما سوف تكون عليه فريدة (عروس حفيدها مازن)، لتواصل الطريق.

كأن الدائرة تدور، لترتديه أدبيا، كأنه راية تتسلمها، لتستمر في طريق العودة؛ بحماس وشغف الشباب، مستدعية في ذلك، تنوير فلسطين، قبل عام ١٩٤٨، لا ما ارتبط من تهميش للاجئين الباحثين عن أسباب البقاء البيولوجي، باتجاه البقاء الوجودي الحضاري المقاوم للنفي.

وهنا تصبح « قلادة السبع أرواح»، مرتبطة دلاليا بطائر الفينيق الذي ما ان يحترق حتى يولد من جديد.

ولعله، الشعب، من سبع أرواح، يصعب تغييبه!

فروح الشعب المتجددة، تحلّ في الشابة فريدة، التي تمتلك صوتها الخاص في الرسم، لتخليص نفسها، في طريق الخلاص الجمعي، معيدة للمرأة هنا لا أصل الحكاية فقط، كون المرأة الفلسطينية هي من أبدعت في حفظ الحكايات، منذ الاحتيال الإبداعي بتطريزها رموزا على الثياب، وصولا لرواية نكبة عام ١٩٤٨، بل من جهة أخرى، تستعيد دورها الأساسي في حضارات الشرق خصوصا ما بين النهرين، كآلهة وحاكمة، قبل أن تحدث ما سميت فيما بعد

بظاهرة الانقلاب الذكوري. وذلك هو البعد الكوني؛ فنحن إزاء ليس خلاصا وطنيا فقط، بل عالميا، تقوده المرأة، مستمدة الكاتبة من الميثولوجيا من جهة كما في: «نزلت في ليلة قمرية الى العالم السفلي لإنقاذ حبيبي تموز. اجتزت حراس بوابات العالم السفلي. كان عليّ أن أقدم تنازلات عند كل بوابة: تجردت من كل قطعة من ثيابي، فزينتي، وصولجاني، فقلادتي..إلى أن وصلت». صفحة ٧٥، رابطة بين الحب والسلام ودور الأنثى ونقد الذكورة (بربطها إيحاء بالحرب): «أفكر ان هذه القاعة صرح للذكورة الجامحة، على خلاف تمثال عشتار الأنثوي الصغير المجرد من الثياب، الا من زينة الحلي وقلادة ذهبية تطوق عنقها الصغير « ص ٧٤، ومن المعاصرة كما في الإتيان بالفنانة المعاصرة فريدة كاهلو: « لوحة «بورتريه ذاتي»، تستدعي جسد الفنانة فريدا كاهلو المثخن بالجراح، تطوق رقبتها قلادة من الأشواك. أحدق في وجهها، ولوهلة ألمح لمسة أمل وإشراق وتفاؤل في عينيها. فنها كان خلاصها في مواجهة المرض والعزلة والموت. تخلق عالمها الملون في مواجهة الألم والوحدة». صفحة ٨٠. وتتويجا بنداء عشتار: «أنا عشتار الحب والخصب»؛ فهل أجمل من هكذا توظيف للتراث الحضاري إنسانيا وأدبيا.

رحلة الخلاص:

بدأت بالخلاص من أجل البقاء، بترك حلب في ظل الحرب هناك، حيث لجأت لفرنسا، وهناك، تستمر برحلة البقاء، بالعمل لتستطيع تأمين حاجاتها، لكنها، وهي تدخل تجربة تقليد اللوحات، تكتشف أنه عليها تغيير مسار حياتها الفنية، حين تكتشف صوتها الداخلي «يناديها»، بأن تكون هي نفسها: أسلوبها وفكرها، خاصة أنها تعلمت الفن، درسته، واختبرت نفسها: «كيف ساخلق عالمي الخاص؟ كيف ساستجيب لندائي الداخلي بجرأة بحرية؟» ص ٩٨. بعيدا عن التقليد والتنميط الغربي للنساء، وباستلهام روح فريدا كاهلو، مقيمة تصوير الرجل الفنان والمرأة الفنانة لجسد المرأة صفحة ٩٧، وصولا للبدء بالرسم:

« تتراءى ملامح امرأة، امراة تكاد تحرقني بشعاع نظراتها، منتصبة القامة، تحدق بثبات

وثقة وجرأة» ص ٩٨، وصولا لفرحة الحرية: «هذه لوحتي..هذه أنا!»، للتفرغ بعدها «للانشغال بالمواضيع التي تهمني وتمثلني، قررت الا أنقل اللوحات بعد اليوم، سارسم باسلوبي الخاص» ص٩٩. وهكذا تخلّص فريدة نفسها إنسانيا فكريا وشعوريا وبالتالي فنيا، عبر تأملها ونقدها أيضا للسوق الفني الغربي المرتبط طبعا بمنظومة فكرية معينة: «لم تكن لوحات فريدا كاهلو تمتثل للصورة الانثوية النمطية التي يرغبها السوق» ، ولهذا فإنها تقرر التحررهي، وتحرير المرأة أيضا: ««لن تكون مستلقية كالمحظية في لوحات الاستشراقيين، لن تكون تابعة او مسلوبة الإرادة. ستكون الانثى في رسوماتي كاسرة للقيود، متصالحة مع ذاتها وجسدها، فاعلة وملهمة» صفحة ١٠٠.

تتساءل: «هل اكون مثلهن؟ حلقة في سلسلة من النساء تتوارثن القوة والصبر والحكمة؟» ص١٠٣، مستلهمة عشتار: «أنا عشتار الحب والخصب حامية الطفل...»

بداية الجذور

فريدة معروف رسامة فلسطينية من حلب، عشرينية، هربت الى فرنسا بسبب الحرب في سوريا، تعيد رسم لوحات قديمة للفنان الفرنسي هنري ماتيس لتبدو كذلك، تعيش في لندن، حيث نرى سياق حياتها كرسامة في مرسم جواكيم. اختارت الهجرة إليها بعد الحرب الدائرة في سوريا، منذ ٩ سنوات. تظهر حياتها وحياة أسرتها من خلال التذكر، فهي من أصل فلسطيني من حيفا، لجأ جدها وجدتها الى حلب، طفولة فريدة الجدة في حيفا وطفولة فريدة الحفيدة في حلب، تلتقي مازن سلوم الفلسطيني المولود عام ١٩٨٢، عام اجتياح لبنان، اضطرت أسرته للجوء الى بريطانيا.

المسيو رينيه، الذي يتردد على المرسم يشجع جواكيم لإيفاد فريدة الى طنجة لزيارة المكان الذي رسم فيه الفنان ماتيس، للاقتراب من عوالم هذا الفنان الفرنسي» صفحة ٢١، مثل هذه لوحة «زهرة على الشرفة» التي رسمها هناك، تذهب هناك وتتعرف فتتعرف على أسلوبه عن قرب: «تدرج شمس مدينة طنجة» صفحة ٢٠.

تقلد فريدة لوحات الفنان، دون أن تدري، أنه يتم تعتيقها وبيعها على أنها للفنان نفسه، أي تزويرها؛ فمسيو رينيه يخاطب جواكيم: «إنها البيضة الذهبية التي ستمنح لنا الكثير» ص ٢٣.

أما مازن فشاب ثلاثيني يزور باريس للبحث عن لوحة، أو بالأحرى عن لوحة رسمت فيها ليلى جدته، من قبل فنان بريطاني زار فلسطين قبل نكبة ١٩٤٨. هو وليام ديكسون، وهو يبحث عنها لسببين، الأول كما أخبر فريدة: «أود أن أطالب باستحقاقي كوريث شرعي للوحة التي رسمها الفنان وليام ديكسون لجدتي ليلى» ص ٣٦ والثاني: لأنها وصية جدته.

تتابع فريدة عملها، وتكتشف ان القبو المعتم في الجاليري هو مخبأ للآثار القديمة المهربة، قادها لها صدفة القط ميلو، يتعمق شعورها هذا وهي تعرف أن جواكيم حفيد إميل بوتا، الذي عمل في التنقيب. يؤكد ذلك أيضا أنه رغم أن رينيه سرق ما سرق من القبو، بعد أن قيّد جواكيم، فإن الأخير يرفض الاتصال بالشرطة، لذلك فإنها تترك الجاليري، الذي هو جزء من مافيا آثار وتزوير لوحات.

تتطور العلاقة بين فريدة ومازن، الذي يجد نفسه يطلعها على صندوق جدته ليلى، حيث تعود فريدة الى زمن ليلى قبل عام ١٩٤٨، وبالذات الفترة الأخيرة، منذ شتاء عام ١٩٤٧ حتى ربيع عام ١٩٤٨.

يتبادلان معا قصصهما وصولا لقصص العائلتين قبل النكبة وبعدها، ويتركز على الجدتين: فريدة وليلى؛ حيث تعود جذور فريدة الجدة الى حيفا التي اضطرت عائلتها للجوء الى حلب عام ١٩٤٨، فيما تعود جذور ليلى إلى حيفا، ولجأت الى حلب، وهناك تزوجت من تاجر سوريّ (تتكون لها ذاكرة في حلب القصر والعادات والفن) انجبا زهرة وتوفي الجد، تكبر زهرة وتقع في حب فلسطيني في جامعة حلب من مخيم النيرب، تعارض العائلة الزواج، لكن يتم الامر وينتقلان هي وزوجها والجدة ليلى الى بيروت حيث ينجبا مازن، حيث حقبة المقاومة التي انتهت عام ١٩٨٢، حيث يكون مازن شابا ٢١ عاما، يتعرف على سر جدته وحبها القديم «الحب المستحيل..لا شفاء من الحب المستحيل» ص ٤٥. وترحل هناك بعيدة عن حيفا وحلب، بعد أن

توصيه بأن يبحث عن اللوحة، وكأنها تورثه الاحتفاظ بحق العودة لا الحلم فقط.

وتبدأ العقدة بالحل، من خلال صندوق ليلى، وهنا، تبدأ حكاية ليلى، حيث تتنقل الساردة فريدة الحفيدة بين جدتها وجدة مازن ليلى، التي ارتبطت عاطفيا بالفنان وليام ديكسون، وهو ضيف مقيم في متحف الجوهرية في القدس القديمة، ومهتم بأدب الشرق وفنونه الذي رسمها «بالثوب والشطوة... وقلادة السبع أرواح» ص ٥٠، حيث كانت طالبة في رحلة مدرسية في شباط ١٩٤٧تزور هذا المتحف، وكيف تبادلا الرسائل، حيث يخبرها وليام بأنه يقرا شعر قيس بن الملوح ورسائل ابن حزم، ويبثها الحب.

وكيف أنه زارها بضع مرات في حيفا، وصولا لأحداث حرب عام ١٩٤٨، حيث تنسف العصابات الصهيونية القطار العائد به من حيفا الى القدس، بعد أن يكون قد ائتمن فريدة صديقة ليلى على لوحتها. ثم ما يكون من مآل اللوحة، بعد أن تسترجعها من مكتب الراهبة الألمانية فيلومينا، لتوصلها لليلى، لكن يتم التهجير، فلا مدرسة تذهب إليها. وتقرأ فريدة الحفيدة كلمات الجدة ليلى في رسائلها الأخيرة لوليام: «لا وقت للحب الآن. حيفا تسقط» صفحة ٨٣، في سياق إعلان انتهاء الانتداب وقرار التقسيم، والقناصة اليهود في حيفا، وكيف يشرف الجيش الإنجليزي على تهجير أهل حيفا، حيث ليلى النظرات الأخيرة تجاه حيفا من السفينة المغادرة، ومأساة عمتها العروس.

لم تصل رسالة لوحة وليام لليلى، ولا الرسالة الأخيرة، التي يتفهم فيها صعوبة زواج ليلى من أجنبي، ونيته الرحيل الى صيدا في لبنان للعمل هناك، ولم يدر أنه لا رسالته وصلت ولا هو وصل.

وتظل اللوحة هناك في مكانها؛ فحين تري فريدة الحفيدة جدتها فريدة، المقيمة بحلب، إحدى الصور الفوتوجرافية لليلى جدة مازن، عبر تقنية السكايب، تتعرف على صورتيهما معا: «هذه انا يا ستي انا وليلى في رحلة مدرسية الى القدس» ٩٣، وهنا تخبر الجدة حفيدتها بحكاية ليلى ووليام واللوحة التي أودعتها حفرة في حائط بالدير «وما رجعنا الى المدرسة ثاني يوم يا ستي» ٩٤.

المصير الذي كان، والذي تكشفت خيوطه عبر ارتباط الذاتي بالموضوعي، تاريخيا وإنسانيا،

يعشن بمكان الشتات نفسه: حلب، ولا تلتقيان إلا عبر الحفيدة والحفيد، هناك في متحف اللوفر بباريس، من خلال اللغة العربية التي تتحدث بها فريدة مع صديقتها، والتي تكون مدخلا للتعرف ونبش الماضي الذي لا يفنى، والحاضر المؤلم في ظل استمرار الجدة الثمانينية في حلب حيث الحرب الدائرة في سوريا، التي انتكبت بشكل مفاجئ وعجيب.

في ظل ذلك، ترتبط فريدة الحفيدة بمازن، حيث يتفرغان أخيرا للحب والزواج، ويكون المهر «قلادة السبع أرواح» التي ورثها من أمه زهرة، والتي ورثتها هي الأخرى عن أمها ليلى.

لا مفرّ هنا من الخلاصين معا الذاتي والوطني الإنساني؛ هي وهو، هما معا، أكان بامتلاك إرادتهما في العمل والارتباط، أو بالعمل باتجاه العودة للوطن، حيث يصبح الماضي الجميل نورا للطريق نحو الغد، فلا رثاء (شعر اليوت عن نيسان) ولكن تذكيرا بما كان من أجل أن نكون؛ حيث تكمن الإرادة بالسير نحو المستقبل بخطة ثابتة تعرف حقوقها في فضاء المكان، والزمان القادم. لذلك خاطبت فريدة مازن: «لا اعرف يا مازن لمن ينتمي الماضي؟» صفحة ٧٦، في سياق حديثها عن الحروب والموروث الحضاري، وصولا لقرار العودة لفلسطين من خلال التطوع في مؤسسة ما، من أجل تثبيت موطئ قدم، تتلوه عودة قادمة، مختتمة الرواية ب: «سنعود الى حيفا، نحن الاحفاد، سنعود الى فلسطين ونسترجع ارثا فقدناه، ارث الاجداد والجدات. بدءا بلوحة ليلى. صفحة ١٠٤.

ولم يسلم وليام من التعلق بالمكان، شخصيا وبما له دلالة الارتباط بفلسطين والقدس؛ فمن خلال الحوار بينهما: «لم اتيت الى القدس يا مستر وليام؟ قال هي القدس يا مس ليلى ..هي مركز الكون» ص٥١.

تنوير ما قبل عام ١٩٤٨

ظهر تنوير حيفا والقدس، في الأربعينات، أكان ذلك على مستوى الملابس، أو على مستوى إنشاء المزارع المنظمة، كذلك وجود الميناء، والقطار، ومطاحن القمح ومصانع صابون، والرسومات.. استيراد القرميد من مرسيليا..فلسطين الحداثة والتواصل عبر شبكة قطارات:

يافا القدس بيروت طرابلس القاهرة.. أم كلثوم.. مسرحية هاملت باللغة العربية..الشوكولاتة هافانا التي سماها صاحب المصنع الذي أحب ممثلة إيطالية..وإنتهاء بنهاية «حلم الخط الحديدي والحافلات الذي وصل حيفا بدمشق وبيروت والقاهرة، نهاية حلم حيفا كمدينة ساحلية عصرية منفتحة..» ٩٦صفحة. ولعلنا هنا نربط ما بين التنوير والحداثة ووضع المرأة.

أسلوب الكاتبة:

تعددت الأصوات الساردة بتعدد المسرود عنهم/ن، فظل النص حيويا، زاده عمقا في الشكل من خلال تقنية السرد الزمن-مكانية، تقديما وتأخيرا، بحيث تشابكت الخيوط، لتربط مصائر الآن (فريدة ومازن)، وتكشف عن مصائر أمس (ليلى وفريدة الجدتين ووليام ..).

وقد اعتمدت الرواية على الصناديق هنا، أكانت مجازية أو حقيقية، استدعاء للأحداث، عبر شكل أدبي مشوّق؛ فهذا المسيو صندوق جواكيم «القبو المعتم»..صورته القديمة مع زوجته جانيت، خلفية الصورة الشرق..صفحة ٨٨، كذلك ذاكرة الجدتين فريدة وليلى عن حيفا قبل عام ١٩٤٨، وأحداث النكبة نفسها، والتي أصلا كما ذكرنا، قد أبدعت النساء فيها؛ فصندوق فريدة: «خازنة مرويات النكبة وتفاصيلها» ص ٣٩، هو الرواية الأصلية والأصيلة عن المكان. وعماد ذلك هو قدرة الجدة في الوصف والتفاصيل، أكان ذلك لوصف موجودات في بيت حلبي، أو أيام التهجير والنكبة.

أما ليلى فاحتفظت «بمجموعة رسائله ومذكراتها في صندوق مخملي، حملته معها في خروجها من حيفا..وعرفت حكاية اللوحة التي رسمها الفنان» ص ٣٦.

لذلك، كانت تختتم كل فصل باسكتش بالأبيض والأسود الصندوق الصغير أو الكبير الخاص بالنساء.

استدعاء الماضي وإعادة بناء المكان:

زاوجت الكاتبة بين خطين، الأول عن تطور الأحداث بين فريدة ومازن الآن في باريس، والثاني عن قصة مازن واللوحة، انسجم مع ذلك استدعاء متحف اللوفر للحديث عن الاستشراق،

وصف الحي اللاتيني وأحدب نوتردام، «وكتابات ادوارد سعيد وفاطمة المرنيسي عن الشرق المتخيل» صفحة ٢٥.

أما حلب فقد عادت طازجة بذكريات الطفولة، وأسماء الأماكن والحلويات.

كذلك استدعت الأمكنة عبر تقنية السكايب المعاصرة، حين يجرفها الحنين، فإنها كانت تذهب الى جدتها هناك.

واستدعت الأزمنة الحديثة من خلال ذكريات جواكيم وجانيت في سن الشباب، والقديمة بما يخصّ تنقيبات نينوى والملك الأشوري سرجون الثاني.

الشخصيات: ترسم الكاتبة الشخصيات بشكل رائع متكامل، شكلا ومضمونا، في سياق الأمكنة والأزمنة، والأحداث، لعل صورة مسيو جواكيم وجانيت، كانت متكاملة، من حيث انتسابه لعائلة تهتم بالآثار، ودراستها، والتنقيب، بل زواجهما في مصر، والهوس بالآثار المصرية القديمة..

ومن إبداعات السرد هنا، توظيف مشاهد بصرية تعمّق السرد، «حين لاحظت في المترو سيدة محجبة وطفلتها» صفحة ١٠، وهو مشهد ذكرها بطفولتها في حلب.

من ميزات النص قدرة الكاتبة على استخدام الحواس، سمع وبصر ورائحة ومذاقات، تجعل للنص مصداقية.

لغة: للكاتبة لغتها الأصلية في التعبير الجمالي، كقولها «حكاية جدتي مثل النكبة، شاخت وكبرت» ص ١٦، كذلك إدخال المعاصرة، «يومض الواتس اب»، «كنت قد ظننت أنني طردت اسمه من بالي، ولكن لملمه الهواء وارتد نحوي» صفحة ٤٥كذلك وجود المستوى الصوتي كما في «ميررررررنغا».

نختتم بلغة التشكيل البصرية بما توحي مضمونا تخيليا كما يمكن أن يكون، أو ما يجب فعلا أن يكون، كما في صفحة ١٠٣:»أغلق عيني فأرى سفنا تتزاحم وتملا مرفأ حيفا.. أبصر ألوفاً من الشباب والشابات ينزلون الى الميناء، يحيون أطياف الأجداد والجدات بعكازاتهم

وعكازاتهن، أبصرهم حاملين مفاتيح ومواثيق وصورا وصكوكا وعقودا وسندات وخرائط. أسمع خشخشات مفاتيح، صلصلة مفاتيح تطير وتملأ السماء، بعضها حديدية متآكلة، وبعضها يغطيها الصدأ، والبعض مصقولة لامعة...أسمع ضحكاتهم وثرثرتهم تتضخم وتتعالى في أجواء ميناء حيفا.».

- هل تبدو احلامنا مستحيلة؟

- .....

إيلان بابيه في «أكبر سجن على الأرض».. سردية جديدة للسيطرة الإسرائيلية على الأراضي المحتلة

بديعة زيدان

في كتابه «أكبر سجن على الأرض»، ومن خلال وثائق يُكشف عنها للمرّة الأولى، يقدّم المؤرخ إيلان بابيه إثباتاً ملموساً على أن حرب العام ١٩٦٧ لم تكن نتيجة حتمية لتصاعد التوتر بين إسرائيل وكلّ من سوريا ومصر، كما تناقلت السردية التاريخية المعروفة، فسرعة حسم المعركة، وآلية الحكم التي وُضعت قيد التنفيذ مباشرة بعد القتال، تثيران تساؤلات مشروعة حول حقيقة ما كان مخططاً له، ففي الواقع لا قرارات الأمم المتحدة في العام ١٩٤٨ التي انتزعت ٧٨٪ من أرض فلسطين، ولا كلّ تواطؤ العالم، كانت عوامل كافية لإشباع طمع الصهاينة بالسيطرة على ما يعتبرونه جزءاً من وطنهم التاريخي، أي الضفة الغربية وقطاع غزة، فعقدوا اجتماعات عدّة في الغرف السوداء، ووضعوا الخطط القانونية والتنظيمية لاحتلالها وطرد الفلسطينيين منها، وما لبثوا ينتظرون فرصة التنفيذ التي أتت بعد نحو عقدين، فما إن انقشع غبار المعركة حتى بدأ الإسرائيليون بتحويل الضفة والقطاع إلى سجن كبير، فأصبح الفلسطينيون شعباً بلا هوية ولا حقوق ولا مقوّمات عيش، تمزق أرضه المستوطنات المزروعة كالأسافين.

وأكد بابيه، في كتابه الصادر بالعربية عن «نوفل» (دمغة الناشر هاشيت أنطوان) في

بيروت، حديثاً، أن «تلك الخطة السرّية لا تزال قيد التطبيق حتى اليوم، وإسرائيل نجحت في إفراغ كلّ مبادرات السلام من مضمونها، وهي تستغل كل تعبير فلسطينيّ عن الغضب، لتقضم مزيداً من الأراضي، وتُصعّد العنف والإذلال والإبادة الجماعية، بهدف إقامة دولة يهودية ذات نقاء عرقيّ.

تلّة وسجنان وثلاث وكالات

كان العنوان أعلاه تمهيداً للكتاب، الذي امتد على اثني عشر فصلاً، بحيث أشار بابيه إلى أن «جفعات رام»، تعني بالعربية مجلس الضبّاط، وهي منطقة ممتدة مترامية فوق هضبة في أقصى الطرف الغربي لمدينة القدس بموقعها الحالي، واستقر فيها العديد من الوزارات، والكنيست، وأحد حرمي الجامعة العبرية، بالإضافة إلى بنك إسرائيل، وهي التلة التي وصفها الروائي الإسرائيلي عاموس عوز في رواية «حنة وميخائيل»، الصادرة في العام ١٩٦٨، إلى أنها تلّة «يرعى فيها العشب وقطيع صغير من الخراف قرب مكتب رئيس الوزراء»، ولكن، اليوم، لا خراف فيها، ولا أثر للمراعي القديمة، فقد حلّ محلها نظام متطوّر من الطرق السريعة، والبوّابات الحديدية، والجسور المعلقة، وبستان ورد «لا بأس به»، إلا أن أغناماً كانت ترعى العشب فعلاً على تلك التلة عندما كانت «جفعات رام»، مجرّد قرية فلسطينية ريفية تعرف بتلّة الشيخ بدر، وما زال عدد ضئيل من بيوت تلك القرية قائماً قرب الفنادق الأميركية العصرية، التي ينزل فيها اليوم أعضاء الكنيست الإسرائيليون الذي لا يعيشون في القدس. شيئاً فشيئاً، توسعت «المدينة» حتى ابتلعت القرية، قبل أن ينال منها التطهير العرقي على أيدي «القوات الإسرائيلية» في العام ١٩٤٨.

كانت «جفعات رام» جزءاً معروفاً جداً من المدينة، فهي تطل على أحد المعالم الأكثر شهرة في القدس، ألا وهو وادي الصليب. يُروى أن الشجرة التي أخذت منها خشبة صليب المسيح كانت من هذا الوادي، ولعلّ هذا يفسّر سبب بناء الرهبان الأرثوذوكس

اليونانيين لدير الصليب المقدس، الذي لا يزال قائماً إلى اليوم، رغم إحاطته بأحياء يهودية وبطرق التفافية جديدة.

إلى الغرب من الدير، يقع أحد الحرمين الرئيسين للجامعة العبرية في القدس، وقد بُني على أرض صودرت من قرية الشيخ بدر ذاتها، وباعها للجامعة حارس أملاك الغائبين الإسرائيلي، تلك الأملاك التي يُزعم الاحتفاظ بها إلى حين اتخاذ قرار مستقبلي بشأنها، لكنها في الواقع، كما أشار بابيه، كانت تُباع إلى أي فرد يهودي أو مؤسسة يهودية على استعداد لدفع الثمن البخس الذي حُدّد لها.. حتى العام ١٩٤٨، كانت الجامعة العبرية قائمة على جبل المشارف، الذي أصبح «أرضاً محظورة» لا يمكن الوصول إليها، وبعد حرب حزيران ١٩٦٧، أو احتلال ما تبقى من الأرض الفلسطينية، نُقل العديد من أقسام الجامعة من «جفعات رام» إلى الحرم القديم على جبل المشارف، بعد توسعته، حينذاك، على حساب أراضٍ فلسطينية مُصادرة.. إلى الشمال من الحرم الجامعي الجديد، وفي الوقت نفسه تقريباً، شُيّد مقر جديد للحكومة الإسرائيلية.

في صيف العام ١٩٦٣، التحقت مجموعة طلاب، وصفهم بابيه بـ»غير عاديين»، بدورة دراسية لشهر واحد في هذا الحرم الجامعي، وكانوا كلهم تقريباً ذوي خلفية حقوقية، من أعضاء في الإدارة العسكرية التي كانت تسيطر على المناطق حيث يعيش فلسطينيّو ١٩٤٨، في ظل حكم صارم سلبهم معظم حقوقهم الأساسية، والبعض الآخر ضبّاط في قسم العدل بجيش الاحتلال، أو مسؤولون في وزارة الداخلية الإسرائيلية، وكان بينهم محامٍ أو اثنين من القطاع الخاص.

تولى قسم العلوم السياسية في الجامعة العبرية دعوة هذه المجوعة. تضمّنت الدورة الدراسية محاضرات عن الحكم العسكري عموماً، والوضع السياسي في الضفة الغربية وقطاع غزة، ونقاشات حول العِبر المُستخلصة من الحكم العسكري الإسرائيلي في سيناء وغزة العام ١٩٥٦، وداخل إسرائيل منذ العام ١٩٤٨. وبطبيعة الحال، لم يستعمل المُحاضر تعبير «التطهير العرقي» تحديداً، بل تحدّث عن عملية «بيفوسي» التي نظمت

في نيسان ١٩٤٨، والتي أدّت إلى تدمير كامل لأعداد كبيرة من القرى الفلسطينية وطرد سكّانها.. كانت هذه الدورة جزءاً من الاستراتيجية العسكرية الشاملة التي أطلقها رئيس الأركان العامة الإسرائيلي، وطرحها على الجيش في الأول من أيار ١٩٦٣، وتهدف إلى السيطرة على الضفة الغربية بحيث تتحوّل إلى «منطقة عسكرية محتلّة».

سميّت الخطة، التي دعت إلى التفكير بجدية أكبر في احتلال الضفة الغربية، بخطة «شاكهام»، وتم بموجبها تقسيم الضفة الغربية إلى ثماني مناطق، لتسهيل فرض حكم عسكري منظم عليها، وكان ميشائيل شاكهام يشغل، آنذاك، منصب الحاكم العسكري العام للأراضي الفلسطينية داخل إسرائيل، كما كان أيضاً أحد مؤسسي الوحدة ١٠١ بالتعاون مع أرئيل شارون.

وقفت ثلاث مجموعات وراء الخطة: أعضاء في قسم العدل في جيش الاحتلال، وأكاديميون في الجامعة العبرية، ومسؤولون في وزارة داخلية الاحتلال، وكان معظمهم منخرطين في وظائف متنوعة بالإدارة العسكرية التي فرضت على الفلسطينيين العام ١٩٤٨، وكانت لا تزال قائمة في العام ١٩٦٣.

ونصّت الخطة على تعيين مستشار قانوني للحاكم العام «المستقبليّ» للأراضي المحتلة، وعلى إنشاء أربع محاكم عسكرية، فيما تضمنت ملاحقها ترجمة عربية للقانون الأردني، ولأنظمة الانتداب التي كانت سائدة في العام ١٩٤٥، ورغم أنها كانت مطبّقة فعلياً داخل إسرائيل، إلا أن الإسرائيليين، ولسبب ما، وفق بابيه، لم يكونوا يمتلكون ترجمتها العربية، ولعل مرد ذلك، حسب المؤلف، يعود إلى التدابير شديدة القسوة، التي كانت تطبّق القانون الإسرائيلي على اليهود وغير اليهود، في حين كان المستوطنون لا يخضعون لهذه القوانين فور استيطانهم في الضفة الغربية.

في غضون ثلاث سنوات، أصبح الفريق جاهزاً لاحتمال حدوث احتلال عسكري، وقد تحوّل واقعاً في حزيران ١٩٦٧، بحيث تم نقل الدورات الدراسية المختلفة إلى «بيت الجندي» في القدس، أما محتوى الدورات وهدفها الرئيسي، فبقيا ثابتين: الاستعداد

لليوم الذي يبدأ فيه تطبيق الحكم العسكري على الأرض في الضفة الغربية وقطاع غزة.

وفي أيار ١٩٦٧، تسلم كلّ من الحكام العسكريين والمستشارين القانونيين والسياسيين الموضوعين في الانتظار، صندوقاً يحوي ما يلي: تعليمات حول كيفية إدارة منطقة عربية محتلة، ونص كل من اتفاقية جنيف واتفاقيات لاهاي، ونص الترجمة العربية لقوانين الطوارئ، ونسخة من كتاب «احتلال أرض العدو: قراءة تحليلية لقانون وممارسات الاحتلال العسكري» من تأليف جيرهارد فان غلان، بالإضافة إلى مجموعة من تقارير القانون الدولي حول الحكم الإداري نشرها العام ١٩٢٩ إلياهو لوترباخت وسي جاي غرينوود وإيه جي أوبنهايمر.

واللافت أنه عندما فرضت تلك الأنظمة لأول مرة في العام ١٩٤٨، ومن ثم في العام ١٩٦٧، لم يذكر أحد أنه عندما أدخلها الانتداب البريطاني حيّز التنفيذ للمرّة الأولى، شجبها جميع القادة الصهاينة واعتبروها تشريعات نازية، كما وصفوها بأنها أنظمة «لا مثيل لها في أي بلد متنوّر، وبأن ألمانيا النازية ذاتها لم تفرض مثل هذه الأنظمة، وأن الممارسات التي كانت سائدة في معتقل مجدانك وغيره من المعسكرات هي خرق واضح للقانون المكتوب.

وكانت أسوأ الأنظمة، وما زالت، الفقرة ١٠٩ التي تسمح للحاكم بطرد السكان، والفقرة ١١٠ التي تعطيه الحق باستدعاء أي مواطن إلى قسم الشرطة في أي وقت يشاء، بالإضافة إلى فقرة أخرى وصفها بابيه بـ»الشائنة»، وهي الفقرة ١١١ التي تجيز الاعتقال الإداري، أي الاعتقال لمدّة غير محدّدة دون إبداء السبب أو المُحاكمة، وستصبح هذه الممارسة بعد احتلال العام ١٩٦٧ أمراً مألوفاً أكثر من قمع الفلسطينيين بداخل إسرائيل. ومن الممارسات الناتجة عن التفسير الإسرائيلي لعدّة أنظمة، ألا وهي حق الحكّام في اللجوء إلى تدابير احترازية كان أكثرها شيوعاً، إعلان قرى فلسطينية بأكملها «مناطق عسكرية مغلقة»، كلما وردت معلومات مسبقة إلى جهاز الأمن العام

الإسرائيلي، المعروف بالعبرية بـ»الشين بيت» أو «الشاباك»، عن اجتماع مزمع أو عن تظاهرة مُحتملة. ولقد فرض هذا الأجراء لأول مرة في إسرائيل العام ١٩٤٩ عندما تظاهر فلسطينيون ضد مصادرة الأراضي، وظل موضع تطبيق باستمرار لإسكات أصوات أي احتجاجات في الضفة الغربية حتى يومنا هذا، وفي قطاع غزة حتى العام ٢٠٠٥.

سردية أحداث الاحتلال.. إعادة قراءة

يقدّم بابيه في كتابه هذا، إعادة قراءة سردية لأحداث الاحتلال، كاشفاً عن أن الحكومة الإسرائيلية ناقشت مصير هؤلاء الفلسطينيين والأرض التي كانوا يعيشون عليها في حزيران ١٩٦٧. ونصّ القرار النهائي الذي تم التوصل إليه قبل نهاية الشهر ذاته على استثناء الضفة الغربية وقطاع غزة من أيّ مفاوضات سلام مستقبلية، وكان الهدف اتخاذ قرار أحادي الطرف بشأن الأراضي المحتلة، والسعي إلى تأييد دولي لهذه السياسة الجديدة، أيّاً كانت، ويُشكل هذا القرار نقطة ارتكاز تتمحور حولها سردية هذا الكتاب.

ومما سبق، ويلي، يتضح عبر الكتاب، أن إسرائيل الرسمية كانت تتحضّر للتحكم بحياة الفلسطينيين في الضفة والقطاع تماماً، كما كانت تتحضّر للتحكم بحياة الفلسطينيين داخل إسرائيل، الذين كانوا يعيشون بشكل أساسي في مناطق خططتها الأمم المتحدة في العام ١٩٤٧ للدولة الفلسطينية، لكن إسرائيل ضمّتها إلى أراضيها دون مساءلة أو شجب من المجتمع الدولي.

ويرفض بابيه استخدام مصطلح «احتلال» للكلام عن الضفة الغربية وقطاع غزة في ظل الحكم الإسرائيلي منذ ١٩٦٧ وحتى يومنا هذا، مع إقراره أن المصطلح شائع جداً للدلالة على واقع الحياة في الضفة الغربية وقطاع غزة، لافتاً إلى أن التحفظ الأول مرّده، أن استخدام هذا المصطلح يوحي بوجود فصل وهمي بين إسرائيل والأراضي

المحتلة، ممّا يشرعن بطريقة غير مباشرة الوجود الإسرائيلي في كلّ المناطق الأخرى، على ما كان يُعرف بأرض فلسطين الخاضعة للانتداب، كما ويؤسس للانقسام غير المقبول بين إسرائيل «الديمقراطية» والأراضي المحتلة «غير الديمقراطية»، أما التحفظ الثاني فيتعلق بالتداعيات السياسية والقانونية التي غالباً ما تقترن بمصطلح «الاحتلال»، فالاحتلال يُنظر إليه عادة على أنه تدبير مؤقت لتأمين أرض في أعقاب نزاع مسلح أو حرب، وتكون لهذا الاحتلال بداية ونهاية، وهو يخضع لأحكام وقواعد دوليّة تنبع من الطابع المؤقت لأي احتلال مفترض.

لكنّ الواقع القائم في الضفة الغربية وقطاع غزة يختلف من ناحيتين جوهريتين، أولاهما، والتي تنبثق من هذا الكتاب، هي أن هذا «الاحتلال» ليس مؤقتاً، فالسلطات التي تتشبث بالأراضي المحتلة وتلك التي تؤيد «المُحتل» تتقبل أن واقع «الاحتلال» سيدوم لسنوات طويلة قادمة.. مع العام ١٩٨٧، كان هذا الاحتلال قد دخل التاريخ باعتباره أطول احتلال عسكري قائم.. أمّا ناحية الاختلاف عن حالات الاحتلال العسكري المعروفة، فتكمن في أن المُحتل يمارس سيطرة كاملة على الضفة والقطاع، فهذا "احتلال عسكري، لكنه لا يدوم طويلاً، إلا إذا كان الاحتلال جزءاً من عملية ممنهجة للإقصاء أو الإبادة الجماعية. لذلك، فإن الحدّ الذي وصلت إليه ممارسات السيطرة الكاملة على ما صار يعرف بالأراضي المحتلة يدفعنا إلى البحث عن مصطلح لغوي أفضل.

واللافت، أن التحليل الذي يعرضه إيلان بابيه في كتابه «أكبر سجن على الأرض»، يثير شكوكاً، ليس فقط، حول إمكانية انطباق المعاني والتفسيرات القانونية الدولية لمصطلح «الاحتلال» على الواقع الميداني، بل أيضاً، لكون تلك المعاني والتفسيرات سمحت لـ«دولة إسرائيل» التملص من أي شجب أو إدانة دوليّين جدّيين.

إسرائيل وفلسطين: الاستعمار الاستيطاني

في السنوات الأخيرة، استعان الأكاديميون بمفهوم الاستعمار الاستيطاني لدراسة حالة إسرائيل وفلسطين. يُعرف الاستعمار الاستيطاني بأنه حركة انتقال الأوروبيين إلى مناطق أخرى من العالم بهدف بناء حياة جديدة ودائمة لهم. وغالباً ما كانت تلك الحركة تأتي نتيجة للاضطهاد، كما حصل بالفعل مع المستوطنين اليهود في فلسطين، ولطالما استتبعت الهجرة إلى وطن جديد تصادماً مع السكان الأصليين، حسب بابيه، ما أدّى إلى انهيار المشروع الاستيطاني، كما حصل في الجزائر وجنوب أفريقيا وزيمبابوي.

لكنّ فلسطين حالة استثنائية، فلا أحد يعرف كيف ستكون المآلات، أو «النهاية» بتعبير بابيه، وهل يستمر تطبيق منطق الاستعمار الاستيطاني، الذي عرّفه الراحل باتريك وولف بأسلوبه اللامع بأنه «منطق إزالة السكّان المحليين» في فلسطين من خلال التطهير العرقي والاستعمار، أم أن المستقبل قد يُفسح المجال أمام تقدّم منطق الحقوق الإنسانية والمدنية، لافتاً إلى أن الوقت وحده هو الكفيل بالإجابة عن ذلك.

وأضاف بابيه: ما نستطيع قوله، بالاستناد مجدداً إلى باتريك وولف، هو أن الاستعمار الاستيطاني هو بُنية وليس حدثاً: بنية تشريد واستبدال، أو إن أعدنا صياغة كلمات إدوارد سعيد، استبدال الغياب بالحضور. أبصرت هذه البنية النور في العام ١٨٨٢، ووصلت إلى ذروة معيّنة في العام ١٩٤٨، واستمرت بقوّة في العام ١٩٦٧، ولا تزال قائمة حتى اليوم.

والسجن الضخم، حسب بابيه، هو إحدى الطرق العديدة التي اعتمدتها دولة إسرائيل الاستيطانية لإبقاء المشروع قائماً. لقد أنشئ ذلك «السجن الضخم» في غضون أيّام قليلة، وأصبح واقعاً راسخاً لم نرّ مثيلاً له في التاريخ المُعاصر، فالسجون بُنى دائمة، بعيدة عن أنظار المجتمع الدولي، وتعمل وكأنها عالم مستقل بذاته.

أنشئ «السجن الأضخم» في حزيران ١٩٦٧، لا للإبقاء على الاحتلال بل كاستجابة عملية للشروط الأيديولوجية المسبقة للصهيونية: أي الحاجة إلى السيطرة على أوسع مساحة ممكنة من فلسطين التاريخية، وخلق أكثرية يهودية مُطلقة فيها، بل وحصرية

إذا أمكن.

أدّت هذه الدوافع إلى تطهير عرقي في فلسطين العام ١٩٤٨، وشكلت أساساً للسياسة التي صيغت في حزيران ١٩٦٧، تماماً كما لا تزال تحرّك الأفعال الإسرائيلية حتى اليوم.

اثنا عشر فصلاً

شكّل «السجن الضخم» النتيجة المنطقية والحتمية للتاريخ والأيديولوجية الصهيونيّتين، وعليه، قدّم الفصل الأول من هذا الكتاب (الحرب: خيار كان مُمكناً تجنبه)، خلفيّة السياسة التي سادت العام ١٩٦٧، كنتيجة للاستراتيجيات التي تبنّتها الصهيونية منذ العام ١٩٨٢، ولا سيّما في العام ١٩٤٨، فهذا الفصل شكل ما يمكن وصفه بالمسح للفترة الممتدة ما بين ١٩٤٨ و١٩٦٧، التي شكّلت تمهيداً لا يمكن وصفه عن السياق العام لحرب ١٩٦٧، كما للسياسة المنتهجة في أعقابها. إنها قصّة رغبة دائمة لاحتلال الضفة الغربية، وعلى نحو أقل قطاع غزة، رغبة لم تتحقق بسبب غياب الفرص الملائمة، وليس من باب المماطلة الاستراتيجية.

الفصول الأربعة التالية الموسومة بـ«ابتداع السجن الكبير، و«القدس الكبرى مشروعاً تجريبيّاً»، و«الرؤية التي قدّمها ألون»، و«مكافآت اقتصادية وعقوبات انتقامية»، وصفت طريقة تنفيذ القرارات المتّخذة العام ١٩٦٧، بحيث بدأ ذلك بترسيم الحدود الجغرافية والديموغرافية للسجن الضخم، كما يصّر بابيه على توصيفه، تلته صياغة واضحة للبنية التحتية القانونية الهادفة إلى تنظيم الإدارة البيروقراطية للأراضي المحتلة.

في مرحلة أولى، حدّدت الحكومة الإسرائيلية مواقع استيطانية لليهود ضمن أسافين دقّتها في الضفة الغربية وقطاع غزة، كما اتخذت قراراً واضحاً بشأن النظام القضائي الذي سوف يُعتمد لإدارة شؤون السكّان في الأراضي المحتلة، لكنها تركت مسألة تحديد وضعهم القانوني في مهب الريح، وهي لا تزال كذلك حتى يومنا هذا.

بعد استعراض مراحل ترسيم الحدود الجغرافية والديموغرافية للسجن الضخم، يتفحص الكتاب عن كثب، وبالتسلسل الزمني نموذجين اثنين «قدّمتهما» إسرائيل للفلسطينيين.. النموذج الأول، أي السجن المفتوح، ظلّ قائماً ما بين ١٩٦٧ واندلاع الانتفاضة الأولى في ١٩٨٧، واتّسم بقدر من القمع كان كافياً لإطلاق حركة مقاومة شديدة من السكان المحليين، لقيت فيما بعد تأييداً ودعماً من منظمة التحرير الفلسطينية في تونس، وفق بابيه.

أتى الرد الإسرائيلي عنيفاً، وفرض بين ١٩٨٧ و١٩٩٣، النموذج الأكثر قمعاً، أي السجن مشدّد الحراسة. أدّى الضغط الدولي إلى محاولة جديدة لاستحداث سجن مفتوح، جرى تقديمه للعالم الخارجي على أنه «عملية سلام» أطلقتها ورعتها الولايات المتحدة الأميركية.

استندت هذه العملية إلى «مسرحية نقاش داخلي» لدى سلطة الاحتلال، بين معسكر «السلام» الراغب في إنهاء الاحتلال ومعسكر «الوطنيّين» الساعي إلى الإبقاء عليه.. نظريّاً، كان يمكن المضي قدماً في عملية سلام بسبب وجود عدد كبير من الإسرائيليين الراغبين في وضع حد للاحتلال.. وكتب بابيه: ما جرى كان مسرحية، لا بسبب عدم وجود إسرائيليين راغبين في إنهاء الاحتلال، بل لأنّ هؤلاء كانوا ضئيلي العدد وهامشيّين، ففي العام ١٩٦٧، وبعدها في تسعينات القرن العشرين، واصلت النخبة السياسية والعسكرية الالتزام بالمبادئ ذاتها التي دفعتها إلى احتلال الأراضي الفلسطينية أساساً.

الواقع، حسب بابيه، أن نتيجة مثل هذا التباين بين الحوار لإحلال السلام من جهة، وغياب أي تغيير في واقع الاحتلال من جهة أخرى كانت أسوأ بكثير، فعلى الأرض سمحت المساعي الدبلوماسية لإسرائيل بتشديد قبضتها على الأراضي المحتلة وسكانها، بمنأى عن أي ضغط أو شجب دوليين.

يتطلب النموذج الفكري، الذي اقترحه بابيه في كتابه هذا، استحداث قاموس جديد ومصطلحات جديدة. ويتجلى ذلك في مقاربته التي اختار استعراضها كجزء من

المساعي الإسرائيلية لترسيخ نموذج السجن المفتوح من جهة، ورفضه للتصوّر السائد بأن هذا النموذج كان ولا يزال جهداً صادقاً للتوصّل إلى مصالحة وتفاهم مع الشعب الفلسطيني من جهة أخرى.

من منظار «السجن الضخم»، تبدو النقاشات الداخلية الإسرائيلية حول الأراضي الفلسطينية حافلة بالأوهام والنفاق. فالقرارات الاستراتيجية الرئيسية حول مصير الأراضي المحتلة اتخذت بعد حرب ١٩٦٧ مباشرة، ما جعل معظم النقاشات السياسية «المزعومة» التي دارت بعد ذلك، بين «معسكر السلام» و«معسكر الحرب» في إسرائيل عديمة الأهمية في أفضل وصف لها، وكاذبة في أسوأ وصف لها، وإن كان هذا التقييم صحيحاً، فمعناه أنّ عملية السلام المتمحورة كليّاً حول هذا «النقاش» كانت محكومة بالفشل منذ لحظة إطلاقها، حسب بابيه.

الفصول السبعة المتبقية، ولكل سرديته الجديدة، حملت عناوين: «التطهير العرقي في حزيران ١٩٦٧»، و«إرث حزب العمل من ١٩٦٨-١٩٧٧»، و«بيروقراطية الشرّ»، و«في الطريق نحو الانتفاضة»، و«الانتفاضة الأولى: ١٩٨٧-١٩٩٣، و«تمثيلية أوسلو والانتفاضة الثانية»، و«نموذج السجن المشدّد الحراسة: قطاع غزة».

وتنتهي السردية التاريخية لهذا الكتاب بإعادة فرض السجن مشدّد الحراسة الثاني على الضفة الغربية وقطاع غزة في القرن الحالي، ففيه نقل بابيه عن بعض المراقبين أن نسخة أكثر تطرفاً من السجن مشدّد الحراسة، وهو ما تم التطرق إليه في الفصل الأخير من الكتاب.

لكن بالعموم، يمكن الإشارة إلى أن هذا الكتاب ليس تاريخاً شاملاً للضفة الغربية وقطاع غزة منذ العام ١٩٦٧، لكونه توقف، وباعتراف مؤلفه، عند لحظات حاسمة، باتت اليوم معروفة جداً، من تاريخ المنطقة، لكنه وبعكس السردية المألوفة لهذه الأحداث تطرّق إليها بصفتها تعديلات على نموذج السجن الضخم، قامت بها السلطات الإسرائيلية على وقع تطوّر الأحداث، ويبدو أن أيّاً من الأحداث التي وقعت منذ

حزيران ١٩٦٧ وحتى يومنا هذا، لم ينجح في الحدّ من تصميم السلطات الإسرائيلية على إبقاء الضفة الغربية وقطاع غزة تحت السيطرة الإسرائيلية المشددة، وحبس سكّان المنطقتين (الضفة وغزة) داخل سجن ضخم، وتجاهل أي ضغط دولي للحد من سياساتها الإجرامية.

الكتاب تاريخ لقوة الاحتلال أكثر منه تاريخاً للشعب الخاضع للاحتلال، فهو يسعى لتفسير الآلية التي تم استحداثها لحكم ملايين الفلسطينيين، وليس لاستعادة مراحل حياتهم. صحيح أن الفلسطينيين يظهرون في الكتاب، لكنه في الواقع سرد لما تعرّضوا له من قمع، أكثر منه سرداً لتطلعاتهم، ونسيجهم الاجتماعي، ونتاجهم الثقافي، ولجوانب أخرى من حياتهم تستحق فعلاً أن يذكرها التاريخ الذي يأمل بابيه أن «يُكتب ذات يوم، لأن مقاومتهم وصمودهم يستحقان التأريخ وتسليط الضوء عليهما للأجيال القادمة».

يصف هذا الكتاب، منذ صفحته الأولى وحتى الأخيرة، حركة تاريخية بدأت بطرق كثيرة في أواخر القرن التاسع عشر، واستمرّت في العام ١٩٤٨، وهي الآن في مرحلتها الثالثة التي بدأت في ١٩٦٧.. إنه بمثابة سجل للمشروع الصهيوني والإسرائيلي حتى يومنا هذا، مع تركيز خاص على المرحلة التي بدأت مع الاجتماعات الحكومية الإسرائيلية في العام ١٩٦٧، أو قبلها بأعوام قليلة، وتحديداً منذ العام ١٩٦٣، وخطة «شاكهام».

جدير بالذكر أن بابيه يخلص في كتابه «أكبر سجن على الأرض» إلى «أنّ نموذج السجن هذا يشوبه خلل، لأن السلطات الإسرائيلية التي تُبقي الفلسطينيين في الأسر، لا تُمانع إن رحلوا عن هذا السجن إلى غير رجعة. أمّا من كان مُصرّاً على البقاء في أرضه، أو لم يرغب في الانضمام إلى ملايين اللاجئين المُشرّدين في الشرق الأوسط، وفي القرن الحادي والعشرين، فخياره الوحيد هو السجن الضخم».